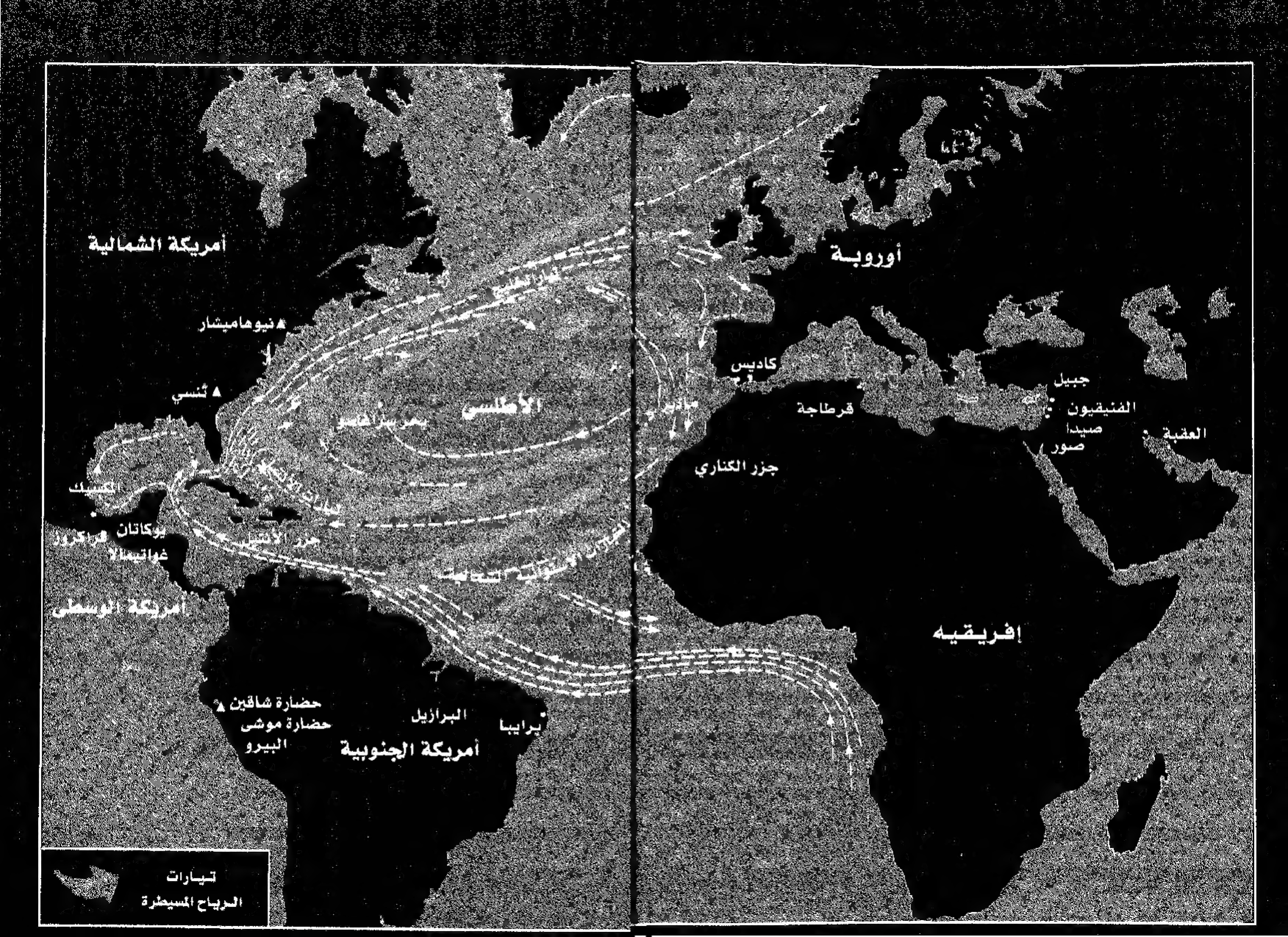
هـــايـــنـــكـــه زودهـــوف

معذرة كولومبوس

لَسْتَ أَول من اكتشف أمريكا

تعريب الدكتور حسين عمران



أمريكة الشمالية
أوروبة
نيوهاميشار
تنسي
كاديس
جبيل
الفنيقيون
قرطاجة
صيدا
العقبة
صور
جزر الكناري
يوكاتان
غواتيمالا
أمريكة الوسطى
إفريقيه
حضارة شافين
حضارة موشي
البيرو
البرازيل
برايبا
أمريكة الجنوبية
تيارات
الرياح المسيطرة

معذرة كولومبوس

لست اول من اكتشف امـريكا



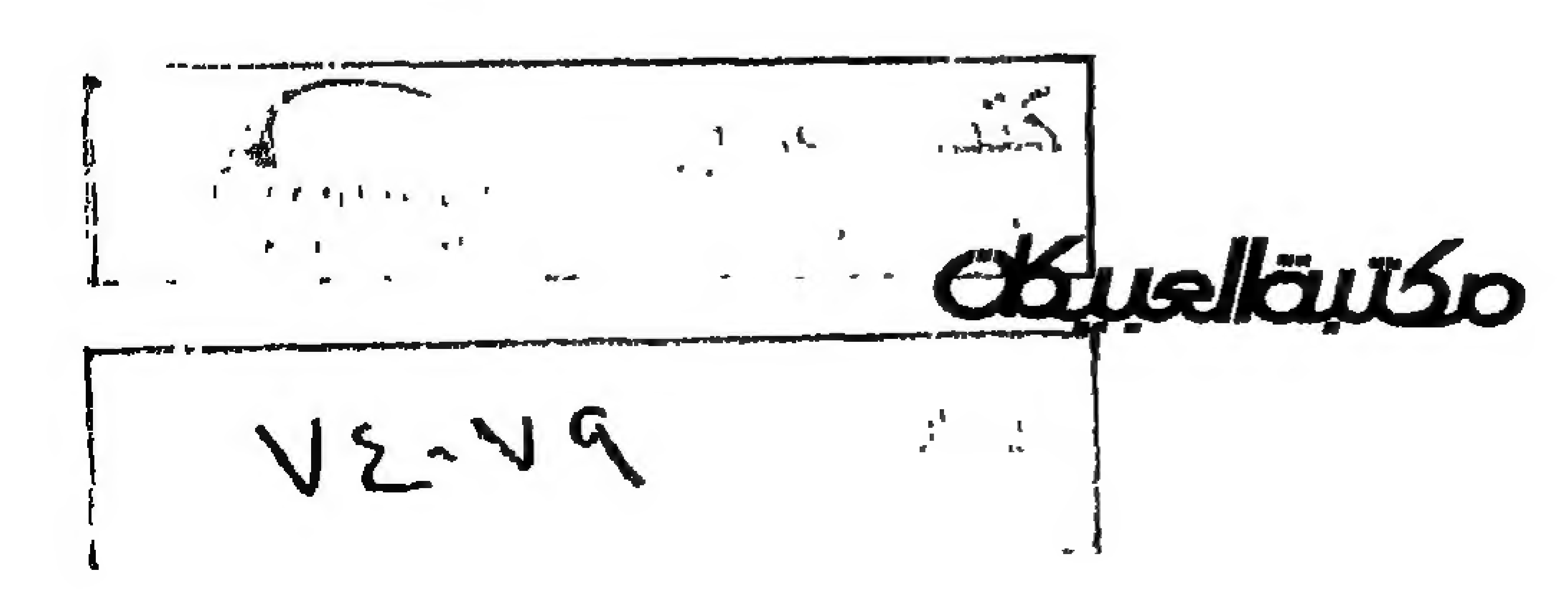
هاينكه زودهوف

معذرة كولومبوس

لست أول من اكتشف أمريكا

تعريب

الدكتور حسين عمران



Originally Published in German by Gustav Lübbe Verlag Gmbh, Bergish Gladbach

Sorry Kolumbus

Seefahrer der Antike entdecken Amerika

طريق الملك فهد، مع تقاطع العروبة، ص.ب. 6672، الرياض 11452

المملكة العربية السعودية

Obeikan Publishers, North King Fahd Road,

P.O.Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1421 هـ ـ 2001م

ISBN 9960-20-858-3

© مكتبة العبيكان، 1421 هـ ـ 2001

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زودهوف، هايتكه

معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا   تعريب: حسين عمران ـ الرياض

312 ص، 14,5 × 21 سم

ردمك: 9960-20-858-3

1 ـ الولايات المتحدة ـ تاريخ   أ ـ عمران، حسين (تعريب)

ب ـ العنوان

ديوي 973   21 ـ 5339

رقم الإيداع: 21 ـ 5339

ردمك: 9960-20-858-3

المحتويـات

رسالة إلى كولومبوس

معذرة يا كولومبوس، أنت لم تكن الأول! ولم تكن أمريكة تنتظرك بِكْراً، غير مكتشفة، بل عرفت شواطئها قبلك بعضاً من بحارة العالَم القديم.

إنها النجوم نفسها التي اهتديت بها ونفس التيارات البحرية التي استخدمتها، ونفس الرياح التي قادتك عبر الأطلسي هي التي نقلت قبلك بزمن بعيد بحارة لم تكن سفنهم أقلّ شأناً في البحر من سفينتك «سانتا ماريا»، سننتزع من فوق رأسك أغصان الغار التي وضعها العالَم قبل خمسمائة عام على شعرك المجعَّد الأشيب «على أنك مكتشف أمريكة». غير أننا لن ننكر عليك إنجازاتك بحاراً كفؤاً، ماهراً، ونؤكّد لك بكل قوة تقديرنا لتصميمك الذي من خلاله استطعت أن تشق طريقك بعزم من بحار مهيض الجناح قادم من جنوا، إلى صاحب حظوة في بلاط الملك الإسباني إلى أن وصلت إلى هدفك بكل فخار، وكان عليك أن تتخطى سنوات طوال من العمل المقنع قبل أن تضع الملكة أخيراً تحت تصرفك السفن ومبلغاً زهيداً من

المال، احتجته في طريق رحلتك البحرية إلى الهند، كل هذا يلزمنا أن نقدم الاحترام لك.

ولا بدَّ أن خططك قد بدت للملكة رائعةً، أو ربما مبعث خوف، في أن تبحر عكس البحر الغربي العميق باحثاً عن الشرق في الغرب. أهَلْ في ذلك لغز، كيف استطعت أن تصور للملكة الخطر صغيراً، وفرص الربح كبيرة.

وإنها لأحجية كيف أبدعت بالحديث عن خططك الرائعة وفنونك الملاحية، وحساباتك الجغرافية وأقنعت بها الملك. ويمكن الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل غير مباشر وعن طريق لغز آخر في حياتك الخاصة، الأمر الذي سبَّب صعوبات كبيرة لكتَّاب سيرتك.

نعني بذلك الأقوال المتناقضة في مسألة أصلك[1] نرجو المعذرة إذا تحدثنا عن السر الكبير الذي أحيط بالكتمان عن حياتك. سنسألك متى كانت ولادتك؟ «في جنوا في عام 1446، أو ربما عام 1451 كما قيل»[2]. وثمة تأكيد في الوقت ذاته بأنك لم تكن ضليعاً باللغة الإيطالية[3] حتى أنك كنت تكتب للإيطاليين ولإخوانك باللغة الإسبانية. ولم تكن ملاحظاتك الهامشية في كتبك العملية. والتعليمية[4] موضوعة بالإسبانية أو باللاتينية من شخص تعلم بنفسه، وجاءت أخطاؤه النموذجية من شخص لغته الأم هي الإسبانية[5]. ثم إن هناك لغزاً يتعلق باسمك الذي نعرفه بصيغ أربع. فاسم ولادتك

«كولومبو»، وغيَّرت اسمك في البرتغال في وقت مبكر ليصبح «كولون». ولم يحدث ذلك بالتأكيد لأسباب لغوية أو عملية. وكما درنت بعد سنوات من عبورك الناجح للأطلسي، فإنك آثرت تسمية نفسك طبقاً لتكليفك «معمراً» للقارة الجديدة، أمريكة.

وكان من الجائز أن يكون هذا السبب أقرب إلى الشك فيه لو كان سيقدم دليلاً عن بعد نظر فائق وشجاعة يمتلكها شاب عمره عشرون عاماً. ألم يكن أنك حاولت إخفاء الآثار التي تقود إلى أسرتك؟ كان في ذلك كثير من الحكمة ويصلح للأجيال اللاحقة. وكان من الممكن أن لا تكون تعدَّيت سنوات شبابك، لولا الحذر والتروي اللذين أبديتهما لأنه كما يظهر فإن أصلك يهودي. كان يهود إسبانية آنذاك يتعرَّضون إلى أسوأ أنواع الاضطهاد. لقد ذاق اليهود قبل مائة عام من انتصارك في بلاط الملك الأمرَّين وجرى اجتثاثهم في عملية الملاحقة عام 1492، بشكل شبه كامل من إسبانية. وتركت محاكم التفتيش اليهود أمام خيار الهجرة أو الارتداد أو كومات الحطب. لكن اليهود الذين ارتدُّوا وأصبحوا مسيحيين جدد عاشوا في خطر كبير لأن إخوانهم الجدد في العقيدة «أي المسيحيين القدامى» كانوا يراقبونهم بحماس الورعين، كي لا يستمروا في ممارسة عاداتهم اليهودية في السر. وغالباً ما كانوا يكتشفون أموراً لا تمتّ للمسيحية بصلة مما كان يحدوهم

للتبليغ عن ذلك انطلاقاً من واجبهم الديني[6]. ولأنك كنت مقرباً فقط من الملكة الكاثوليكية ضمنت أن إماطة اللثام عنك استبعد شيئاً ما. واعتبرت بالنسبة لمعايير ذلك الوقت شجاعاً بكل معنى الكلمة: فعندما عيَّنتك الملكة أدميرالاً للأسطول الملكي ورفعتك من جراء ذلك إلى مرتبة النبلاء اخترت رمز أسرة «مونروس»[7] لكن الاسم «مونروس» كان من نصيب أسرة قديمة كاتالونية في جزيرة مايوركا. هكذا ترجع عائلتك في جذورها إلى مايوركا. بينما لا يوحي اسم «كولومبو» أنه «كاتالوني». لقد اعتنقت الاسم إذن بعد هجرتك إلى جنوا بالتأكيد استناداً إلى الاسم الأصلي، ولا يمكن أن يكون الاسم «كولون» لأن هذا الاسم بدوره ليس كاتالونياً. من المؤكد أن يكون «كولوم» ومن الجائز أن يكون نشأ عنه في إيطالية «كولومبو» هل نخمِّن بشكل صحيح بأن عائلتك غادرت مايوركا أثناء ملاحقة اليهود الثانية التي جرت عام 1425، للوصول إلى شاطىء أمان آخر على البحر المتوسط أي إلى جنوا. أثناء سنوات شبابك كانت اللغة الكاتالونية هي اللغة التي يتحدث بها أهل بيتك. من هنا يمكن فهم إحاطتك بهذه اللغة ومن ثم قلة إلمامك باللغة الإيطالية.

وفي غضون السنوات التي كنت فيها ضيفاً مرغوباً في قصر الملك، حُكِمَ على عائلة كولوم من قبل محاكم التفتيش، لأنها مارست الشعائر اليهودية في دفن موتاهم. وتعرَّضت عائلة

كولوم في عام 1461، للاضطهاد على الرغم من اعتناقها المسيحية. بالتأكيد لم تكن تريد الاعتراف باسم كولوم بل[8] لم تكن تقدر على ذلك. فأصبح اسم كولوم أفضل حلٍّ ممكن طالما أن الموضوع يتعلّق بتعديل اسم إسباني مألوف جداً.

وبعد، فإننا نظن بأنك أخذت إجراءات وقائية لإخفاء أصلك اليهودي. على سبيل المثال صداقتك مع أُسقف لاس كاساس ذي المكانة المرموقة. ولا عجب أن يكون اختيارك أمير الكنيسة صديقاً شخصياً وموضع ثقة هو تمويه دقيق وخطر بآن واحد. ومن هذا الأسقُف تعرفنا على مجموعة من أفضل الأوصاف عن شخصك. ويبدو أنه كان على معرفة وثيقة بك، أكان هذا الرجل التقي الورع يغطي على شيء من الشك؟ كولون كان دون ريب مسيحياً وذا تقىً كبيراً يذكر لاس كاساس[9] ولماذا «دون ريب». لماذا يؤكِّد على ذلك! هل كان يريد تهدئة نفسه وكل الآخرين الذين نظروا إليك نظرة شك؟

ثم هل كنت المسيحي الجديد الوحيد الذي عرف كيف يرتب نفسه مع أوضاع السلطة في إسبانية المسيحية. على العكس تماماً؟ فلقد احتلَّ في تلك السنوات المسيحيون الجدد الذين كان يطلق عليهم تعبير كونفرسوس في الدولة وكان الملك الكاثوليكي الشديد وملكته الورعة محاطين بهؤلاء بكل معنى الكلمة[10] فأمناء الصندوق الملكيين والعديد من المستشارين الشخصيين في البلاط وحتى قسيس الاعتراف

للزوج الملكي كانوا كلهم يهوداً مرتدِّين، هذا يعني مسيحيين جدد.

كنت تعرف أغلبية هؤلاء. جمعكم إلى بعضكم أصلكم اليهودي غير المنسي وقدركم المشترك ودعاكم ذلك أحياناً إلى مساعدة بعضكم البعض. ما لم تستطع يا كولومبوس، معذرة، القيام به بقواك الذاتية استطعت تحقيقه بمساعدة آل «كونفرسوس» في الدخول إلى البلاط الملكي، الذي من دونه كانت ستبقى طموحاتك البحرية ودراساتك الجغرافية ـ الكونية ـ دون أدنى طائل.

ثم إن دراساتك الجغرافية ـ الكونية هي بالنسبة لنا لغز آخر[11]. نعرف أنك منذ سنوات شبابك الأولى كنت تكرِّس نفسك للجغرافيا الكونية بكثير من الحماس ولكن بشيء من السذاجة المدهشة. في البداية لم تستطع تقديم إلاَّ معلومات ملاحية ومعارف مقبولة من الكتب لشخص تعلم بنفسه. لكن بعد ذلك استطعت في البرتغال أن تقوم بخطوات معتبرة. كانت أكاديمية العلوم الكونية البرتغالية في زارك آنذاك أفضل مكان لتلقي هذا النوع من العلوم والأبحاث الذي كان ينظر إليه آنذاك نظرة احترام وتقدير[12]. وكان القسم الأعظم من القياديين الرئيسيين في هذه الأكاديمية من أصل يهودي[13] كما هو الحال في أكاديمية علوم الجغرافيا الكونية، ذائعة الصيت، في

مايوركا. ألم تفتح الأبواب على مصراعيها أمامك في البرتغال بسبب أصلك؟

كانت العلوم الجغرافية الكونية تدغدغ أحلام بعض البحارة في القرن الخامس عشر بالثروة والغنى، حيث أصبحت العلم الذي يَعِدُ أصحابه بآفاق مستقبلية عريضة، بعد أن غزا الأتراك القسطنطينية عام 1453، مما نتج عن ذلك تعطيل الطريق البري المؤدي إلى الدول الآسيوية المنتجة للتوابل. ثم إنه من علوم الجغرافيا الكونية تأمل المرء إيجاد طريق بحري جديد إلى ما يسمى الهند التي كان يعتقد أنها تضم عملياً كل دول شرق آسيا.

وكإنسان مؤمن حقاً بالنهضة كانت تسحرك علوم الجغرافيا الكونية واكتشاف قوانين الطبيعة. أردت أن تتصدى للتأملات والأفكار القديمة عن الفراديس المدهشة، ووحوش البحار الخطرة، وعن الأطلنطس الأسطورية والجزيرة البعيدة، بدراسات علمية. وهكذا تعلَّمت وضع الخرائط البحرية بمساعدة أجهزة قياس جديدة، وملأتك نجاحاتك حقاً بكثير من الرضى والسعادة. لكنك قيَّدت دراساتك بمخالفات تاريخية غير علمية. ويمعنى أدق استقيت، مثلاً، محيط الكرة الأرضية من كتابات الأزمنة الإنجيلية. ويبدو أن الكاهن التوراتي عزرا كان له مكانة خاصة عندك، حيث أعلن في القرن الخامس قبل الميلاد بأن الأرض تتألف من ستة أقسام من اليابسة وقسم من

المياه[14]. وانطلاقاً من تقاليد معتقدك القديم احتسبت لغة الأرقام الغامضة هذه عن الرقم 7، كشهادة رياضية هامة وجعلت منها قاعدة لحساباتك الجغرافية ـ الكونية، وطبقاً لذلك اعتبرت المسافة براً بين البرتغال و«الهند» ستة أسباع محيط الكرة الأرضية، وبهذا لم يتبقَّ لك إلاَّ السبع لكل امتداد البحر الرحب أو الذي كنت تعتقد عنه أنت ومعاصروك أنه كان يربط البرتغال «بالهند»، ولم يكن يبدو لك ذلك بعيداً جداً. واعتقدت بقدرتك على فعل ذلك: أو أنك أردت إنجاز ذلك.

لقد خَبَتْ أهوال القصص المرعبة عن البحر الغربي الكبير والفائر، الذي يسحب كل السفن إلى قاعه بعد أن اكتشفت جزيرة مادريا عام 1419، دون أن يلحق الأذى بالبحارة في أجسادهم أو أرواحهم. وبعد ذلك انطلق البحارة لاكتشاف جزر وأراضٍ أبعد منها وكانت الكنوز الغريبة والعجائب المكتشفة في الأقاليم البعيدة تستدعي الانتباه وتلفت الأنظار أكثر من الأخطار المحدقة[15]. وكذلك أنت تأثرت بكنوز البلدان البعيدة. فالعلامات والإشارات التي كنت تضعها على مقاطع هامة من كتبك الدراسية تنبيء عن اهتمامك بالجواهر واللآليء والذهب والفضة، هل كنت ضحيةً لما سُمّي «الجوع المقدَّس للذهب»؟ أو الافتتان بالغنى المادي حيثما وجدت القوة المحرِّكة الكبرى لطموحك إلى الاكتشافات؟ سندع الإجابة عن هذه الأسئلة تنبيء عن نفسها، وبدلاً منها سنتطرَّق

إلى النقطة المحيرة الأخيرة في قصة حياتك. ويتعلَّق الأمر في ساعة انتصارك. ففي الثالث من آب/ أغسطس 1492، انطلقت السفن بإمرتك كأدميرال ملكي مكلَّف من الملكة إيزابيل. حدث تاريخي نوَّهت عن أهميته في مذكراتك بشكل محيِّر وغريب. كلماتك الأولى التي كتبتها وأنت في عرض البحر كانت موجَّهة إلى البيت الملكي الإسباني وسنذكرها هنا بسبب لهجتها غير الاعتيادية: «بعد أن طرد جلالته كل اليهود من المملكة ومن الأملاك الإسبانية كلَّفني بالإبحار بأسطول ضخم إلى ما يسمَّى الهند»[16]. نسأل أنفسنا ونسألك ما هو السبب في الربط الفكري في هذه الكتابة بين اضطهاد اليهود والمهمة الملكية لكولومبوس. لا يوجد علاقة فعلية بين هذين الحدثين التاريخيين. والسبب هو التالي! لقد نظرت إلى الحدثين أي اضطهاد اليهود وشروعك في النجاح اللذين كانا لك ذوي أهمية وجودة في علاقتهما القدرية معتبراً إياهما شيئاً واحداً.

نطرح هذه الأفكار في بداية كتابنا لكي نؤكِّد إنجاز عمرك كغازٍ للعالم الجديد الذي قمت به رغماً عن الظروف. غير أنه علينا أن ننزع عنك لقب «مكتشف أمريكة» لأنك لم تكن البحَّار الأول الذي عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى شواطىء أمريكة، بأي حال من الأحوال. ونظن أنك لست متفاجئاً حقاً من أنك سمعت عن الذين سبقوك في طريق الأطلسي، لا بل نؤكد معرفتك بالطريق البحري إلى «الهند»، عندما أخبرت

مموليك بذلك، وأخيراً كنت تعلم عن خارطة توسكانيللي، التي كانت قد رسمت عام 1474، من أحد الأنطاليين في الطرف المقابل للأطلسي موضحاً كل الحسابات عن المسافات بين أوروبة و«الهند»[17]. هل فوجئت كمعاصريك أن الطرف المقابل للأطلسي ليس خالياً من الناس! على الرغم من أنه غير مكتشف. كيف كان ممكناً أن تكون البلاد البعيدة في الطرف المقابل للأطلسي مأهولة؟ سؤال لم يجد المرء إجابة عنه. لقد خلق الله آدم وحواء، وخلق منهما الجنس البشري كما هو معروف. لكن الإنجيل لم يذكر شيئاً عن عرقٍ في أنطيلية البعيدة.

هل كان الهنود الحمر «بشكل عام» أبناء الله؟ هل كانوا بشراً على الإطلاق؟ سؤال أجاب عنه البابا يوليوس الأول في مرسومه لعام 1513، إذ يقول: نعم الهنود الحمر بشرٌ، وتجري معاملتهم طبقاً لذلك. «الملحوظة تفهم على أنها موجَّهة للمسيحيين الجيِّدين». ويبقى السؤال مطروحاً: كيف وصل الهنود الحمر إلى أمريكة؟[18]

وحالما طُرح هذا السؤال الباعث على القلق لكنه المحق أيضاً، نشأ المذهب الذي لم يفقد شيئاً من صلاحيته إلى اليوم. لقد هاجر سكان أمريكة عن طريق ممر بيرنغ الذي يربط في أعالي الشمال القارة الآسيوية مع القارة الأمريكية. ولو كان الحال على ذلك، عندها كان على أوائل المهاجرين أن يكونوا

قطعوا كل شمال أمريكة على شكل مسيرة صامتة دون أن يكونوا قد تركوا آثاراً أو شواهد لحضارة راقية. وبعد وصولهم إلى وسط أمريكة، ولاحقاً إلى جنوبها، بدأ المهاجرون المبدعون عندئذٍ أنشطتهم الثقافية مطلقين العنان لمواهبهم في الإبداع الفني.

غير أن هذه النظرية تبقى مثار شك لمجرد معرفة أن طريق البيرنغ مغمورة قبل عشرة آلاف عام. فذوبان المياه في العصر الجليدي المتأخر أدّى إلى ارتفاع مستوى مياه البحر لدرجة جعل طريق البيرنغ تفقد دورها كملتقى بين القارتين الآسيوية والأمريكية.

إذاً فالاتصالات بين أمريكة وباقي العالم انقطعت قبل أكثر من عشرة آلاف سنة. ذلك التطابق والمقارنة في الصورة الثقافية التاريخية الإجمالية لنصف الكرة الأرضية ترجع بناء على ذلك إلى اتصالات جرت قبل ذلك التاريخ؟[19] كلا لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لقد عثر في الثقافة الأمريكية القديمة وعلى الأرض الأمريكية آثار تتيح المجال لاستنتاجات عن زوار من العالم القديم خلال الألف الأولى قبل ولادة المسيح. ووصل هؤلاء الزوار أوروبة بالتأكيد ليس عن طريق البيرنغ وإنما عبر الأطلسي. وصلوا إلى هناك، حيث نزلت أنت أيها المحترم كولومبوس، عقب رحلتك الاكتشافية المشهورة[20].

إن الآثار التي تركها الزوار الأوائل من العالم القديم في

العالم الجديد لا يمكن تجاهلها. ونريد أن نبيِّن هذه الآثار لمن سبقك وبهذا نؤكد لبحارة العصور القديمة مكانتهم في كتب التاريخ كأول «مكتشفين لأمريكة». معذرة يا كولومبوس.

مقدمة

يسعى هذا الكتاب إلى سَوْقِ الأدلة، حسب مبدأ البيِّنة التراكمية الهادفة إلى إثبات أن عبور الأطلسي قبل زمن كولومبوس لم يكن ممكناً فحسب بل إنه جرى فعلاً. هناك العديد من الإشارات التي تبدو مفاجئة كملاحظات فردية، ولكنها في مجملها تندرج في سياق الإثبات المقنع لهذه النظرية. إن الآثار التي خلفها بحارة العالم القديم في أمريكة القديمة في حينه، سوف يتم الإحاطة بها، وتقويمها في شكل سيرورة من القرائن التاريخية الثقافية، ووضعها في علاقة ذات دلالة وبالتالي ربطها بعلاقاتها مع تاريخ العالم الثقافي القديم.

وسوف يتم جمع صورة كاملة لتاريخ أمريكة القديم تكونها رقائق وسطيحات فردية، بحيث لا تفسح مجالاً بعدها لأسطورة اكتشاف أمريكة عن طريق كولومبوس.

وسنطرح الفرضية أن بحارة العالم القديم، وبعدها جاء غيرهم، قد وصلوا إلى أمريكة عبر الأطلسي وبهذا يصبحون هم المكتشفين الحقيقيين لأمريكة. وبمساعدة الآثار التي خلفها

من بين آخرين «الفينيقيون في أمريكة القديمة» سوف يتم إثبات هذا الادعاء.

وستنبثق الحلقات المتعددة لسلسلة البراهين من مجالات الحياة والعلوم المختلفة، التي يجري تقسيم الكتاب تبعاً لها. وسنعمد بناء على المشاهدات في مجال علم الفسيولوجيا وعلم تعابير الوجه إلى تحديد أنموذج الهندي الأحمر مقابل الغرباء «من العالم القديم» الذي يمكننا وجود أعداد كثيرة من صورهم وموميائهم وجماجمهم من إجراء المقارنة.

وكما سيعالج الكتاب الآلهة والأبطال الأمريكيين القدامى الذين لهم عالمية لافتة، ويمكن تتبع منشأهم في كثير من الأحوال في منطقة البحر المتوسط.

لقد حافظت آثار العالم القديم في أمريكة على نفسها في مجال الخط واللغة. وتحظى المؤشرات على وجود تبادل ثقافي بين الشرق والغرب بأهمية خاصة. وفي العقود الأخيرة أصبحت المقارنات اللغوية مجدداً مادةً لأعمال بحثية مكثفة سيستفيد الكِتاب الذي بين أيدينا منها بشكل كبير. إن تحليل بنى العبادة وعلوم الكونيات يظهر تطابقاً واضحاً. فمن العادات والشعائر المقدسة التي يبرهن عن وجودها على طرفي الأطلسي القريب والآخر منه يمكن ذكر أمثلة كالطهور أو التحنيط وثقب الجمجمة وتشويه الجمجمة، بشكل فني. كما ويمكن استعراض كثير من الموازيات بشكل مقنع في التعابير

والمصطلحات الرياضية والفلكية، وفي حساب التقديم وفي مفهوم الزمَن. وهكذا كانت المايا في أمريكة الوسطى على سبيل المثال واليهود من العالم القديم يضعون في حساباتهم بناءً على نظام تقديمي تحدد سنة الصفر فيه بشكل متطابق مع خلق الأرض الذي يتوافق حسابه مع الألفية الرابعة قبل المسيح[21].

وفي إطار استعراض الدلائل تحتل المتشابهات ما وراء الأطلسية مجالاً واسعاً في الفن وفي فن العمارة. ولا يشمل التوافق في ذلك ناحية الشكل بل يتعداه إلى غرض الاستعمال للأشياء المتشابهة، بحيث يؤكد الشكل والمضمون منشأهما المشترك القديم والمتبادل.

إن ما حفظه الزوار من العالم القديم يمكن إثباته في تقنية البناء الأمريكية القديمة وفي الزراعة. وسوف يجري التذكير من ضمن الأمثلة في فصل الزراعة والحياة اليومية بتلك التي لا يمكن الخلط فيها والتي لا يمكن اعتبار المتشابهات فيها مجرد صدفة.

وكما سيتوضح لاحقاً ستتوحد القرائن المختلفة من خلال عرض تاريخي ثقافي في صورة متكاملة متجانسة لتاريخ أمريكة القديم ما قبل كولومبوس وحيث إنه ممكن إثبات تطابق مؤقت للموازيات في الشرق والغرب، فإن إظهار القرائن في هذا الكتاب هو في واقع الأمر أساس ينبغي التأكيد عليه بإصرار.

فمنذ منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد أسس البحارة الفينيقيون الناجحون العديد من مدن المستعمرات على طول الطرق التي يستخدمونها في رحلاتهم البحرية بانتظام. من هذه المدن كانت قادش على شاطىء إسبانية الأطلسي. أي إن الفينيقيين كانوا يبحرون بانتظام أثناء تأسيس هذه المدينة، أي حوالي عام 1200 قبل الميلاد، في الأطلسي الذي كان يُعد خطراً. في نفس الفترة، ومع إنشاء قادش على الأطلسي نشأ من لا شيء عصر ازدهار حضارة الألميك في أمريكة الوسطى. وفي القرن السادس قبل ميلاد المسيح يهدد الشعوب السامية على الساحل المشرقي أعداء «أقوياء ويحاصروهم ويسوقونهم إلى الأسر». كما جرى لشعب إسرائيل عندما أقتيد إلى الأسر البابلي وهيأت سفن البحارة الفينيقيين لهم فرصة للهرب. في نفس الفترة تبدأ في وسط أمريكة مرحلة من النبضات الجديدة، تمخض عن مسارها انبعاث ثقافي وفني معلناً نهاية حضارة الألميك وبداية حضارة المايا.

أخذت المدن الفينيقية، منذ القرون الأخيرة التي سبقت ميلاد المسيح، تفقد سلطتها ونجاحها باستمرار. وفي أول الأمر اعترت «الدول الفينيقية التجارية الواقعة على الساحل الشرقي حالة من اللاأهمية». وبعدها أعلنت نهاية القوة البحرية الفينيقية ـ البونية عقب انتصار روما عام 146 ق .م، على مدينة قرطاجة الساحلية التجارية في شمال إفريقية. في نفس

الوقت استقر وترسخ التطور في وسط أمريكة. لقد بقيت حضارة المايا عدّة قرون في طريق التطور الذي ارتسمت ملامحه قبل الميلاد. وكما برزت دفقات جديدة، يعني تأثيرات من الغرباء، بات ذلك جلياً ذلك منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، «بوضوح» ودون أدنى ريب، غير أنها بدأت في زمن الميلاد تقريباً تفقد بريقها بشكل واضح ملموس ـ كمرآة فقدت صفحتها المصقولة.

ومنذ أن وجدت سفن «بحرية» صالحة للنقل البحري توفرت حينئذٍ شروط عبور الأطلسي. وكان لدى الفينيقيين سفن صالحة للنقل البحري منذ الألف الثانية قبل الميلاد. كما كانت تتوفر لديهم معارف ممتازة في الملاحة. يمتدح مؤرخو العصر القديم الفينيقيين صراحة ويتفقون على أنهم بحارة ضالعون تمكنوا من الدوران حول إفريقية في الألف الأولى قبل الميلاد[22]. اعتبرت الرحلة من شاطىء آسيا الوسطى عبر ممر جبل طارق وصولاً إلى بريطانيا من الرحلات الروتينية للبحارة الفينيقيين. حيث استحضروا من أحجار القصدير البلورية مادة القصدير الأساسية في صناعة البرونز. وكان هذا في الألف الثانية قبل الميلاد. مما حدا بالمؤرخين على أن يطلقوا على تلك الفترة ليس فقط عصر البرونز وإنما عصر البحارة أيضاً.

وإذا كان البحارة الأوائل امتلكوا السفن الصالحة للإبحار والمعلومات الأكيدة عن الملاحة لم ينقصهم سوى المعارف

عن سماء النجوم، لكي يجعلوا عبور المحيط الأطلسي ممكناً بشكل مبدئي. غير أن المعرفة في هذا العلم الذي يعد أقدم العلوم التي كان أسلافنا على دراية بها، وكانوا يعتبرون علوم الفلك بَوْحاً مقدساً للنظام الإلهي[23].

لا نريد أن نخيف القارىء الحسن النية بأن نجعله يحتاج إلى مقالات عن الفَلَكِ في العصر القديم. غير أنه ثمة حاجة أو مصلحة في إثبات الدلائل لإعطاء القارىء لمحة موجزة عن مثال للإنجازات الرياضية الفلكية التي امتلك ناصيتها أسلافنا قبل آلاف السنين. فالبابليون استنبطوا من أوقات مدارات الكواكب المرئية أرقاماً عقلانية ألحقوها بالكواكب المعبودة والمشخصة. الزُّهرة حسب حساباتهم تدور في 584 يوماً أرضياً حول الشمس. وبناءً على حساباتهم فإن الرقم 584 هو مجموع مكعب الرقم الأول والثاني والثالث للعدد 8 ($8+8^8+8^3=584$). لهذا أصبح الرقم 8 عندهم الرمز السحري لكوكب الزهرة[24]. وحسبوا أن في الوقت الذي تحتاجه الزهرة لكي تدور حول الشمس خمس مرات فإنه يكون قد مضى ثماني سنوات أرضية. فحاصل 5×584 أو بالأحرى 8×360 يوماً أرضياً تكون الزُّهرة والأرض قد اتخذتا مجدداً نفس الموقع من بعضهما. ولو عرضنا هذا الحساب بشكل تصويري لنشأ عنه المخمَّس. وعلى الأكثر قبل خمسة آلاف عام أصبح شكل المخمس رمزاً لكوكب الزهرة[25].

وعلى نفس المنوال في حساب كوكب الزهرة اكتشف العلماء الأوائل حتمية مدار كوكب جوبيتر وغيره. وهكذا حسبوا للكوكب هذا الرقم السحري 7، لأن زمن دورانه يبلغ 389 يوماً أرضياً وهو مكعب الأرقام الأولى والثانية والثالثة. وكان تشخيص كوكب جوبيتر هو أكبر كوكب في مجموعتنا الشمسية في العصر القديم يقابل الرقم واحد بين الآلهة. طبقاً لذلك أصبح رمزه العددي 7 رقماً هاماً أو بالأحرى مقدساً، يقابلنا موقعه الخاص بين الفينة والأخرى حتى اليوم[26]. وكما أدرك الأسلفون في مدار كوكب المشتري المنظور التنظيمي الإلهي لأن 115,875 يوماً زمن دورانه ممكن إدراجها ثانية في علاقة لرقم رمزي وهو في هذه الحالة 4,5 (4,5 + 4,5 + 4,5 + 4,5 =/ 115,875/) ورأى البابليون الرقم 4,5 من خلال الكف المبسوطة إلى الأعلى مرموز إليها ـ بأصابع كاملة أربعة ونصف إصبع (الإبهام) ـ جاعلين اليد رمزاً للإله المشتري[27].

إن هذه اللمحة السريعة في مجال قريب من علم الفلك وهو علم التنجيم تري كم كانت دقيقة المعارف في العصر القديم. ولم يكن استخدام هذه المعرفة بنجوم السماء في الملاحة مسألة عصيةً على البحارة القدماء. ومن الثابت استخدامهم منذ القِدَم في تحديد الاتجاهات في البحار برج الدب الأكبر. وكان

مما أوصى به هومير كاليبسو البطل أوديسوس لأن يوجه سفينته نحو هذا البرج ـ ومما هو معلوم لم يحالف النجاح بحارة أوديسوس. بينما اهتدى الفينيقيون بالدب الأصغر ـ واكتسبوا شهرة أسطورة كأبطال البحار.

1 ـ تاريخ وقصص

ثمة عناصر وأحداث شتى في تاريخ وأقاصيص العالم القديم تلقي بظلالها على شهرة كريستوف كولومبوس الاكتشافية. وبما أنه وجد الكثير من التناقضات في تاريخ حضارة أمريكة واكتشفت آثار لزوار من العصر القديم في أمريكة ما قبل كولومبس فإن علم الأمريكيات ما زال منشغلاً بالنقاش الآخذ مجراه بحدة للإجابة عن السؤال متعدد المناحي العلمية: هل الثقافة الأمريكية نابعة من ذاتها أم إنها متأثرة بالأغراب. في هذا النزاع يقف المدافعون والخصوم من بعضهم البعض في حالة لا تقبل المهادنة قلّ ذلك أم كثر. فالمدافعون يعتمدون دائماً وباستمرار على الهجرات عبر طريق البيرنغ وعلى التقارب عندما يضطرون لإيجاد شرح المتطابقات الواضحة والكثيرة بين العالم القديم والجديد. ونظرة التقارب تشتق الحلول ذاتها في المواقف الحياتية الإنسانية المعينة ومن نفس الطبيعة الفكرية. وعلى النقيض من ذلك يعرض الخصوم التنويه إلى طريق البيرنغ بصورة نسبية، لأن هذا لا أهمية له إلاّ في عصر ما قبل التاريخ، بينما تشير المتوازيات التي جرت عبر الأطلسي إلى

اتصالات تمت في العصر الحديث. ولا يعتبر هذا الرأي جديداً. فبعيد الاكتشاف أو بالأحرى الغزو الذي قام به الإسبان أبدى الأوروبيون استغرابهم عن وجود أفارقة سود في أمريكة مما قوى الاعتقاد بأن كولومبوس لم يكن أول زائر لأمريكة في العصر القديم[28]. في غضون ذلك أصبح جزءاً من الحضارة الأمريكية القديمة، كما أصبح جزءاً معروفاً من التاريخ الأمريكي القديم بحيث يمكن اليوم إثبات نظرية عبور الأطلسي قبل كولومبوس في مجالات كثيرة.

ما هي يا ترى المتطابقات والمتشابهات أو بالأحرى المتحدات في عناصر الحضارات على شاطىء الأطلسي التي يمكن إيضاحها. سوف لن تكون استجابة كل القراء بنفس الفضول والموضوعية. وتعتقد المؤلفة أنها تتوجه بكتابها إلى مجموعات أربع من القراء على الأقل[29]: قرّاء مقتنعون بحقيقة عبور المتوسط قبل كولومبوس وربما يعرفون مسبقاً الكثير عن ذلك، وقرّاء مقتنعون بوجود عبور الأطلسي قبل كولومبوس ولكنهم يريدون معرفة المزيد، وقراء مقتنعون بعدم وجود عبور للأطلسي قبل كولومبوس غير أنهم يريدون إقناع أنفسهم من خلال حجج جيدة بعكس هذا، وأخيراً قرّاء مقتنعون بأنه لم يكن هناك أي عبور للأطلسي قبل كولومبوس على الإطلاق، بغض النظر عما سيأتي. ويمكن القول لمجموعات القرّاء الأربع إن ما يطرحه الكتاب عن عبور للأطلسي قبل كولومبوس

إنما هو في نفس الوقت قاعدة عمل وبراهين لحقيقة حتى ولو أنها ستظهر، كما يبرهن لنا الكتاب، في إطار سيرورة ثقافية تاريخية من البينات. إن التوافق بين القارىء والمؤلفة سيوفر كثيراً من الوقفات التي تكون ضرورية في الحالة العادية، وذلك في سياق عرض المادة.

ولنبدأ بما هو موجود في الكتابات القديمة عن موضوعنا: «إن ما هو بحوزة المرء بشكل مؤكد يمكنه أن ينقله معه إلى بيته بارتياح». وهكذا تأتي في أول الأمر نصوص مدوني تاريخ العصر القديم وجغرافيته، سترابون، وهيرودوت وبورفوريوس وتثيومومبوس[30] وديودوريس وسيكولوس وكلاديوس أليانوس ورفوس فستوس أفيينوس؛ بالإضافة إلى نصوص العالِم الشمولي أريسطو والشاعر الكبير هوميروس وكذلك أقوال النبي حزقيل في التوراة. كل هؤلاء العلماء خصصوا للفينيقيين وأسفارهم إلى شواطىء إفريقية وأوروبة وإلى الجزر النائية روايات مسهبة ينبغي سبر صحة مضمونها هنا.

ولقد وُجدت بدايات كتابة تاريخ صحيحة وناقدة لدى الحثيين والعبرانيين، جيران وأولاد عم الفينيقيين في الساحل المشرقي. وليس مستغرباً أن تستحوذ القضايا التاريخية إلى جانب أمور أخرى على اهتمام العلماء وذلك بالنظر إلى الأهمية السياسية والثقافية لأسفار التجارة الفينيقية. ومن هنا حظي

البحارة الفينيقيون منذ العصر البرونزي المسمى أيضاً عصر البحارة على احترام وتقدير كبيرين.

لعبت السفن والرحلة البحرية في العصر البرونزي دوراً هاماً في الحصول على المواد الخام لذلك المعدن الذي أعطى العصر كله تسميته. ويحتاج الإنسان لاستخراج البرونز والقصدير، الذي به يتم تقسية النحاس إلى برونز. وبادىء الأمر حصل البحارة الفينيقيون على البرونز من إسبانية ولاحقاً من بريطانية[31]. ويورد المؤرخ اليوناني وعالم الجغرافية سترابون حديثاً له دلالة كبيرة حول مثل هذه البعثة التجارية: بينما كانت سفينة فينيقية في طريقها إلى بريطانية لاحظت أن سفينة رومانية تقتفي إثرها لكي تتجسس على الطريق السري الذي يسلكه الفينيقيون إلى جزر القصدير. وعليه أبحر الفينيقيون عن قصد في طريق بحرية تحفها المخاطر. والسفينة الرومانية خلفهم[32]. وغرقت كلتا السفينتين. لم يكن الثمن هذا باهظاً بالنسبة للفينيقيين. كانوا مستعدين للتضحية بإحدى سفنهم مجدداً من أجل الحفاظ على السرية، لأن معرفة الطريق البحرية إلى أهدافهم التجارية كان يمثل رأسمالهم الذي عرفوا كيف يحصلون على الربح منها[33]. عدا عن أنه لم يكن مرغوباً من الشعب الفينيقي التاجر وجود منافسين يتفوقون عليه.

واعتبر الإيجيون والكريتيون والفائيكيون ثم لحق بهم الأترسكيون واليونانيون والرومان من جملة البحارة المنافسين

للفينيقيين. وكل هؤلاء شاركوا في نقل صورة للتاريخ لا تحمل مجاملة عن الفينيقيين: «كانوا متملقين ومتبجحين وأذكياء» ــ هكذا تتحدث عنهم نصوص العصر القديم. ومن المؤسف لم يتبق عن الفينيقيين وعن تفكيرهم وسلوكهم إلاَّ القليل من الشواهد الكتابية. والشعب الذي يُعزى إليه اختراع الكتابة الأبجدية بالذات لم ينقل إلينا شيئاً أو بالأحرى لم ينقل عن نفسه شيئاً إلاَّ النذر اليسير. بهذا أصبحت الأجيال القادمة تعتمد في حكمها على الفينيقيين، الذي كان سلبياً، على طرف ثالث. الوحيد الذي كتب عرضاً تاريخياً إيجابياً عن الفينيقيين كان بورفيريوس في القرن الثالث بعد الميلاد، غير أن المسيحيين أحرقوا الكتاب ــ هكذا يقال على أية حال[35].

دوّنت العديد من الكتابات الفينيقية على مواد سريعة العطب كالجلد، وورق البردي أو الخشب. ومن الجائز أن يعطي ذلك إيضاحاً عن شحاحة النصوص المتوفرة عن الفينيقيين. كما أنه يمكن البحث عن السبب في نقص النصوص الكتابية عن الممارسات التجارية في طبيعة الفينيقيين الخاصة في ممانعتهم مشاركة الآخرين في معرفتهم. الصمت كان يعتبر عند الفينيقيين ذهباً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. كان الذهب آنذاك محور كل الاهتمامات[36]. واحتل الفينيقيون مركزاً أساسياً في الحصول على المعدن المرغوب، مما زاد من شهرتهم بشكل واضح. كانت شهرة الفينيقيين كشعب تجاري

كبيرة جداً بحيث غدت كلمة «الكنعانيون» مرادفة لكلمة «تجار». وكان «الكنعانيون» اسماً أطلقه الفينيقيون على أنفسهم؛ أما اليونانيون فكانوا يسمُّونهم بالفينيقيين بمعنى «شعب الأرجوان»[37] وفي عداد الشعب الكنعاني، حسبما تذكره النصوص التوراتية القديمة يدخل كل الشعب المختلف الأجناس من «كنعان». وإلى مجموعة اللغة الكنعانية كانت تتبع عدا عن لغة الفينيقيين السامية كذلك لغة العبرانيين السامية، أبناء عم الفينيقيين من اليهود على الضفة المشرقية.

اعتبر الشرق الأدنى برمته منطقة مزدهرة في الألف الأولى قبل الميلاد. وكانت تعتبر المدن التجارية الفينيقية، صيدا، صور، وبيبلوس من المدن الغنية، حسبما أكده النبي التوراتي حزقيل[38]. كانت المدن الثلاث تعيش من موقعها على ساحل البحر المتوسط. ثم إن الموقع الجغرافي كان يحدد آنذاك المصير السياسي لفينيقية: فالشريط الساحلي الضيق ومن خلفه جبال لبنان المكسوة بغابات أرزه أحدَّ من امتداد المنطقة الاستيطانية ودفع التوجه نحو البحر جاعلاً من التجارة البحرية المجال الوحيد والهام للكسب.

وبقيت فينيقية التي كانت تتألف عملياً من عدد قليل من المدن ذات النفوذ التجاري الهام، ضعيفة التأثير السياسي حتى إبان فترة ازدهارها. والثابت تبعية فينيقية لمصر منذ وقت

مبكر. وتثبت الأدلة أنه منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد أصبح الفينيقيون يدفعون الضرائب للمصريين. ولم يتغيَّر هذا الواقع مطلقاً، على الرغم من وجود صعود وهبوط في علاقة التبعية هذه إلاَّ أنها لم تكن ضارة على الدوام بالنسبة للفينيقيين. لقد رأى الفينيقيون في جارهم، القوي في كل الأوقات مثالاً متألقاً. وانعكس ذلك أساساً في الفن والثقافة الفينيقية. لقد أخذ الفينيقيون المعايير المصرية وطبَّقوها بصفة عامة EKLEKTIKET PAR EXEELLENCE*[39] وحتى أقوى دولة لم تضمن السلطة للأبد. لقد طرأ انقلاب في ظروف السلطة عقب معركة قادش الشهيرة (128 ق.م)، حيث لم يتمكَّن فرعون مصر رمسيس الثاني من الانتصار على شعوب البحر. وعرف الفينيقيون استغلال المرحلة اللاحقة بدقة متناهية لتعزيز موقع سلطتهم. وشهدوا ما بين 1000 ـ 600 (ق.م) أكبر فترة ازدهار وأصبحوا سادة البحر المتوسط. وأقاموا علاقات تجارية نشطة ومربحة مع مختلف البلدان. ومن الثابت أن سفنهم كانت تشاهد في موانىء كل الشواطىء المعروفة، وعندما بنى الملك سليمان حوالى 1000 ق.م. هيكله المشهور طلب من الملك الفينيقي حيرام مواداً راقية

(*) وتعني الانتقاء في كل ما كان يعتبرونه الفينيقيون الأفضل لهم في جميع الأنظمة (المترجم).

لبنائه المشهور في القدس. وكما تذكر التوراة أمدّه الفينيقيون بالذهب والفضة وبخشب الأرز المرغوب[40]. أما المكافأة للخدمات الجوارية هذه فكانت السماح باستخدام الميناء عزيون جيبر على خليج العقبة الأمر الذي اعتبر بمثابة صفقة جيدة للبحّارة الفينيقيين. واستفاد الفينيقيون من هذه الأعطية طوال قرن من الزمن، حيث استخدموا الميناء الجنوبي نقطة انطلاق لأسفارهم إلى أرض الذهب غفير التي يتردَّد ذكرها في التوراة. بيد أن موقعها الجغرافي لا يزال مثار جدل حتى أيامنا هذه[41]. المحافظة على السرِّية الفينيقية أخذت مجراها هنا كذلك. ومما ساعد على ذيوع سمعة الفينيقيين الأسطورية كموردين للبضائع الفاخرة[42] مثل العقيق من بحر البلطيق والأقمشة الثمينة والسيراميك والأخشاب الغالية والزجاج الفينيقي والأرجوان الذي اخترعه الفينيقيون أنفسهم وقاموا بتسويقه على الدوام بنجاح[43]. وضمنت هذه البضائع للفينيقيين تجارة رابحة ومزدهرة لما يقارب ألف عام.

ولكي يكون بمقدورهم إنجاز رحلات لسفنهم التجارية دون أي خلل أو معوق عمد الفينيقيون إلى تأسيس مراكز تجارية أو بالأحرى مدن مستعمرات على تلك الشواطىء الغريبة التي يمّموا شطرها بانتظام في رحلاتهم التجارية. ولا يعرف شيءٌ عن صعوبات جرت مع سكان الدول الأجنبية، على العكس!

ويتناقل عن الفينيقيين أنهم لم يتلقوا على الشواطىء الأجنبية كمستوطنين فحسب بل كحملة لثقافة أجنبية. وهذا لا يدل على أن ثمة تسامح ديني فقط بل على وجود توافق عام بين الشركاء التجاريين.

ومن أقدم نقاط الارتكاز في سياسة الاستعمارية الفينيقية كانت تعتبر ممفيس وقبرص وأوتسيكا في شمال إفريقية[44]. وأسّس الفينيقيون في القرن الثاني عشر (ق .م) قادش التي تميزت عن أقدم نقاط الارتكاز التجارية الفينيقية من خلال كونها لا تقع ضمن البحر المتوسط المحلي بل على الضفة الأخرى «لأعمدة هرقل» المخيفة أي في ممر جبل طارق على ساحل الأطلسي. إن اختيار موقع هذه المدينة الكولونيالية الفينيقية هو لغز وجواب في آن واحد. فعندما قرّر الفينيقيون خوض مغامرة ممر جبل طارق الخطر فلا بد أن يكون المشروع يستحق المجازفة بالنسبة للتجّار الأذكياء. كانوا يتوقّعون من هذا «الاستثمار» الخطر ـ وبالتأكيد بحق ـ مكسباً تجارياً. ولم يكن هناك بدٌّ من خوض مغامرة «قادش» وبحساب دقيق. فعلى الشاطىء الآخر من أعمدة هرقل، وعلى الشاطىء الآخر للأطلسي تنتظرهم إمكانيات كسب وفيرة.

وعلى الرغم من توفر مجالات العمل وإمكانيات الكسب للفينيقيين في البحر المتوسط المضمون تجرأوا على التوجه نحو الأطلسي.

تحديات البحر وآفاق الريح دعت الشعب البحري على ما يبدو لكي يعير تجهيز السفن تجهيزاً ممتازاً اهتمامه الأقصى. وهذا ما تؤكده «قادس».

لقد برهن الفينيقيون من خلال تأسيسهم لهذه المدينة المستعمرة ليس فقط عن رحلاتهم المنتظمة الأطلسية بل عن استعدادهم للمجازفة.

ومن المعروف أن قرطاجة كانت تعتبر أهم مدينة مستعمرة فينيقية التي كانت مهيأة من خلال موقعها المركزي على ساحل شمال إفريقية لتتبوأ مركز مهيمن ضمن مدن المتوسط التجارية.

وبعد أن تأسّست قرطاجة كإبنة لمدينة صور ارتبطت أولاً ولعدة قرون بعلاقة صلة مع المدينة الأم المشرقية. غير أن هذا الوضع تبدّل في القرن السادس ق .م، عندما تمكّنت قرطاجة من انتزاع السيطرة بسبب تغيّر الأوضاع السياسية في الساحل الشرقي لغير صالح المدينة الفينيقية الأم.

كان الملك البابلي نبوخذنصر قد قاد معظم الشعب اليهودي إلى الأسر البابلي التاريخي، ودمّر القدس عام 586 ق .م. ثم إن المدن الفينيقية حوصرت وغزيت في نهاية الأمر. وتمكنت صور في البداية من مقاومة الحصار لمدة ثلاثة عشر عاماً لأن المدينة كانت تقوم على اليابسة محاطة كرأس جزيرة جعلت من العسير على العدو اختراقها.

خلال كل تلك السنوات ظلّت السفن في المدينة المحاصرة

سليمة في مرفأ صور. ومن يستغرب إذن كيف يخمن بعض المؤرخين بأن سكان صور استغلوا الفرصة للهرب؟ ويعرف المؤرخ الروماني ديودروس سيكولوس على ما يظهر إلى أين كانت وجهة الهرب حيث يقول في هذا المجال: إن القرطاجيين منعوا سكان المدينة الأم المهمومة «من تأسيس مستعمرة في الغرب النائي»[45]. وعلى هذا الأساس ولتأكيد المنع هذا وفي آن واحد لإقامة حاجز تجاه هروب اللاجئين الفينيقيين أغلقت قرطاجة في عام 540 ق.م، ممر جبل طارق تجاه كل السفن الأجنبية[46]. وهكذا ظلّ هدف الهروب «الجزر النائية» مفتوحاً فقط أمام القرطاجيين لسنوات عدة.

عالج بعض المؤرخين الجادّين في العصر القديم مسألة «الجزر النائية». ولكي لا يبقى القارىء بعيداً عن كتابات «الجزر النائية» وغير عارف بفحواها، سنذكر شيئاً حول البعثات التاريخية الموثقة التي أنجزها الفينيقيون قبل الميلاد بمئات السنين.

كان الفرعون المصري نيشو مهتماً لأسباب عسكرية في الالتفاف حول إفريقية، ولهذا كلّف في عام 60 ق.م، الفينيقيين للإبحار في أسطول من السفن ثلاثية المجازيف حول القارة الإفريقية منطلقين من البحر الأحمر عبر ممر جبل طارق وأن يعودوا بأسرع ما يمكن إلى مصر ثانية[47]. وكما يذكر هيرودوت احتاج الفينيقيون لهذه الرحلة سنتين كاملتين. لأنهم

قطعوا رحلتهم عدة مرات، لكي يزرعوا القمح على شواطىء إفريقية وبهذا يكون القمح زادهم في الرحلة التالية[48].

ما نسمعه رائع جداً. بيد أن الإغواء في إبداء الشك حول مصداقية التقارير التاريخية القديمة سيكون كبيراً جداً لو لم يكن هيرودوت هو مؤرخ العصر القديم المشهور المعروف بدقته وذكائه، أضاف إلى وصفه المفصل عن الدوران حول إفريقية ملاحظة هامشية خاصة وصغيرة، وفيها يعلن نفسه عن شك في صحة تفصيل من كتاب «أسفار فينيقي»: بالنسبة لي لا أعتقد وربما اعتقد كثيرون بما كتبه الفينيقيون. وهنا يقتبس من كتاب الأسفار الفينيقية: «عندما أبحرت السفينة حول الرأس الجنوبي لإفريقية رأينا الشمس ظهراً على ناحية اليمين»[49].

لم يكن بمقدور هيرودوت كإنسان يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية أن يتصور بأن الشمس تقف في نصف الكرة الجنوبي، أي في رأس إفريقية الجنوبي، شمال (كبد السماء) السَّمْت، وأنه عند الإبحار باتجاه مسار الشرق ـ الغربي تبدو الشمس فعلاً من موقع قيادة السفينة كما لو أنها يجب أن تسطع غرباً.

وبالتحديد فإن تشاؤم هذا المؤرِّخ المشهود له بالصدقُ يشير إلى أن كتاب يوميات ربَّان السفينة الفينيقي يحتوي على مشاهدات حقيقية، بالإضافة إلى أنه لو لم يكن المشروع

للفرعون الذي لم يكن يراعي الواجب الفينيقي بالمحافظة على السرّية، لما عرف التاريخ عن الموضوع.

بعد بضعة عقود تمكّن القاضي القرطاجي هانو من الإبحار حول إفريقية في الاتجاه المعاكس. لقد شرع برحلة بستين مجدافاً لكي يؤسس على طول الساحل الغربي لإفريقية مستعمرات جديدة للفينيقيين[50]. وحافظت آثار هؤلاء المستوطنين الفينيقيين على نفسها في الشاطىء الأفريقي الغربي مدة أطول من سلطة الفينيقيين على الساحل الشرقي. وفي القرن الأول قبل الميلاد ذكر المؤرّخ الإغريقي سترابون أن اللغة الفينيقية كان يتم الحديث فيها في الشاطىء الغربي الإفريقي على الرغم من أن السكان هنا كانوا من الأفارقة السود[51]. وكان الفينيقيون أنفسهم قد هربوا قبل مدة طويلة بعضهم من السكان الأصليين لكي يستقروا باتجاه الغرب إلى الجزر النائية، في رحلة استغرقت ثلاثين يوماً من الإبحار[52]. هذا ما يدلي به سترابون الذي يقتبس من الأفارقة أقوالهم الدالّة على منطقة نائية تقع في الغرب التي لم يعرفوا عنها شيئاً سوى الأحاديث.

وتتفق هذه الكتابة أو الوصف تماماً مع ما أورده أرسطو في كتاب «المنطقة المجهولة» حيث يتحدث عن مدن فردوسية الجمال، بغاباتها وأثمارها تقع في الغرب البعيد، أنهارها صالحة لاستخدام السفن[53]، فيها جبال عالية. ولم يكن يعرف

عن أرسطو أنه خيالي، لهذا يمكن القول إن أرسطو كان يعكس في وصفه الواقع العلمي الدقيق لعصره. ثم إنه ليس من الضروري التمسك بتعبير «جزيرة» يمكن للمرء أن يتصوَّر كيف أن بحّاراً يرى من بعيد عند الأفق أرضاً مجهولة، فمن غير المعقول أن يعتقد بأن ما رآه يمكن أن يكون قارة، بل يخطر له أقرب شيء إلى ذهنه «الجزيرة». والجزر موجودة بامتدادات مختلفة. يذكر ديودروس سيكولوس على سبيل المثال «جزراً ذات امتداد واسع» قبالة شواطىء إفريقية، ويتحدث أفلاطون عن جزيرة «أكبر من آسيا وليبيا (إفريقية) مع بعضهما». وقد تكون بحجم أمريكة؟[54].

كان أرسطو قد علم عن هذه «الجزر النائية» من الكهنة المصريين الذين صنفوا هذا النوع من المعارف كعِلْمٍ سرِّي. غير أن «الجزر النائية في الغرب» لم تكن بدورها بهذه السرِّية.

يشير ديودروس سيكولوس بأن الفينيقيين «أخبروا كل العالم عن هذه الجزر بعد أن تعرَّفوا على جمال وخصوبة البلاد المجهولة»[55]. وبهذه الملاحظة ينوِّه المؤرِّخ بالتأكيد على فترة ازدهار الفينيقيين، حيث لم يكن رجال البحر الناجحون أولئك يخشون أحداً من المنافسين المحتملين في طريق الأطلسي. وعلى مدى قرون طويلة لم يكن بوسع أحد اللحاق بالسفن الفينيقية، كانت كل السواحل مجال عملهم «حتى في زمن

هوميروس كانت أفضل الأماكن في السواحل الأجنبية تحت سيطرة الفينيقيين»[56] . ومكنهم موقعهم الذي لم يكن أحد يقدر على منازعتهم إياه من سلوكهم أحياناً ممارسات شتى وفظَّة: كانوا يسوقون سكان السواحل الأجنبية الذين يريدون تملكهم إلى سفنهم مستخدمين العنف أحياناً ثم يقومون ببيعهم في الموانىء الأجنبية كعبيد[57] . هذا ما كانت تتناقله على أي حال ألسن معاصريهم.

واجه الفينيقيون المصاعب اللغوية في السواحل الأجنبية بأسلوب «التجارة الصامتة». كان يجري تحميل السفينة بالبضائع ثم يصار إلى نشرها على السواحل الأجنبية، بعدها يتراجع العارضون إلى سفنهم ويراقبون عن بعد كيف يقترب السكان الأصليون لتفحص التحف الفينيقية وليقرروا بعدها أي سعر يناسب البضاعة، بعدها يضع السكان ما يقابل البضاعة المعنية بعملتهم المحلية إلى جانب البضاعة ثم ينسحبون، وبعدها يأتي الفينيقيون مجدداً من سفنهم لكي يقرروا من طرفهم ملاءمة السعر المعروض، فإذا ما لاقى قبولهم يأخذون النقود ويتركون البضاعة، أما إذا لم يكن السعر مناسباً لتصوراتهم أخذوا بضاعتهم مجدداً وأبحروا باتجاه المرفأ الذي يليه[58] .

إن اهتمام المعاصرين في الأساليب غير الاعتيادية وبالنجاح الواضح للمشرفين كان كبيراً، وأكبر من ذلك كان اهتمامهم بأهدافهم «الفردوسية النائية» التي كانت محط الأنظار لتعليق كل

مؤرِّخي العصر القديم. وحول هذا يكتب تيوبومبوس في القرن الرابع ق.م، عن «وجود جزر عظيمة ما وراء العالم المعروف، في مكان ما في الأطلسي»[59]. ويذكر كلاديوس في القرن الثاني الميلادي عن جزر لها علاقة مع كادس الميناء المثالي للانطلاق إلى هذا الهدف الثاني[60].

ثم إنَّ روفوس منستوس آفينيو أحد أهمّ المؤرِّخين في القرن الرابع الميلادي يتحدَّث عن رحلة بحرية استغرقت أربعة أشهر قام بها الأدميرال ميلكو وصل بعدها إلى جزر سورلينجا غير المحدَّدة جغرافياً[61].

واستعراض المزيد من نصوص العصر القديم، لن يُقدِّم معارف جديدة، إلاَّ أن ما يهم القارىء الحصيف هو على الأقل إشارة إلى أن بحارة العصر القديم لم يستطيعوا عبور الأطلسي فحسب، بل إنهم بالفعل أنجزوا ذلك. وهذا هو الدليل الأول:

كان بحَّارة العصر القديم يخشون (بحر الظلمات) البحر المرعب ذي الأعشاب البحرية اللزجة التي تطفو فوق الأمواج وتثبت السفن كأذرع التقاط[62]. هذا الوصف ينقله إلينا العلماء المعاصرون للبحارة الأوائل، فهل هذا مجدداً أحد التخيلات التي لا تصدّق ولا يعوَّل عليها والتي نتهم بها أسلافنا؟ كلا، مثل هذا البحر موجود في الواقع، إنه موجودٌ في الأطلسي إلى الجنوب من جزر برمودا ويحمل اسم «بحر سارجاسو»[63] نسبةً لنوع (سارجاسوم باسيغيروم).

وكان بحر سارجاسو يعتبر على الدوام كابوساً ثقيلاً لكل البحّارة. فعدا عن أعشاب البحر المعوقة لا بل الخطرة بالنسبة لبعض أنواع السفن، كانت هناك فترات محدَّدة تسكن فيها الريح، مما حدا بالبحّارة لتجنّب هذه المنطقة قدر المستطاع. ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك دائماً. يذكر كولومبوس هذا في كتاب يومياته مؤكِّداً مدى الرعب الذي سبَّبه بحر سارجاسو لفريق بحّارته.

كتب الجغرافي البرتغالي أرماندو كورتيسا عام 1954: «إذا تعرَّضت سفينة تبحر في الطريقة القديمة وليس لها وسيلة دفع إلاّ الريح لفترة سكون الريح المألوفة بين جزر الكناري ومادريا، فإنها على أغلب الظن ستنجرف إلى الجنوب الغربي حتى منطقة بحر سارجاسو»[64]. وغالباً ما تقف السفن عاجزة وهي تنجرف إلى بحر سارجاسو إلى أن تلاقي ريحاً في الغرب تدفعها ببطء، والريح في هذه المنطقة تهب فقط من ناحية الشمال الشرقي (وباتحادها) مع التيَّار شمال خط الاستواء وتدفع السفن بشكل حتمي عكسي لجزر الأنتيل[65].

وتدلّ معرفة بحّارة العصر القديم ببحر سارجاسو إلى أي مدى توغلوا باتجاه الغرب: هو موجود، حسبما يراه بحّار متوسطي، أمام شاطىء أمريكة مباشرة. ولو أنَّ سفينة من العصر القديم منطلقة من البحر المتوسط وصلت لأوَّل مرَّة إلى

بحر سارجاسو لما تبقَّى إلاَّ مسافة قصيرة تقطعها للوصول إلى تلك الشواطىء التي توجَّه إليها كولومبوس بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام.

ولو أخذنا اهتمامات الريح فقط لهؤلاء البحَّارة الشجعان بعين الاعتبار عندئذ لأغمطناهم شوقهم للمعرفة وأنكرنا عليهم شجاعتهم.

ولا ريب في أن رحلاتهم الاستكشافية الجسورة إلى «الجزر النائية» كان لها دوافع أخرى عديدة، من ضمنها استشرافهم للبطولة أبداً. كان «بحر الغرب» العظيم يمثل تحدياً لكل البحَّارة في كل الأزمنة، هذا التحدِّي الذي قبلوا أن يأخذوه على عواتقهم. وتتحدث الأساطير باستمرار وبتقدير عظيم عن أعمال بطولية انتزعها من البحر أبطال وأنصاف آلهة جازفوا بحياتهم في سبيل ذلك.

إن الأساطير قصص غامضة. وكان أنصاف الآلهة في السابق أبطالاً دنيويين قبل أن ترقى بأعمالهم بهجة الأحاديث وفن الأقاصيص عند الناس إلى المستوى الأسطوري. وبالتحديد تمثل أعمال البطولة في مجال البحار الخطرة سحراً خاصاً، وتقدم مادة خصبة ومثالية لأحاديث البطولة. فهرقل استحضر من الطرف المقابل للأعمدة المسماة باسمه الفواكه من حديقة «الهسبريديا»[66]. والبطل الأسطوري البابلي جلجامش زار بلاداً بعيدة في الغرب كان هو أول من دخلها بعد الشمس[67]،

بالإضافة إلى أوديسوس الذي تخطّى كل المخاطر وكل تحديات البحر بشجاعة نادرة.

ومن حين لآخر يجري تدقيق الحقائق الجغرافية المذكورة في «الأوديسا» لهوميروس. ونتيجة لذلك كانت تنشر أيضاً من وقت لآخر بحوث عن عبورات ممكنة للمحيط الأطلسي في الأوديسا. وقد يقودنا التعريج على ذلك في هذا الكتاب بعيداً جداً وبالتالي نستبدل الحجج المقنعة الأخرى بإسهاب صرف.

من الجائز أن لا يكون النزوع للمعرفة والتطلّع إلى المجد والربح وحدها هي التي حدت بالبحّارة الأوائل إلى الإبحار باتجاه الغرب، فلربما كانوا أيضاً ملزمين بالبحث عن سلامتهم في هروبهم إلى الأطلسي. كان على الفينيقيين مثلاً أن يهربوا من موطنهم في الشرق الأوسط في القرن السادس ق.م، ثم بدأت منذ القرن الثالث ق.م، تتجمّع في الأفق الأخطار ضد قرطاجة، فالرومان هدّدوا بشكل جدّي وجود أقوى مدينة تجارية في السابق في فترة الحروب البونية ثم دمّروها في نهاية المطاف عام 146 ق.م، وحرّموا على المدينة التجارية المهزومة امتلاك سفن خاصّة بها، مما كان يعني تحديد مصير قرطاجة. وثمة إشارة في وثائق مدينة قرطاجة إلى أن البحّارة العظام اعتبروا «الجزر النائية» ورقة انتصار سرّية فكّروا باستخدامها إذا اضطرتهم الشدّة السياسية لذلك. ولكي يمنع معرفة أي شخص بوجود «الجزر النائية» أصدر مجلس شيوخ

مدينة قرطاجة أمراً يمنع بموجبه الإبحار باتجاه «الجزر النائية» ويعاقب بالموت كل مخالف[68].

وتذكر التوراة على لسان النبي القديم جيسيجا (Jesaja) «الجزر النائية» على النحو التالي: تجمَّعت السفن لديَّ، وفي مقدمتها سفن ترشيش لكي تحضر أبناءك مع ذهبهم وفضتهم من البعيد. وترشيش حسبما تتفق عليه الآراء هي نفسها طرطيسوس التي ورد ذكرها والموجودة على شاطىء الأطلسي الإسباني والتي كانت مركزاً لتصنيع المعادن واستمدَّت شهرتها من خلاله. ويذكر جيسيجا مؤكِّداً أن «الجزر النائية»[69] مكانٌ للجوء «سأضع عندكم علامةً وأرسل بعضاً منكم الذين هربوا إلى الشعوب الأخرى. . .» وإلى «الجزر النائية» تعود نصوص جيسيجا إلى القرنين الرابع والثالث ق.م.[70].

وهكذا تقدِّم النصوص القديمة، ومن ضمنها التوراة، صورة متطابقة عن المعارف الجغرافية للعلماء وقتئذٍ: كانت «الجزر النائية» معروفة لديهم. وتتفق الأوصاف وتكمل بعضها البعض وهي التي تعتمد على الأنشطة البحرية في تلك الأوقات.

وبعد ذلك لفَّ الصمت الرحلات البحرية العالمية، ولم تعد موضوعاً للحديث على مدى قرون عدة. بيد أن سحر البعيد، والبحر المجهول و«الجزر النائية» بدأ يطل بتأثيره من جديد. فمع انتشار المسيحية في أوروبة ظهرت دوافع ومهام وإمكانيات جديدة للانتقال إلى الجزر الأجنبية. فأثناء الغزو الماورر

(المغربي) في القرن الثامن على سبيل المثال هدَّد جزء من السكان المسيحيين في إسبانية، ويعرض كتاب كنسي (أن أساقفة إسبانية السبعة أنقذوا أنفسهم على سبع سفن أبحرت بهم إلى جزيرة المدن السبع)[71].

ومع أنه لا ينبغي النظر إلى الرقم السحري «سبعة» حرفياً يبقى جوهر المقطع جديراً بالاهتمام «جزيرة المدن السبع». ويتحدَّث الهنود الحمر للغزاة الإسبان الأوائل عن «المدن السبع» التي بدأ هؤلاء بالبحث المحموم عنها. يذكر هذا العالم «توسكانيللي»[72] في رسالة إلى كولومبوس ينوِّه فيها إلى «أنطيليا» والتي تطلقون أنتم عليها «جزيرة المدن السبع».

ويجري الحديث في أساطير البحَّارة الأرلنديين عن رحلات استكشافية إلى بلدان مجهولة تقع في الغرب. كان مؤلفو هذه القصص المدهشة الكلتيون[73]. لقد طاف هذا الشعب الهندي الأوروبي كل أوروبا تقريباً حتى أنه ظهر قبل ميلاد السيد المسيح في آسيا الوسطى. ومنذ القرن السادس قبل الميلاد استقرَّ الكلتيون في إسبانية أيضاً حيث باشروا مع البونيين الفينيقيين من قرطاجة مشاريع مشتركة ناجحة في الملاحة البحرية. وفي القرون اللاحقة نشأ في طرطيسوس بين الإيبيريين والكلتيين والبونيين من قرطاجة تعايش مثمر ما يزال يمكن تتبّع آثاره حتى أمريكة، كما سيظهر ذلك لاحقاً[74].

2 ـ السفن والملاحة البحرية

ما الذي يمكن أن تعنيه التقارير التاريخية عن الرحلات الاستكشافية وفنون الملاحة القديمة للبحّارة الأوائل، إذا لم تستكملها معطيات صحيحة عن سفنهم المستخدمة. ويبدو أن مؤرّخي العصر القديم نظروا إلى الموضوع مثلنا. ولذا احتوت كتاباتهم أوصافاً مسهبة عن أنواع السفن، وعلامات صناعتها المميَّزة، وحجم السفن وعدد أشرعتها أو بالأحرى أجهزة التجذيف والوسائط الفنية المساعدة وطرائق أداء الملاحة القديمة.

فمنذ القدم قدّمت أوصاف تعطينا صورة دقيقة تماماً عن أنواع السفن القديمة. وتعتبر أفضل مساعدة توضيحية تلك التي قدَّمها ثور هايردال الذي كان قد قلد نموذجي سفن أصلية بدقة مستخدماً نفس المواد ثم قام بتجريبها. أبحر في سفينته المسماة كون تيكي عام 1947 قاطعاً المسافة من البيرو إلى تاهيتي في سبعة وتسعين يوماً. لقد أوضح للمختصين الذين اعتراهم الذهول أن عبوره الناجح للأطلسي هو تأكيد للنظرية القائلة إن بولينيزيا قد عُمرت انطلاقاً من أمريكة وإن الإنسان

عبر المحيط الأطلسي في السابق بوسيلة إبحار شبيهة «بالطوف». بيد أن التشاؤم حيال الاتصالات ما قبل كولومبوس بين أمريكة وبقية العالم لم تنتفي في الواقع حتى بعد هذه التجربة الباعثة على الدهشة حقاً.

ومن ناحية أخرى أثار في الواقع عبور الأطلسي من قبل هايردال بواسطة قارب مصري مصنوع من البردي المسمّى رع (2) دهشة كبيرة، غير أنه لم يؤدِّ إلى تغيير في التفكير. فالمحيط ما زال يعتبر أخيراً غير قابل للعبور من البحّارة الأوائل. لكنهم لم يكونوا يعتمدون مراكب من البردي إطلاقاً. وعلى أبعد تقدير ومنذ بداية العصر البرونزي وجدت مراكب خشبية متينة يعول عليها أكثر من مراكب البردي بمرات عدة. كيف كانت تبدو هذه المراكب، الخشبية الأولى؟

الجواب عن ذلك يقدمه حادث عرضي مفرح: في عصرنا هذا عُثر بالقرب من مارسالا في جزيرة صقلية على سفينتين شاركتا في الحرب البونية الأولى بين قرطاجة وروما وقبعتا تحت الماء طوال ألفي عام[75]. وهما ما زالتا في حالة ممتازة. يبلغ طول السفينة نحو 30 متراً. وتشير تفاصيل البناء إلى أنهما كانتا كمركبي مرافقة أو سفينتي إمداد. أما السفن الحربية الفعلية فكان يبلغ طول الواحدة منها حتى 50 متراً، ولها على الغالب ثلاثة أسطح للمجذفين، مما جعلها تحمل اسم «الثلاثية». وعلى سور الثلاثية كان المحاربون يثبتون دروعهم

المستديرة على جانبي السفينة مما يعطي حماية إضافية. ولكي يحرّك كل من المائة والثمانين من المجذفين مجذافه الثقيل في إيقاع صحيح، كان هناك مشرف يقرع الطبل لتنظيم الحركة. وكانت سرعة الثلاثية تتراوح ما بين خمس إلى ست عقد وفي المسافات القصيرة تصل سرعتها إلى ضعف ذلك.

أما النموذج الأسرع والأكثر متانة لسفينة حربية فكان بانتيرا. إلاَّ أنها لم تكن تحتوي إلاَّ على سطح واحد يجلس على كل طرف منه عشرة جذافين. وكل خمسة يشتركون سوية في العمل على مجذاف واحد. ويبقى الممر الأوسط فارغاً للمشرف الضروري الذي كان همه السرعة في هذا النوع من السفن، ذلك أن خطر الانقلاب كان أقل منه في الثلاثيات ذات الأسطح المحملة فوق بعضها البعض. وتعتبر البانتيرا أحدث السفن الحربية وتمتلك لهذا فرصاً أفضل في المنازلة البحرية.

وكانت مهمة السفينة الحربية في العصر القديم تنصب على إغراق سفينة العدو عن طريق الاصطدام بها. ويقال عن الحرب البونية الأولى أن القرطاجيين لم يخسروا سوى سبعمائة سفينة حربية، بينما خسر الرومان نحو ألف سفينة. خسائر مرتفعة تدعو للاستغراب! وبما أن الحاجة أم الاختراع فلقد اهتدى الفينيقيون إلى نظام يمكنهم من بناء السفن من هذا النوع بمجموعات، أي بشكل أسرع وأكثر منطقية. وما تزال توجد على السفينتين المذكورتين من مارسالا علامات هي ضرورية

لإنتاج المجموعات. كل جزء من السفينة وضع عليه حرف فينيقي، بحيث يكون تبديل قطع الغيار بسهولة وتعويض الخسارة بسرعة أكبر.

لم يساعد الاختراع العبقري لتنسيق قطع الغيار القرطاجيين أنفسهم فحسب، بل مكّن الرومان أيضاً من تقليد السفن الفينيقية المجربة بعد أن وقع في أيديهم أنموذج لها عقب معركة بحرية جرت في ممر مسينا. ووجد المؤرّخ اليوناني بوليبيوس (القرن الثاني قبل الميلاد) هذه الحادثة من الأهمية، حدت به لأن يعيد تفصيلاتها بدقة[76]. ثم يضيف بوليبيوس الطاعن في السن، أن الرومان لم يحتاجوا إلاّ لستين يوماً لبناء أسطولهم الحربي ـ وهذا بفضل ما سبقهم إليه أعداؤهم من عمل ذهني[77].

يبقى من النماذج الأساسية الثلاثة للسفن الفينيقية أن نستعرض أهمها في هذا السياق وهي السفينة التجارية. ثمة أقدم عرض للسفن التجارية الفينيقية موجود على نقش في قبر أحد حكام طيبة من المملكة الثامنة عشرة (1500 ق.م). كانت السفن من هذا الطراز، تجلب خشب الأرز المرغوب من الشاطىء المشرقي إلى مصر. وكانت السفن مصمَّمة خصيصاً لغرض الاستخدام هذا، حيث جعلت منخفضة لتحميل وتفريغ جذوع الأشجار الطويلة. ولم تكن مؤخرة السفينة المرتفعة بقصد الزينة أو تحديد الطراز بقدر ما كان لها وظيفة، وهي

تثبيت جذوع الأشجار عليها وجرّها خلفها، في حال كان الجذع أطول مما يستوعبه سطح السفينة.

وتعتبر السفينة التي ترتفع مقدمتها فوق الماء عالياً على هيئة طائر الحسُّوْن رمزاً للسفن الفينيقية. وهذا الشكل كان له وظيفة تتجلى في: منح الحماية السماوية والحفاظ على استقرار السفينة. وغالباً ما كان يختار شكلاً للحسُّون الإله القزم بيس الذي توفر بشاعته الحماية من الشر والأذى. كما جرت عادة الفينيقيين وضع رأس حصان في مقدمة السفينة تتويجاً لسفنهم مهيبة الطلعة. وفي هذا إشارة إلى إله البحر بوسايدون الذي يركن البحارة كثيراً إلى خيره ولطفه. وتيمناً بالإله بوسايدون الذي يمتطي صهوة جواده وهو يسابق الريح منزلقاً فوق الماء فلقد أراد الفينيقيون أن يحذوا حذوه وهم فوق سفنهم يشقُّون عباب الماء بهمّة.

وما زالت السفن التجارية الفينيقية تحظى باحترام كبير حتى اليوم. كانت مبنية وظيفياً بما يتلاءم مع التيّارات بشكل جيِّد. فهيكل السفينة كان على شكل مستدير لتخزين البضائع، مما حدا بالإغريقيين ودون احترام لإطلاق تسمية «جاولوس» أي الحوض عليها، ذلك أن العلاقة ما بين طول السفينة إلى عرضها بلغ ثلاثة إلى واحد. كما كان يوجد أنموذج آخر أكثر أناقة، العلاقة فيه بين الطول والعرض بلغ أربعة لواحد. هذا الأنموذج كان أكثر سرعة، لكنه بالتالي أقل ثباتاً. أطلق

الفينيقيون باعتزاز تعبير (هيبيوس) أي المُهر عليها لأنه لم تكن سفينة أجنبية تستطيع مجاراتها في السرعة.

وأما المعدات الفنية للسفن فكانت أقل وقعاً من كفاءتها. آلة المج السدسية*[78] لم تكن معروفة آنذاك، والساعة الزوالية كانت تعويضاً باهتاً لقياس أطوال الظل كان يتم حساب موقع السفينة بواسطتها[79]. وكانت تدفع السفينة التجارية الفينيقية بواسطة شراع ضخم مستطيل مثبت على سارية في منتصف السطح وبهذا الشراع كان يمكن استخدام الريح حتى إلى 100 درجة.

ما الذي كان يفعله البحارة الأوائل إذا لم تكن الريح مؤاتية؟ كانوا ينتظرون، ثم يغيِّرون اتجاههم. كانوا يرتجلون. وأثناء الطوارىء كان ثمة بعض المجذفين على ظهر السفينة يقع عليهم عاتق تجنب الأسوأ ــ وفي حالات كثيرة لم يستطيعوا تجنبه.

بلغ عدد طاقم السفينة التجارية ومن ضمنه المجذفين عشرين شخصاً. ومن ضمن المخزون كانت توجد حيوانات حية، يجري ذبحها أثناء الرحلة ويكلّف طبَّاخ بتوزيع الحصص اليومية. وتبيِّن بعض الصور عن السفن التجارية الفينيقية وجود نساء أيضاً على السفينة، ولربما كنَّ يتولين مهمة تقديم الأطعمة؟

(*) آلة قياس الارتفاع ــ المترجم.

ولا بد من تزويد القارىء الذي يرغب بصورة دقيقة عن السفن التي هي العنصر الأهم في الرحلات الاستكشافية ما قبل كولومبوس، ببعض المعطيات الفنية عنها: فمجذاف السفينة كان له صفيحة غير متناظرة، وعريضة ومثبتة على الناحية الخلفية من مؤخرة السفينة. وقاعدة السفينة وبسبب كبرها (حيزوم السفينة) كانت لها مهمة الأمن في الحالة الخطرة. واستخدمت الحجارة الثقيلة أو قطع المعادن كمرساة. بلغ الطول الأقصى لمثل هذه السفينة خمسين متراً وسرعتها من ثلاث إلى خمس عقد.

ولم تكن مثل هذه السفينة المبنية بمتانة تخشى البحار الواسعة، ولم تكن الفرضية القائلة إن بحارة العصر القديم لم يكونوا يبحرون على طول السواحل يتفحصونها خائفين، لكي ينتقلوا من مرفأ آمن إلى آخر، هي فرضية خاطئة. الطريق «الأمين» كان دون شك ليس بالقرب من السواحل وإنما في المسافات البعيدة عن الشعاب والجروف الصخرية. هذا ما كان الفينيقيون على دراية به. وعلى الرغم من ذلك كان عندهم صعوبات بما فيه الكفاية، حتى ولو كانت فنونهم الملاحية معتبرة وحساباتهم الفلكية موثوقة لحدٍّ بعيد.

كان الإبحار في أثناء النهار يسير حسب موقع الشمس، ومسار التيارات البحرية وطيران الطيور. وفي الليل اهتدوا بالنجوم. واعتبر برج الدب الأكبر ذا أهمية كبيرة للبحَّارة.

وذكر المصريون هذا البرج قبل سبعة آلاف عام. ويدوِّن هوميروس عنه، بأنه البرج الوحيد الذي يدور دون أن يختفي في لجة البحر، مما يعني أن الدب الأكبر لا يغيب تحت الأفق وعليه يغدو وسيلة يعوّل عليها في معرفة الاتجاه.

لكن الذي حيَّر المعجبين بالفينيقيين هو اختيارهم لبرج الدب الأصغر كوسيلة استرشاد في عرض البحر[80].

هذه الحقيقة خصَّها بالذكر المؤرِّخ الإغريقي سترابون وكذلك الشاعر الإسكندراني كليماخوس معتبراً أنها شيء خاص. كما تغنَّى شاعر البلاط آرانوس في أنشودته «فانيومنيا»*. ويبدا الموضوع بالنسبة للعصر القديم مهماً للغاية ومشوّقاً بحيث يختار آرانوس أن يتعرَّض للاختلافات في أبراج النجوم، التي لا تهم بالنهاية إلاَّ البحارة، بشيء من الإسهاب: «اتخذ الإغريقيون الدب الأكبر علامة لتوجههم، لأنه يتلألأ في السماء ويمكن مراقبة لمعانه بسهولة. بينما وضع الفينيقيون ثقتهم بالدب الأصغر ـ رغم أنه أصغر، لكنه أكثر موثوقية للبحَّارة لأن نجومه تدور في فلك صغير. من خلال ذلك يستطيع الرجال من صيدا الفينيقية اتخاذ الاتجاه المستقيم»[81].

ولم تكن الخرائط البحرية التي هي بالنسبة إلينا أمرٌ مفروغ منه، معروفةً في العصر القديم. وبدلاً عنها استخدمت كتب

(*) الظاهرة ـ المترجم.

إرشاد الإبحار، يدوّن فيها بدقة الخاصيّات الجغرافية للشواطىء والملاحظات الضرورية عن وضعية الرياح والتيّارات البحرية. ويمكن الاعتقاد بشيء من الجزم أن المعلومات الدقيقة والحسابات عن تيّار الخليج وتيّار الشمال وخط الاستواء والرياح الاستوائية قد عرف أهميتها البحّارة الأوائل بالتأكيد في عبور المحيط الأطلسي، قبل كولومبوس.

كما اعتبر شاطىء إفريقية الغربية من الأماكن الروتينية للفينيقيين[82] حيث عُثر في جزر الكناري على قوارير فينيقية وعملات معدنية رومانية وصلت بالتأكيد مع البحّارة إلى هناك[83].

عرف هؤلاء البحّارة أن الرياح على مستوى الجزر الكنارية غير مؤاتية لخط إبحار شمالي. لذا اتجهوا ناحية الشمال الغربي ليتجنّبوا التيّار المعاكس. وفي عرض البحر المترامي وبمحاذاة ماديرا وصلت السفن بعدئذٍ إلى منطقة رياح ملائمة وبواسطتها استطاعوا الوصول إلى مضيق جبل طارق.

ومن المهم في هذا الخصوص التأكيد على أن البحّارة يمكن أن يواجهوا في هذه المنطقة إمكانية أن تنحرف سفنهم من جراء ظروف معاكسة كأن يطرأ على السفينة طارىء أو تتعرَّض لعاصفة وتصبح غير قادرة على المناورة فتنحرف بمحاذاة الجزر الكنارية لتقودها الرياح الاستوائية والتيّار الاستوائي باتجاه

الغرب إلى الجزر الهندية الغربية ومنها إلى شاطىء أمريكة الوسطى[84].

مثل هذا الخط السيِّيء أصاب البحَّار المشهور بيدرو الفارس كابرال، حيث انحرف عام 1500، عن مساره وهو في طريقه من البرتغال إلى الهند (عن طريق رأس الرجاء الصالح) قبالة جزر الكناري ــ لكنه من جراء ذلك اكتشف البرازيل.

ويبيِّن مثال آخر من العصر الحديث تناقلته كتب التاريخ، كم هو سهلٌ أن ترسو سفنٌ في المحيط الأطلسي بسهولة أو بشكل عرضي غير مخطَّط في منطقة خليج أمريكة الوسطى. ففي عام 1511، تعرَّضت إحدى سفن الأسطول الإسباني بالقرب من جزر الأنتيل إلى صدع جعلها تتهادى عشرة أيام، دون مجاذيف ولا أشرعة في عرض البحر. وفي هذا السياق يذكر أن أحد الناجين من السفينة، قد أعجب حاكم قبائل المايا في سيتومال، فسمح له بالزواج من ابنته[85].

عودة إلى الملاحة: تهب الرياح على جنوب الأطلسي من حزام ضغط مرتفع شبه مداري إلى تيَّار ضغط منخفض استوائي، وينحرف عن مساره بسبب دوران الأرض. هذه الرياح المسماة (باسات) تهبّ على نصف الكرة الجنوبي من اتجاه جنوبي شرقي على نصف الكرة الشمالي، حيث تسودها ظروف متمِّمة من الاتجاه الشمالي الشرقي. تدفع هذه التيَّارات السفن من الساحل الإفريقي جنوباً أي باتجاه أمريكة الوسطى،

ومن شمال الأطلسي في شمال أمريكة أو بالأحرى فلوريدا باتجاه بحر المانش.

أدَّت هذه الحركة الدورانية في الأطلسي إلى أن يطرح البعض تساؤلاً فيما إذا كان بحّارة المتوسط ربما قد وصلوا إلى جزر القصدير البريطانية عن طريق أمريكة متجهين إليها من جزر الكناري. على أي حال كان الإبحار عكس الرياح السائدة أمراً ينطوي على مجازفة كبيرة. والبحّارة الفينيقيون المتمرِّسون عرفوا بالتأكيد كيف يستغلوا المساعدة التي تقدِّمها الطبيعة لعبور المحيط.

وليس من قبيل التخمين والحدس إذا ما مزج المرء حقائق الطقس والجغرافية والتاريخ والملاحة بصورة أمريكة التاريخية في فترة ما قبل كولومبوس. توق الإنسان نحو المعرفة مسألة لا مراء فيها. ومعرفة الإنسان بالمستوى الراقي للملاحة البحرية في القديم شيء مُسلَّمٌ به. والإنسان يعرف إضافة إلى ذلك أن السفن كانت تجوب البحار بالآلاف. ثم إن المرء يعلم أن الطقس والأمواج والرياح تؤدي إلى انحراف المسار. ونتيجة لذلك نصل إلى أهداف لم نكن نخطِّط لها أصلاً. وعلى الرغم من هذا ما زال ينظر إلى احتمال النزول على السواحل الأمريكية على أنه غالباً غير واقعي. لكن الأغرب من هذا حقيقة هو أن تبقى السواحل الأمريكية مجهولةً بالنسبة لمن سبق كولومبوس.

ولاستكمال صورة الملاحة البحرية القديمة ينبغي تقديم الشواهد الجغرافية والخرائطية لعصر ما قبل كولومبوس.

تقدم الخرائط البرية والبحرية، التي ظهرت في العصور الوسطى، وفي سنوات ما قبل «اكتشاف» أمريكة عن طريق كولومبوس، معلومات مدهشة عن المنطقة التي لم تكن مكتشفة رسمياً: أمريكة. غير أن أكثرها مدعاةً للإعجاب تلك المكتشفة عام 1957، التي أطلق عليها خريطة فينلاند. ففي عام 1964، نشرت نتائج التقصيات العلمية لهذه الخارطة التي أذكت ضرام النقاش الدائر بين مؤيدي ومعارضي نظرية عبور الأطلسي[86].

أنجزت خريطة فينلاند حوالى عام 1440، تظهر عليها بعض أجزاء ساحل القارة الأمريكية. ووصف بعض العلماء الخارطة بأنها أصلية، على الرغم من أنهم اعترفوا بشكل غير مباشر أن السواحل الأمريكية كانت جزئياً على الأقل معروفة للأوروبيين منذ حوالى عام 1440، أي قبل خمسين عاماً من كولومبوس.

العديد من أساتذة جامعة ييل امتدحوا خريطة فينلاند، معتبرينها أكثر الاكتشافات أهمية في علوم الخرائط في هذا القرن[87]. ومن الضروري التنويه إلى أنه في غضون ذلك ألقى فحص كيميائي ظلالاً من الشك على أصالة الوثيقة. فالحبر يحوي كمية من مادة كيميائية لم تصبح معروفة إلاّ منذ عام

1920، كمادة مكملة للحبر. بينما يطرح مختصون آخرون أنهم وجدوا بأن الحبر الذي يحتوي على هذه المادة جرى تثبيته على حبر قديم لم يكن فيها أصلاً. ومن المؤسف أنه إلى الآن لم تتم الإجابة عن هذه الإشكالية بشكل جازم.

إن عدم الدقة في استرجاع مسارات السواحل والتركيز على مناطق محدَّدة في الخرائط القديمة وفي الخرائط ما قبل كولومبوس يمكن أن تعزى إلى أن البحَّارة القدماء لم تكن تتوفَّر لديهم إلاَّ معلومات جزئية عن المسارات الحقيقية، وبناء عليه لم يتمكنوا من تقديم عرض شامل. ثم إن المرء لم يكن حتى عصر النهضة يعير الدقة في هذا المجال الأهمية القصوى. وفي بداية عام 1570، تمكَّن عالم الخرائط أورتيليوس «بخريطته الشاملة عن العالم» من تقديم إنجاز عمل خرائطي متكامل(88).

فإلى حدود ذلك الحين كانت تتداول على الغالب أوصاف رائعة للمواقع ولتلك الحالة. المثل الرئيسي لتلك المعطيات الرائعة هو كتاب «تولا» الذي ما فتىء يتكرَّر منذ الزمن القديم بأشكال جديدة. «الأرض الكبيرة وتولا» «أقصى الشمال الأخير وتولا» وهلمَّ جرّا. هناك مقطع مشوِّق من مسرحية «فيديا» للشاعر القديم سينيسيا وفيه يتحدَّث بنبرة تنبىء عن عظيم ثقة عن كتاب «أتولا» سيأتي يوم تنفتح فيه البحار على بعضها

وتتصل أجزاء كبيرة من الأرض مع بعضها. وسيكتشف بحّارة جدد عالماً جديداً. عندئذٍ لن تكون «تولا» نهاية المطاف في العالم المعروف[89].

هل كان يملك سينيسيا المقدرة على النبوءة أو هل كانت لديه معلومات عن «الجزر النائية» التي لم تكن تزار بداية إلاَّ بشكل عشوائي.

ومن سيستغرب أن يكون كولومبوس أيضاً قد أولى اهتمامه من خلال هذا الكتاب في «تولا»! يذكر بعض المؤرّخين عن رحلة استكشاف قام بها كولومبوس عام 1477، إلى تولا. وفي الواقع تضم رسومات كولومبوس معطيات تفصيلية عن الأوقات والطقس والموقع الجغرافي «لتولا» هذه، لم تستطع أن يعيدها ثانية لو لم تكن لديه خبرات خاصة عنها[90].

بغض النظر عما يمكن أن تكون عليه الحال، فإن الرحلة إلى «تولا» لم تكن لها أية أهمية ومعنى هنا، لو لم يكن كولومبوس خطَّط لها بالاعتماد على خريطة معيَّنة سبَّبت للعلماء عامة ولمؤرِّخي كولومبوس بشكل خاص كثيراً من «وجع الرأس». والخريطة معروفة باسم واضعها «توسكانيللي».

في عام 1474، وضع الطبيب وعالم الرياضيات الإيطالي، باولو ديل باتو توسكانيللي لملك البرتغال يوحنا الثاني خارطة بحرية شارحاً في رسالة مرافقة وجهها إلى قسيس الاعتراف عند

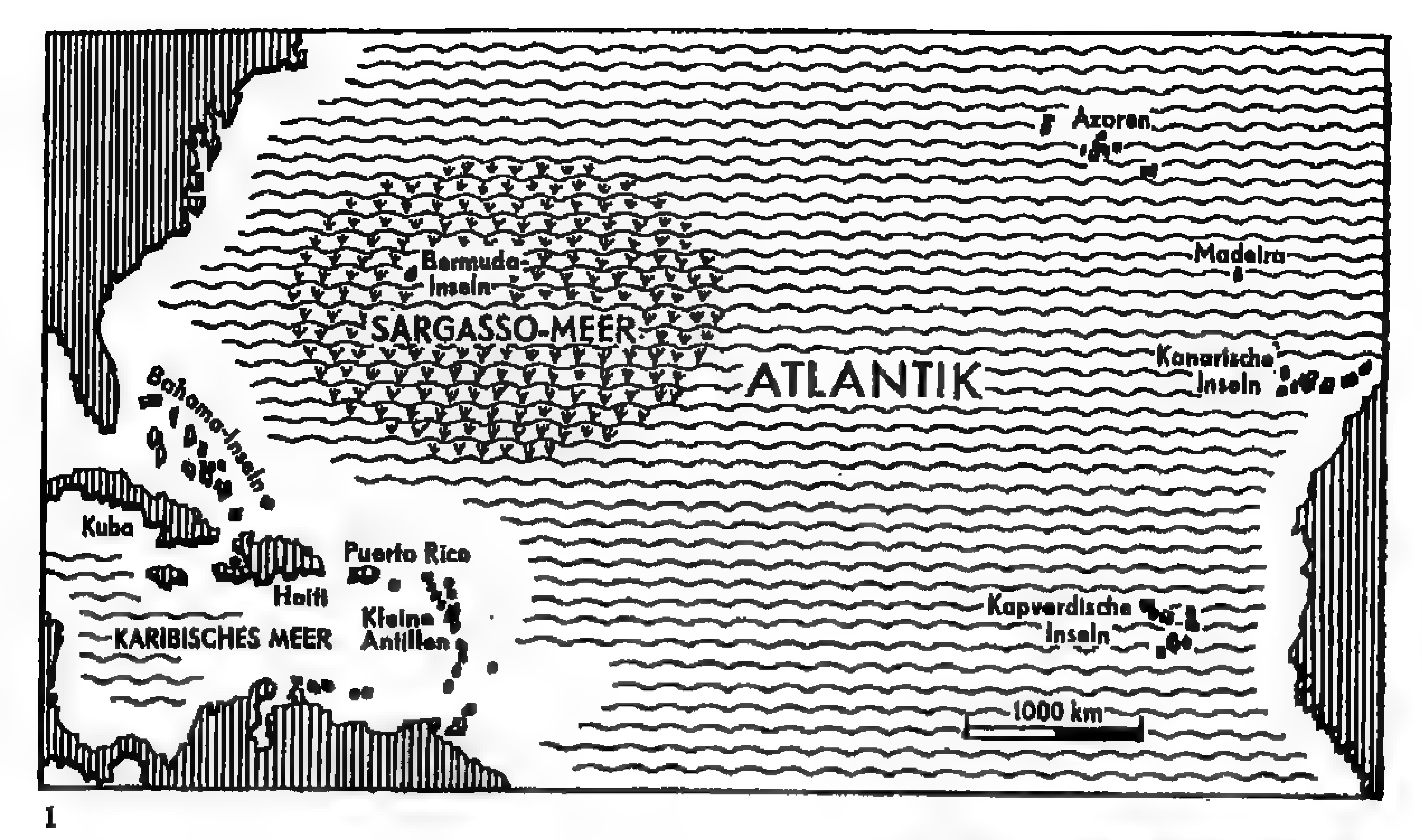
الملك، كانونيوس فرنان مارتينس بأن طريق الاتجاه ناحية الغرب يجب أن يكون عبر الأطلسي أقصر من الالتفاف حول إفريقية. علم كولومبوس بالخارطة البحرية هذه وبالرسالة وأبدى اهتماماً خاصاً بالحسابات الرياضية عن المسافات بين البرتغال والدول التي يمكن الوصول إليها في اتجاه الغرب. ورجا توسكانيللي كي يعطيه نسخة من الرسالة ومن الخارطة البحرية التي تمكّن من الحصول عليهما مشفوعتين برسالة موجَّهة إليه فيها يكتب توسكانيللي: «على الخارطة يدوِّن كل الغرب المأهول. ومن الجزيرة التي تسمُّونها أنتم جزيرة المدن السبع والتي نعلم بها نحن، فإن المسافة إلى الجزيرة الشهيرة «تسيبانغو» اليابان تبلغ سبعة مقاطع أي 2500 ميل»[91].

وليس بمستغرب أن تكون المعطيات الجغرافية بالنسبة لكولومبوس الطموح ذات أهمية بالغة الأثر لرحلته المخطَّطة[92]. ومن المرجح أن البحّار وعالم الخرائط بيري رايس قد اعتمد على خريطة توسكانيللي لدى إعداده خارطة أمريكة التي أصبحت موضع تقدير. كان بيري رايس أدميرالاً تركياً عمل في خدمة السلطان سليم. وما يسمَّى خارطة بيري رايس ظهرت في عام 1513، أي في الوقت الذي وطأت فيه أول قدم أوروبية الأرض الأمريكية. لكن الخارطة ترى أجزاء من القارة الأمريكية لم تكن مكتشفة حتى عام 1513! يدوِّن بيري رايس على طرف الخارطة، أنه كان في حوزة كولومبوس

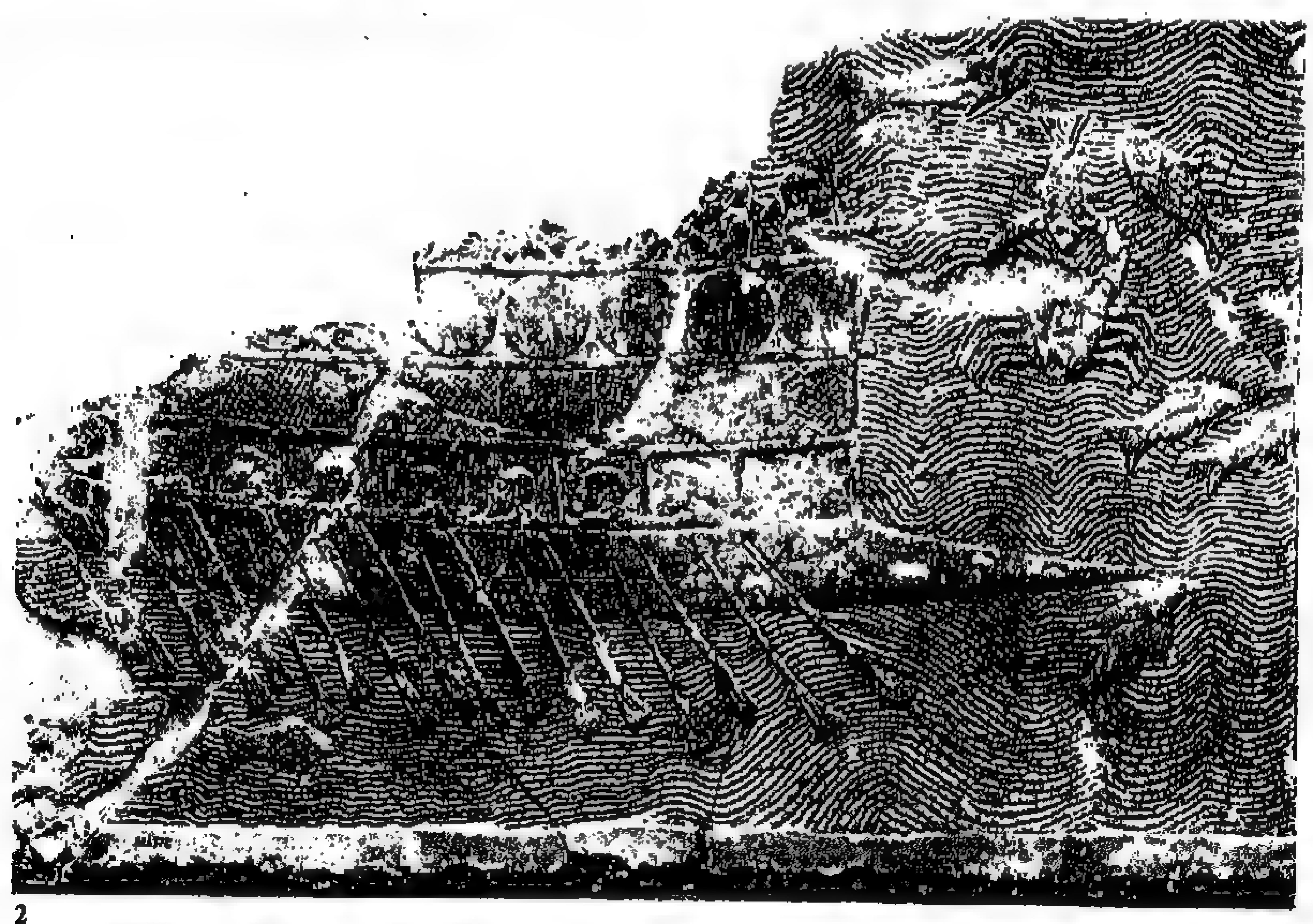
كتاب ينوّه إلى شواطىء وجزر في أطراف بحر الغرب حيث توجد مناجم وأحجار ثمينة. ويطلق على هذه الجزر «أنطيلية»[93] وعلى الخارطة يرد اسم أنطيلية، وتحمل تاريخ 1424، تظهر في غرب الأطلسي أربع جزر تنطبق على جزر الأنتيل في الحجم والشكل تماماً. ولم تكتشف هذه الخارطة إلاّ في عام 1846، ضمن تركات تاجر الأثريات البريطاني السير توماس فيليبس. ومن بين الذين تحدَّثوا عن صحتها الخبير في وثائق القرن الخامس عشر، أرماندو كورتاسو[94].

وأكد فرناند كولومبوس الذي ذاع صيته كمؤرِّخ لوالده، أن كولومبوس جمع معلومات عن جزر غامضة بشكل مكثف ودقيق: «كانت تدعى أنطيلية وتقع إلى الغرب من الأطلسي. وهناك بحّارة برتغاليون وصلوا إلى هذه الجزر، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليها ثانية»[95].

ويبرز عند هذه النقطة سؤال: هل كانت اكتشافات العالم الجديد، المخطَّطة أو العفوية تتمحور حول أحداث ذات أهمية تاريخية كما يقوم بحق اكتشاف أو بالأحرى «غزو» أمريكة من قبل كولومبوس. ولأن عبورات الأطلسي الأولى لم يكن لها على ما يبدو آثار حقيقية، ومقاسة أو باقية بالنسبة لتاريخ العالم القديم، فإنه يمكن أن تخطر على الذهن الجملة اللاتينية القديمة «الكلمة غير المكتوبة لا محل لها في العالم». وهذا لا يعني مثلاً تجاهل أهمية المكتشفين الأوائل، إذ أن بحثهم لم



1



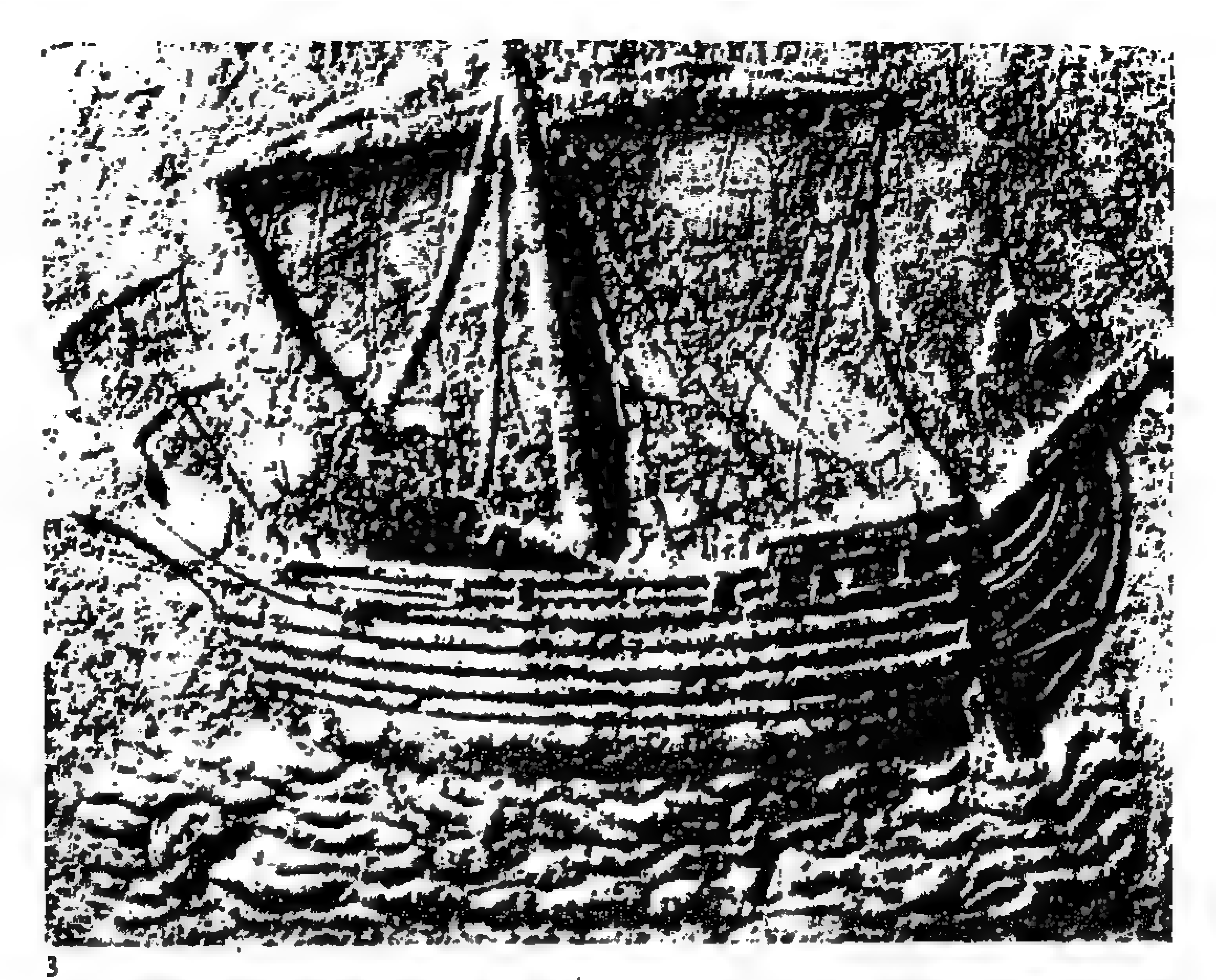
2

1. بحر سارغاسو في الأطلسي.

2. سفينة قتال فينيقية: نقش من نينوى (القرن السابع ق. م).

3. نقش لسفينة تجارية من بيروت (القرن التاسع ق م).

4. التيارات البحرية والرياح في الأطلسي.

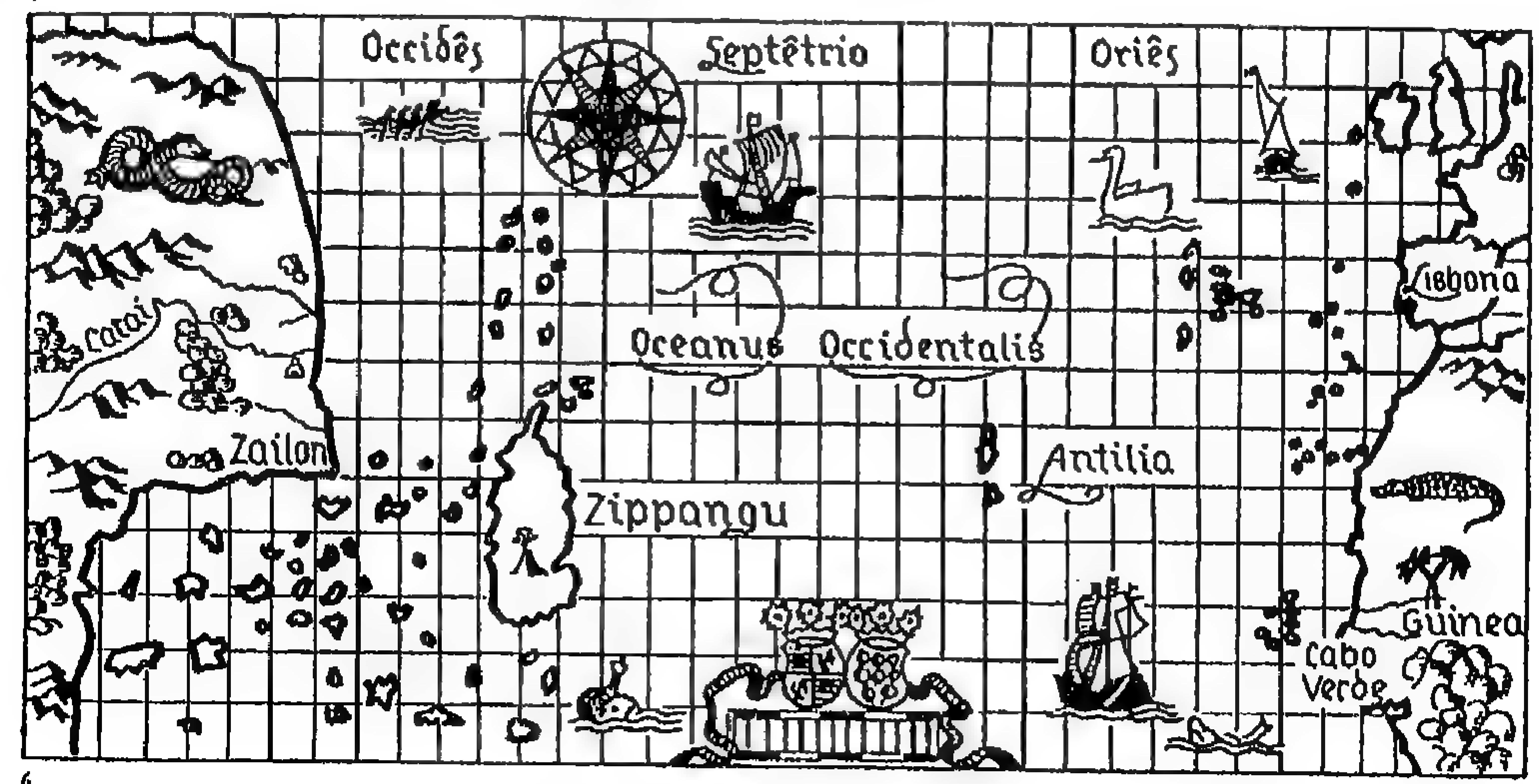


3

5. سلسلة جزر في الأطلسي.

6. «خارطة توسكانيللي» وعليها أنتيليا وسيبانغو (اليابان).

5



6

0 ـ 5	6 ـ 11	11 ـ 15	16 ـ 20	16 ـ 20	21 ـ 25	26 ـ 30	31 ـ 35
هنود حمر	هنود حمر				أستراليون		
فلبينو		إيسلنديون				أمريكيون إنكليز فرنسيون إيطاليون ألمان برتغاليون هولنديون صرب يونان	نرويجيون سويديون
		أفريقيون جنوبيون	عرب أتراك روس تشيك أسبان			رومان بلغار بولنديون	أرون
		سنغاليون سكان سومطرة		صينيون جنوبيون	صينيون جنوبيون يابانيون شماليون مجريون بولون	يابانيون رومانيون	
			كوريون				كوريون جنوبيون أوكرانيون
		هنود				آينو	

7. قائمة عن توزيع الزمر الدموية: (نسبة زمرة الدم «ب»).

8. سمر (مونغوليد)، سود (نغريد)، وبيض (اوروبيد).

9. راس تيراكوتا «انموذج نغريد».

10. اشكال الميكية «انموذج مونغوليد».

11. راس تيراكوتا «انموذج نيغريد» (تاباسكو ــ المكسيك».



8



9



10



11

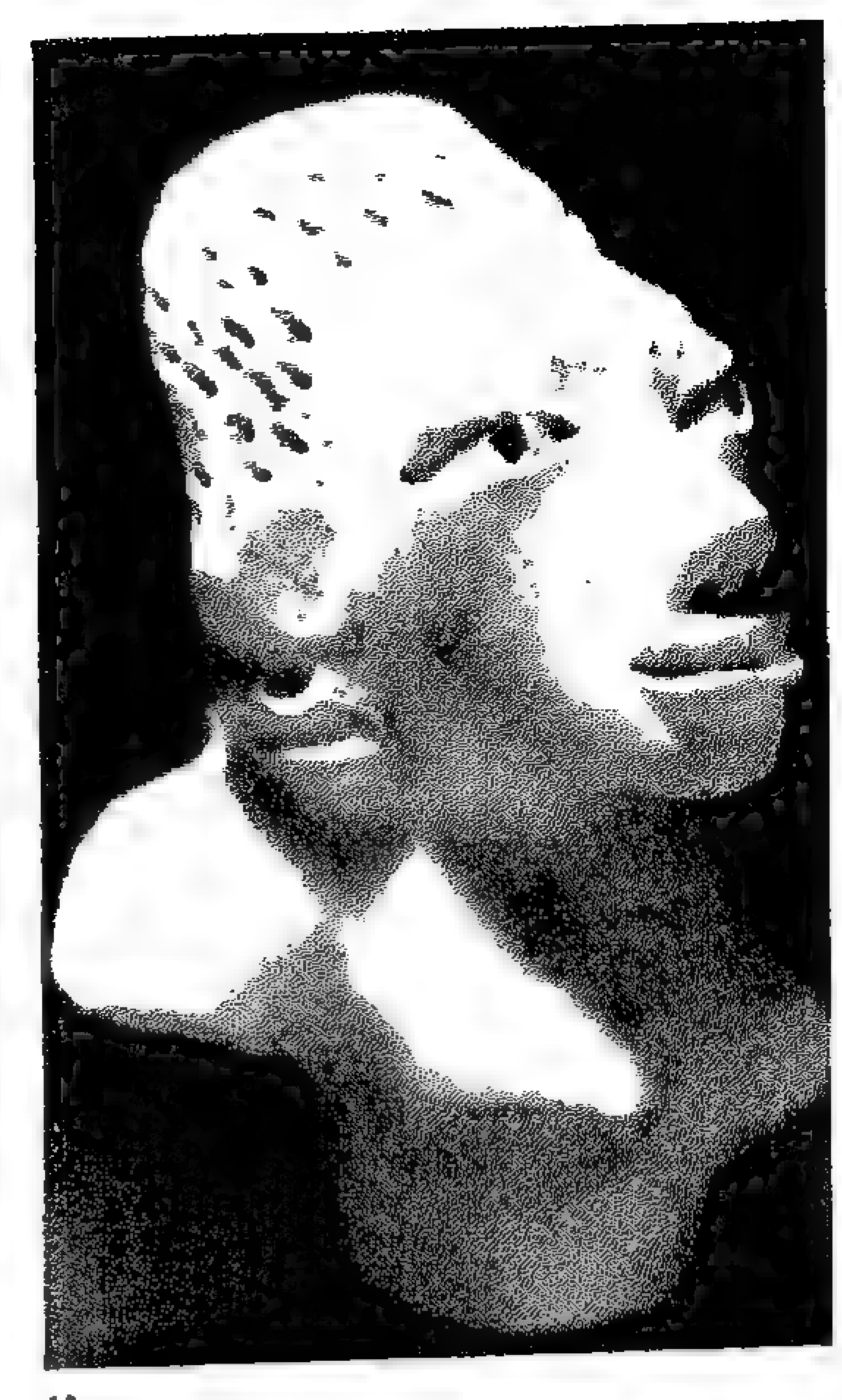
12. رأس تيراكوتا ـ صغير لشخص ملتح ـ انموذج غير مونغوليد (فيراكروز).

13. رأس تيراكوتا ـ انموذج نيغريد (هوا ـ ستيكا ـ المكسيك).

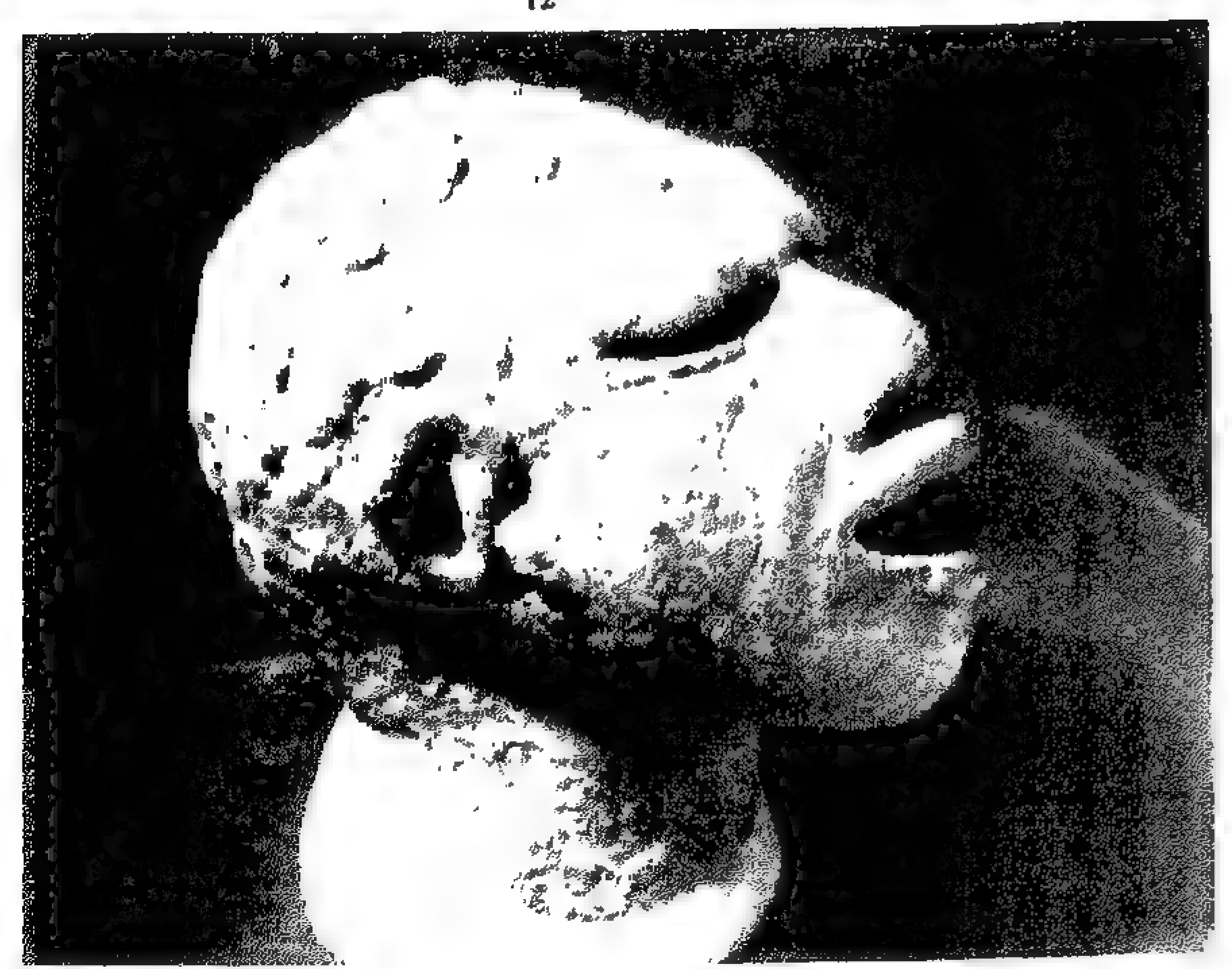
14. رأس تيراكوتا صغير ـ انموذج غير نيغريد (فيراكروز).



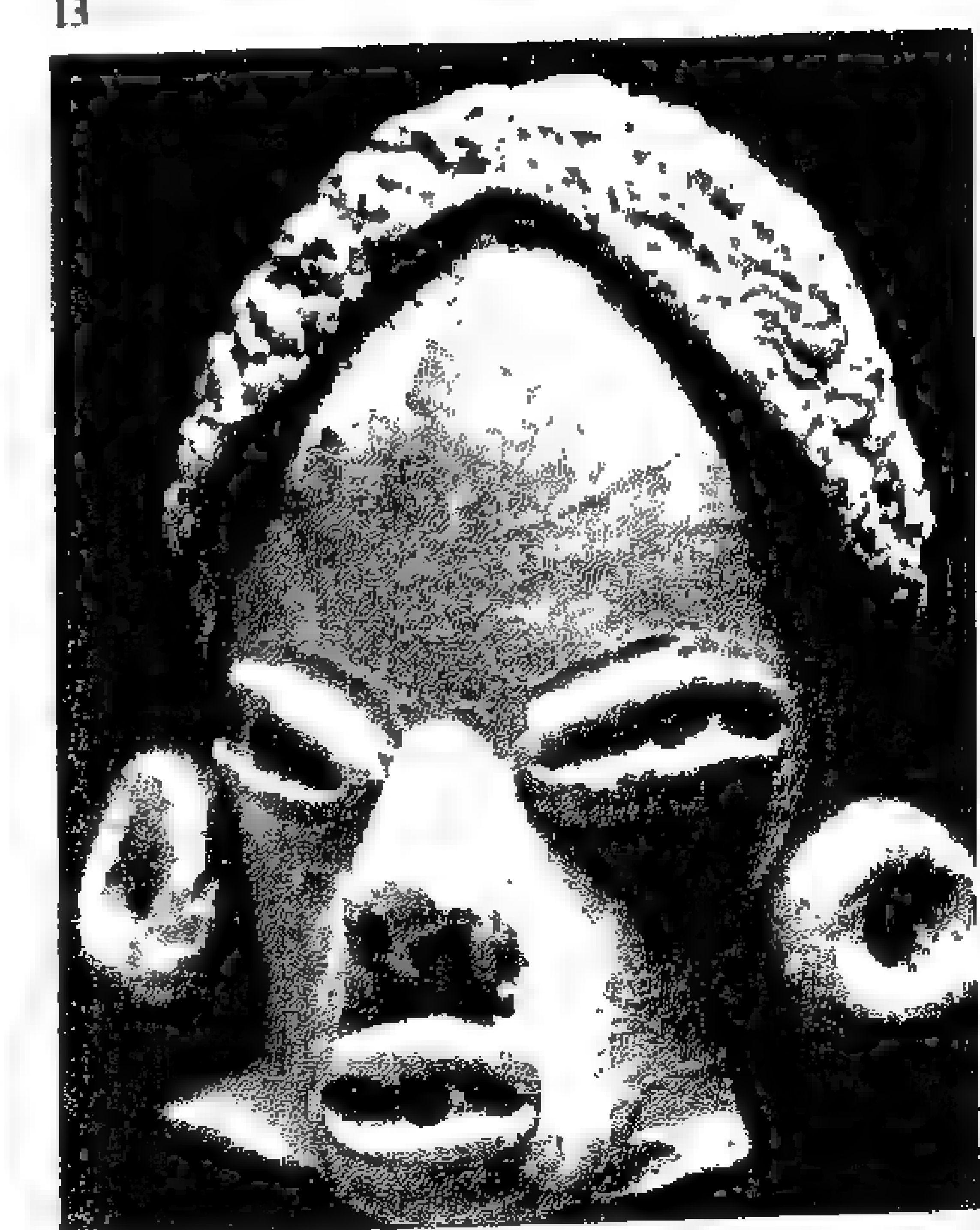
12



13



14



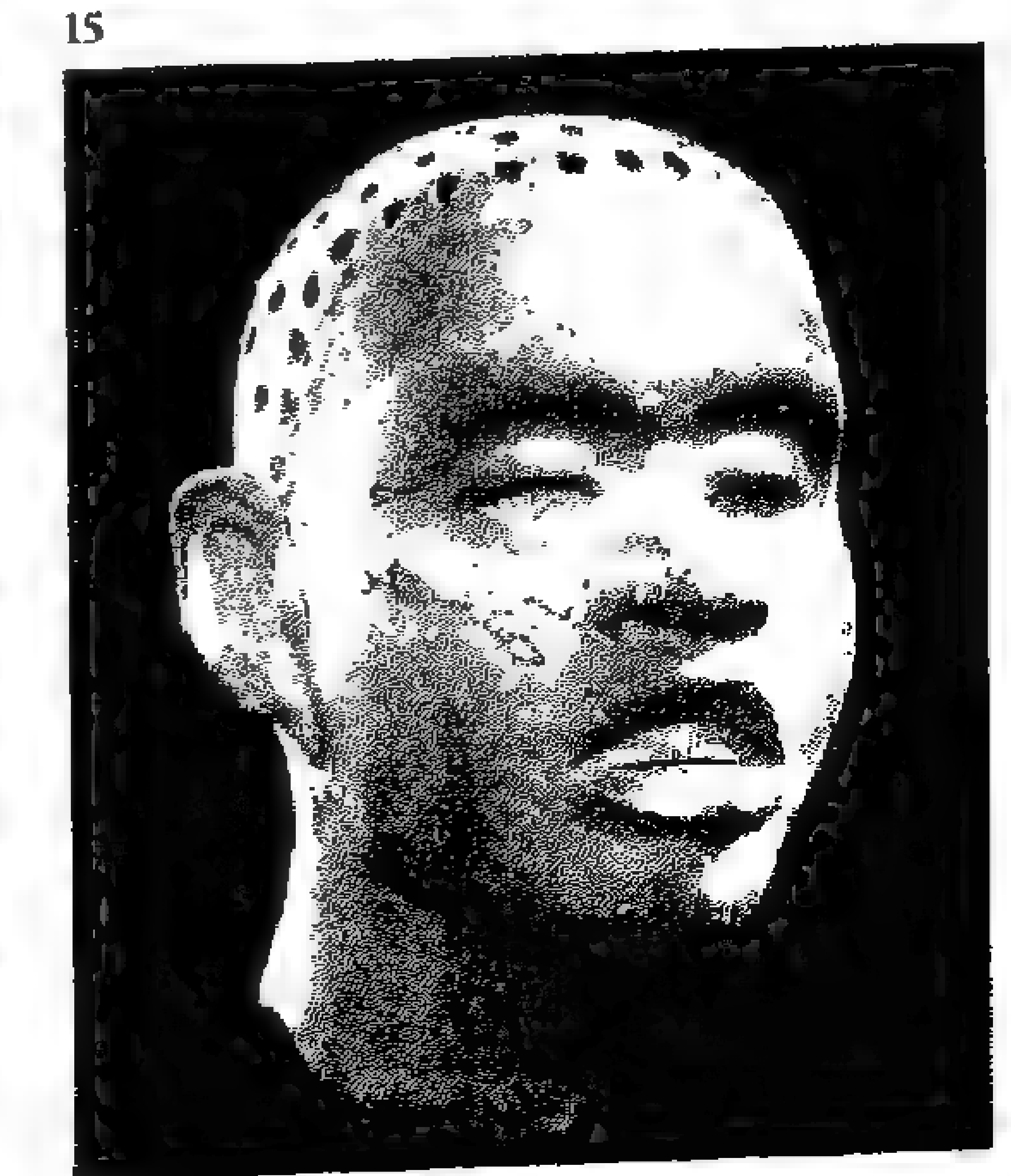
15

15. رأس تيراكوتا انموذج نيغريد (كويرور ايملسيك).

16. رأس تيراكوتا ـ انموذج نيغريد (وسط امريكة).

17. رأس تيراكوتا (نيغريد) وفي رأسه ثقوب للشعر (فيراكروز).





17

18. راس (نيغريد) (فيراكروز).

19. راس تيراكوتا – انموذج نيغريد (وسط امريكا).

20. راس تيراكوتا صغير (نيغريد) وسط امريكة.

21. راس تيراكوتا وفيه وشم (وسط امريكة).

22. راس تيراكوتا (نيغريد) وفيه وشم (وسط امريكة).



18



19



20



21

22

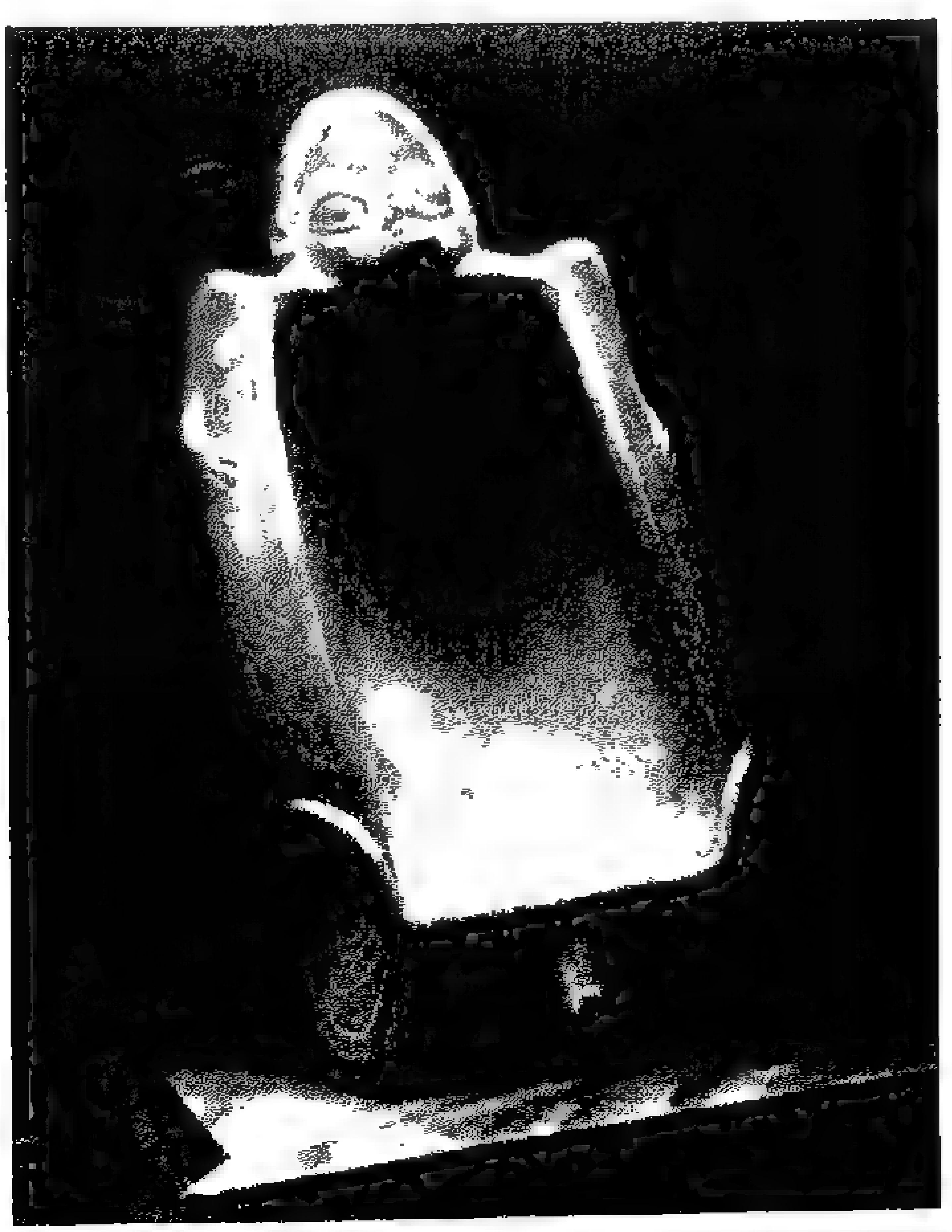




24



26



27

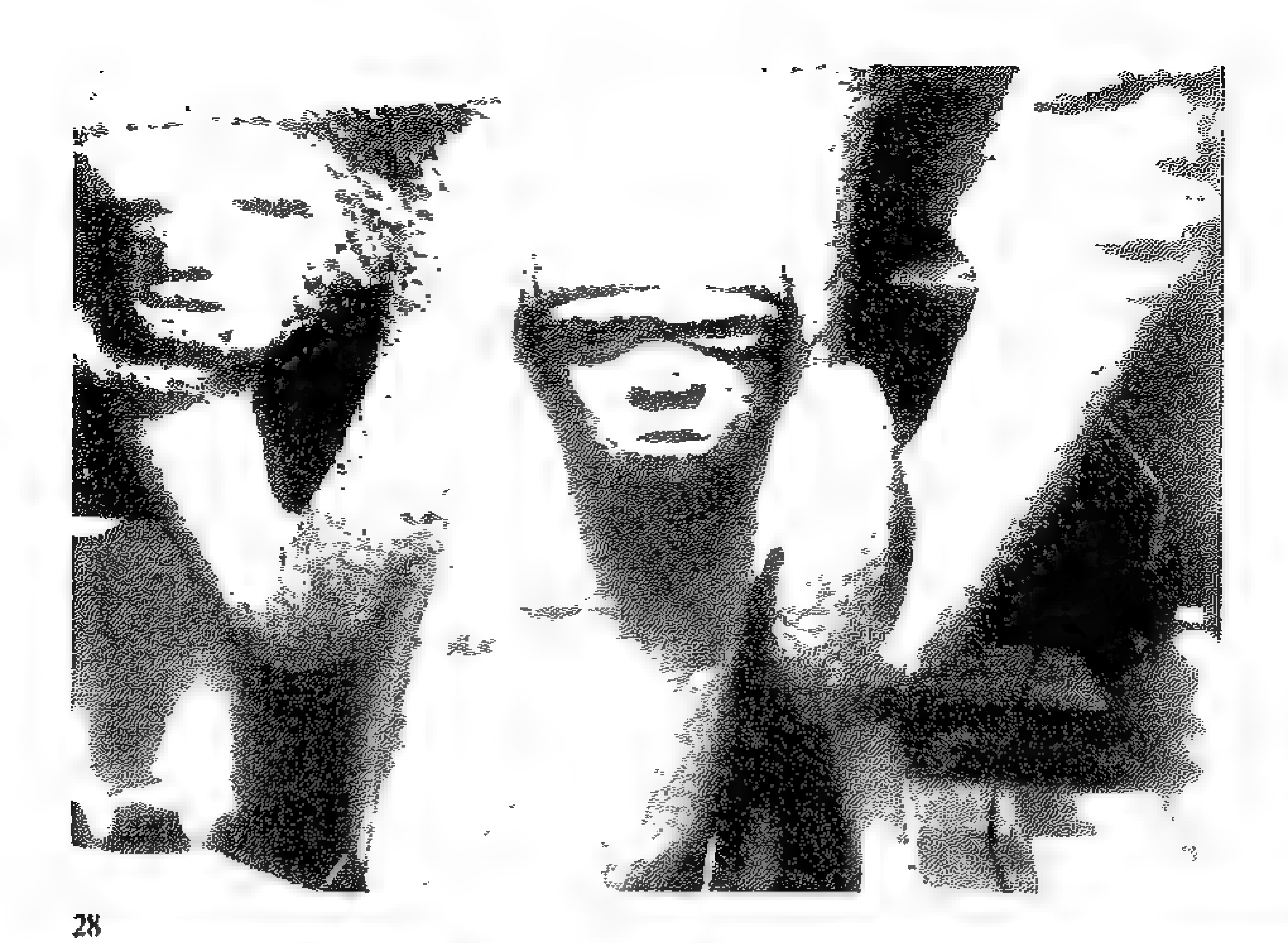
23. راس تيراكوتا (نيغريد) بشفاه على شكل صحن (فيراكروز).

24. راس تيراكوتا (نيغريد) وفي انفه حلقة وشعره أجعد.

25. راس تيراكوتا (نيغريد) شياباس (المكسيك).

26. راس تيراكوتا (نيغريد) شياباس (المكسيك).

27. وعاء على شكل إنسان (نيغريد ـ الملامح) كوستاريكا.



28

28. شكل حجري (نيغريد ـ الملامح) «بنما».

29. شكل حجري الميكي (ملامح نيغريد).

30. راس تيراكوتا وعليه عمامة (ماوري) فيراكروز.

31. راس تيراكوتا وعليه عمامة (مغربية) كويريرو (المكسيك).

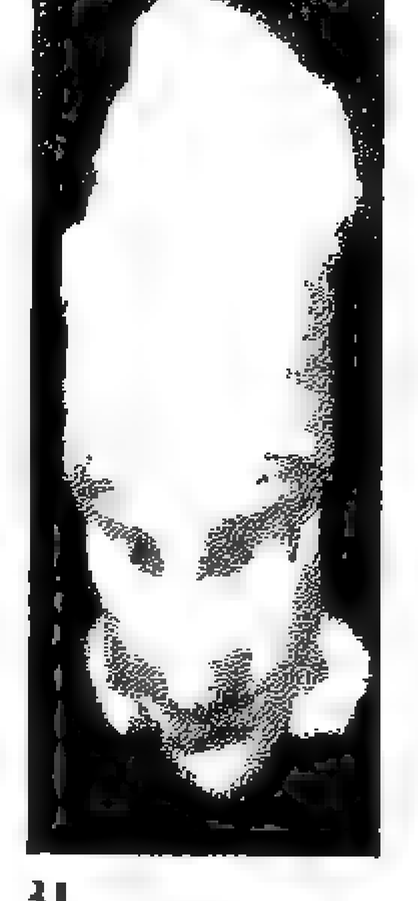
32. عروس من المغرب وعلى راسها عمامة، اويجين ديك كرويس.



29



30



31



32

33. ملتحٍ بغطاء راس شرقي (وسط امريكة).

34. راس صغير لملتح اوروبيد (تالاباكويا/مكسيكو).

35. ملتحٍ اوروبيد (بعمامة شرقية تلاتيكلو/مكسيك.

36. رأس تيراكوتا (ملتحٍ اوروبيد فيراكروز.



33



34



35 36



37. رأس صغير لأوروبيد ذي لحية (هواستيكا/ المكسيك).

38. ملتحٍ (اوروبيد) الرأس جزءً من وعاء بخور (غواتيمالا).



37



38

39. راس تيراكوتا (اوروبيد) بلحية (كويريرو المكسيك).

40. وعاء فخاري على شكل مجسم له ملامح اوروبيد (او اكساكا المكسيك).

41. راس تيراكوتا صغير بانف كبير (وسط امريكة).

42. شكلان فخاريان لهما انفان كبيران ويتحدثان (جاليسكو ـ المكسيك).

43. راس تيراكوتا صغير بانف كبير (شياباس ـ المكسيك).





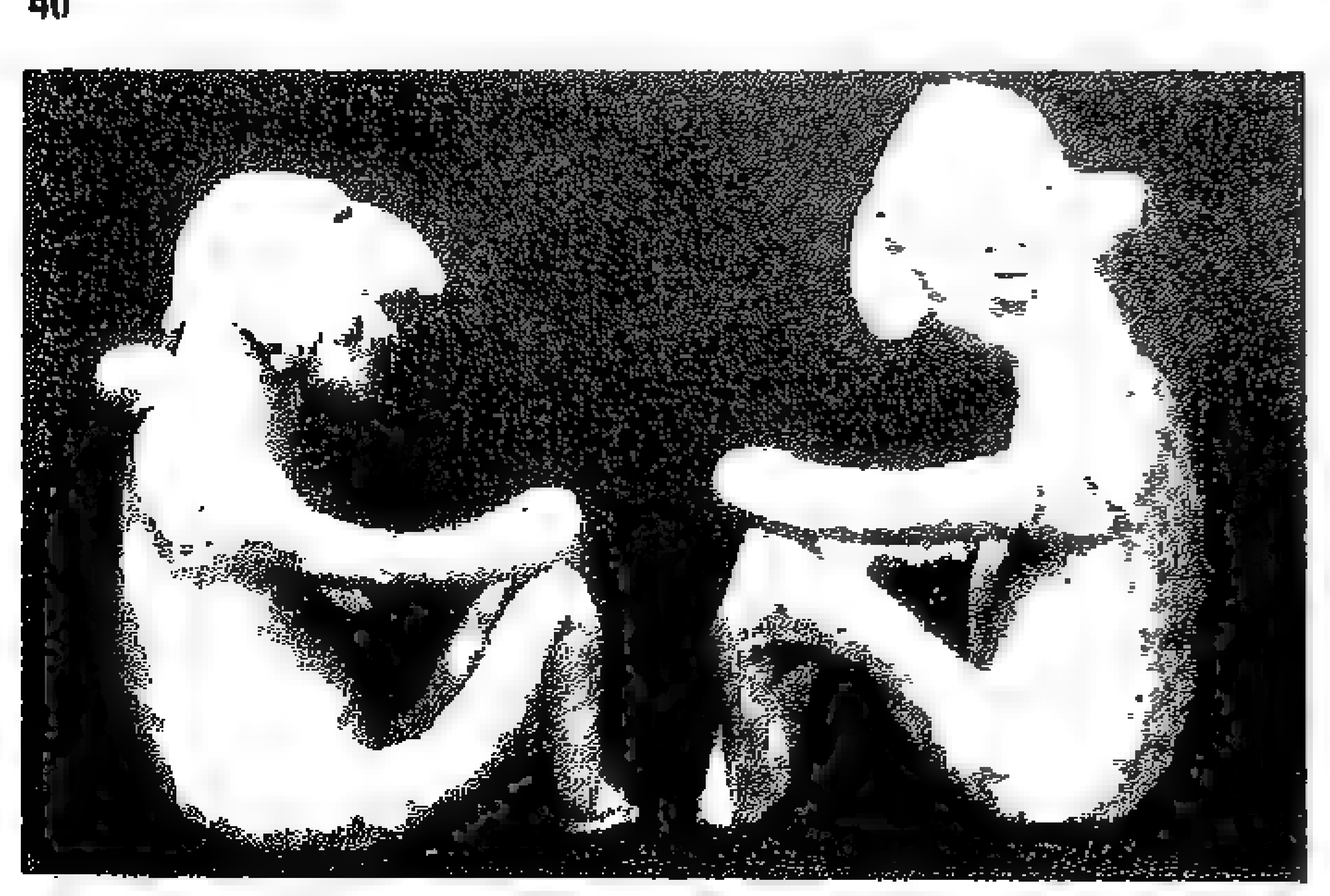
39



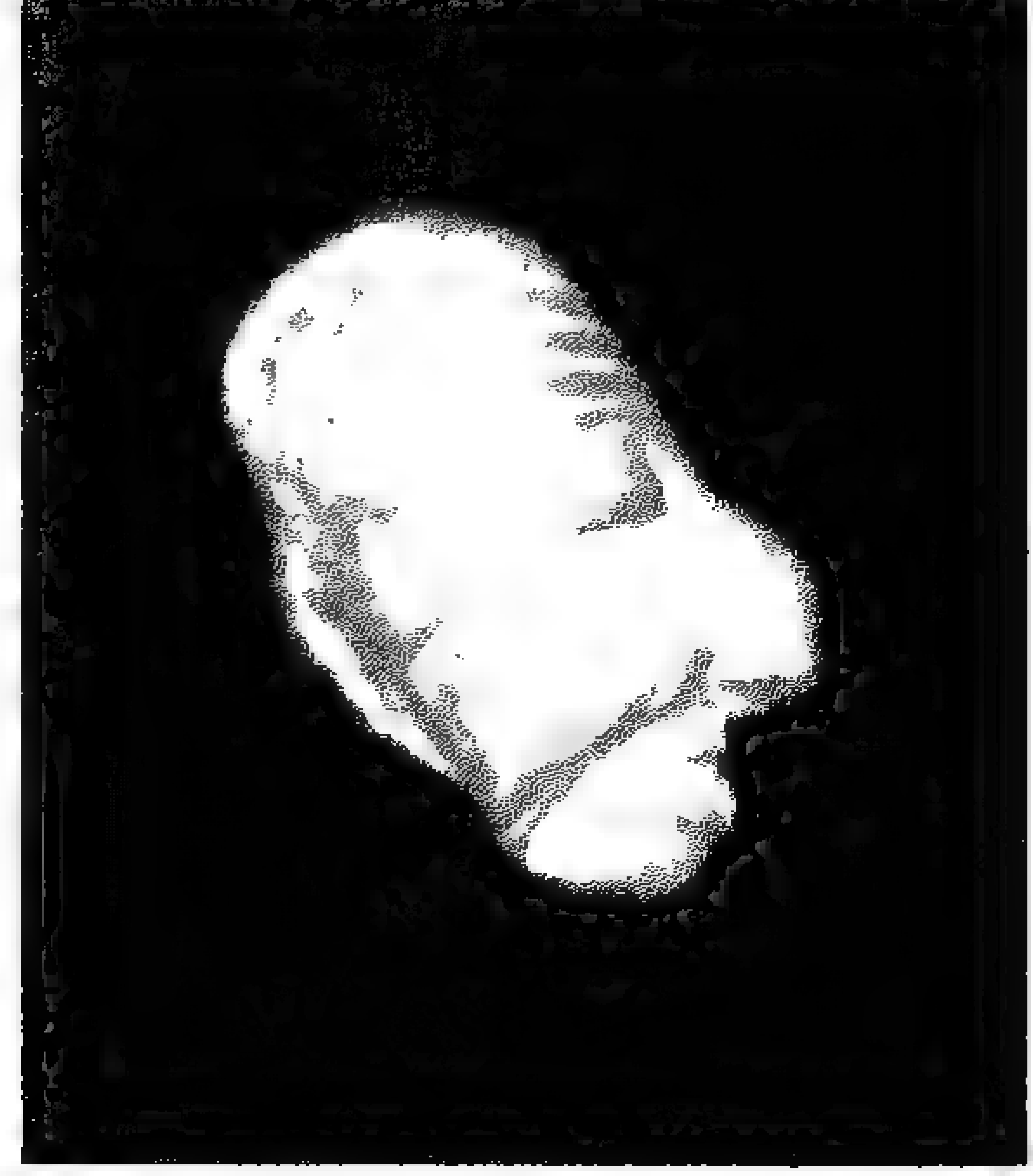


40

41



42



43



44



45

44. راس حجري ص
بانف كبير (كاريكـ
كويرور ـ المكسيك

45. راس صغير لما
انف كبير (كاريك
(تلاتيلكو/المكسيك

46. راس حجري ص
له سمات غير موند
(تايجين ـ المكسيك

47. رأس به أنف كـ
(اوروبيد) وعاء بـ
(كوليما/المكسيك).

48. اوروبيد ـ ملتـ
طاقية مدببة: وعاء
(شياباس/المكسيك)

49. وعاء بخور ـ
متعدد (انموذج اورو
«غواتيمالا».



46



47



48



55. انموذج اوروبيد.

56. راس تيراكوتا لملتحٍ (اوروبيد) ــ (فيراكروز).

57. راس تيراكوتا (انموذج ــ اوروبيد) ــ (فيراكروز).

58. شكل فخاري لملتحٍ (ناياريتي ــ المكسيك).

59. قطعة حجرية وعليها ملتحي أوروبيد (فيراكروز).

60. راس تيراكوتا انموذج أوروبيد (فيراكروز).



55

56



57

58



59



60

61. انـمـوذج اوروبـيـد (بيرو).

62. انـمـوذج اوروبـيـد جاليسكو (مكسيك).

63. انـمـوذج اوروبـيـد طاقيته مدببة (وسط امريكة).

64. انـمـوذج اوروبـيـد بطاقية وحبل (فيراكروز).

61

62

63

64

65

66

65. راس تيراكوتا وعليه شريط على جبهته (فيراكروز).

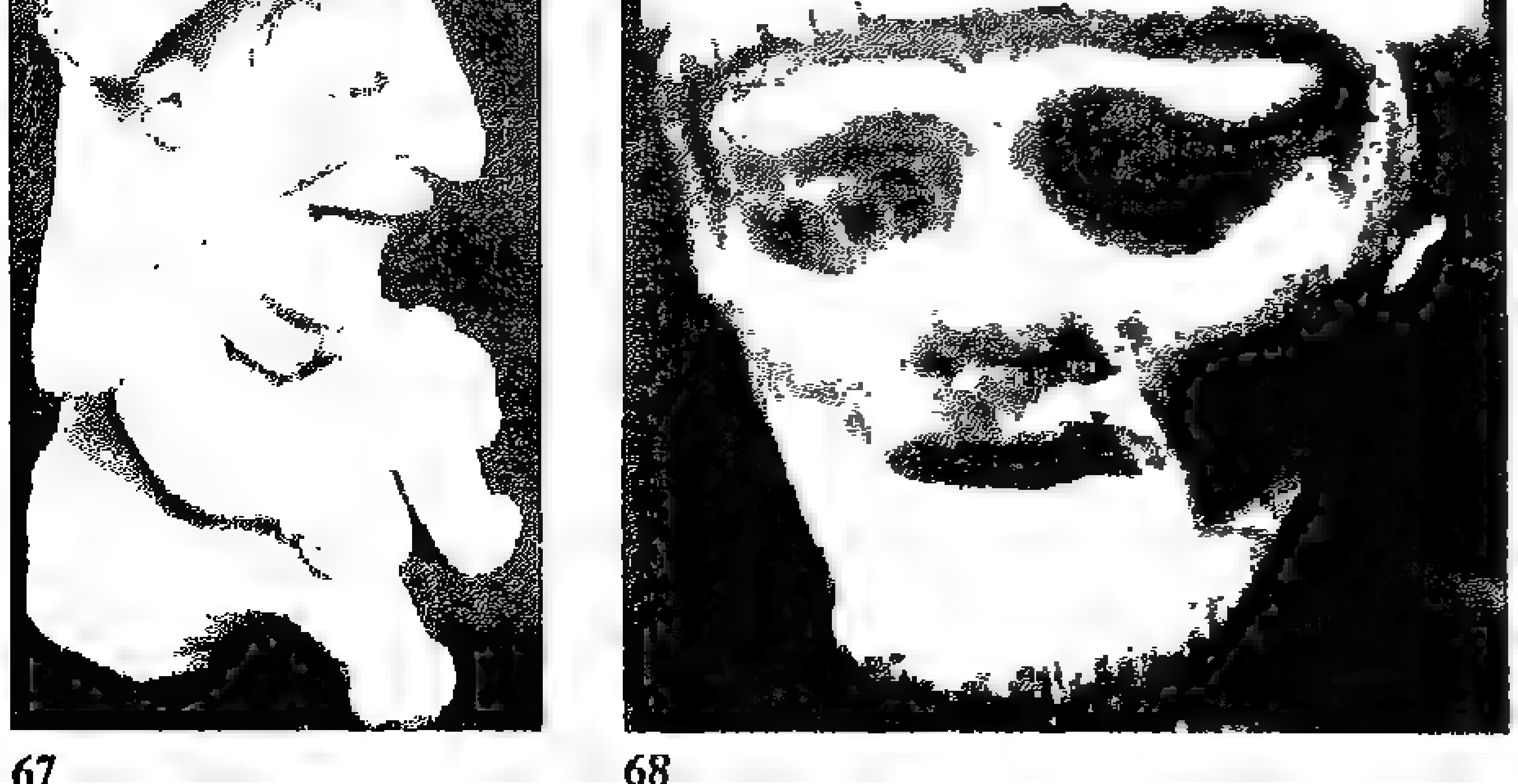
66. راس تيراكوتا (اوروبيد) وعليه قبعة ضيقة (فيراكروز).

67. راس تيراكوتا له انف كبير وغطاء راس نضفاض (فيراكروز).

68. راس تيراكوتا أوروبيد ملتحٍ وحلاقة مدورة (وسط أمريكة).



67



68



69



70



71



72



73

69 و 70 راس حجر الميك له وجهان (أنموذج أورويد) وله لحية و(أنموذج مونغوليد) دون لحية

71 راس الميك له ثلاثة وجوه (أحدها له شعر أجعد).

72 راس بوجهين (غرب إفريقية).

73 شكل تيراكوتا وعليه قناع (ميراكرور)

يوصلهم إلى الهدف فحسب بل ألهب خيال الأجيال اللاحقة وغدا منطلقاً لرحلات الاستكشاف التي جاءت لاحقاً وبالتالي أدَّت إلى غزو العالم الجديد الذي اكتسب نبضات حاسمة من جراء وصول أغراب إليه. وليس مبرراً أن يكتفي المرء بالإشادة بكولومبوس ويطمس بذلك ذكر المفكِّرين والرواد الأوائل لرحلات الاستكشاف الحديثة في الغرب.

وسنستعرض في الفصول التالية كل جزيئات موزاييك الثقافة الأمريكية القديمة التي توضح آثار الزوار من العالم القديم. ومن المؤسف أن لا نستطيع البحث عن الآثار بالاعتماد على وثائق أمريكية قديمة، لأن البعثات التبشيرية المتحمسة جداً قامت بحرقها في القرن السادس عشر على أنها من أعمال الشيطان و«شواهد وثنية»[96]. وفي نهاية الأمر لا يمكن الاستغناء عن الموروثات الكتابية في البحث عن المخلفات، لأن غرباء العالم القديم تركوا آثارهم تقريباً في كل مجالات الحياة الأمريكية التي انطبعت بطابعهم أو تحدَّدت منهم بشكل كاف.

ولقد حان الوقت لكي تحتل هذه الحقيقة المكان المناسب في كتب التاريخ بمناسبة احتفال الخمسمائة عام تكريماً للبحَّار الكبير كولومبوس.

3 ـ الفسيولوجيا والفسيوغنوميا*

سيجري تسليط الضوء في هذا الفصل على العالم الجديد لإعطاء إشارة البدء بالبحث عن الآثار والمخلفات. ومن الآن فصاعداً سيكون محور الحديث السؤال التالي: ما الذي يمكن تبيانه من تواز أو تطابق بين ثقافات العالم القديم والجديد؟

لقد بات جلياً من الشروحات السابقة حول التيَّارات البحرية والرياح في الأطلسي أن بحَّارة العالم القديم قد وصلوا على الأرجح إلى اليابسة الأمريكية في نطاق ساحل الخليج المكسيكي. ويمكن التكهن بأنه في هذه البقعة حصل اللقاء التاريخي الأول بين العالَم القديم و العالَم الجديد. إن مفهوم «العالم الجديد» هنا لا يؤخذ بمعناه الحرفي والتاريخي. «فالجديد يمكن أن يكون أمريكة في عصر ما قبل التاريخ، حين بدأ المهاجرون الآسيويون القادمون عبر ممر بيرنغ، بإعمار القارة الأمريكية تدريجياً. وعلى أية حال فلقد كانت أمريكة في أوقات كولومبوس بمعنى «الجديد» كفيلم تعرض

(*) الفسيولوجيا: علم وظائف الأعضاء. الفسيوغنوميا: علم ملامح الوجه.

نسخته الأولى مع استثناء المشاهدين من العرض. إن أول من استخدم تعبير «العالم الجديد» كان بيتر ماريتر الذي كان وصف كولومبوس عام 1493، في رسالة موجَّهة إلى الكاردينال سوفراتس كمراسل للجريدة ايللي توفي أوربس»[97].

كيف كان يتصوَّر المرء المقابلة التاريخية الأولى بين الشرق والغرب؟ وكيف استقبل المستوطنون الأصليون القادمين الجدد؟ وإلى أي مجموعة عرقية كانوا ينتمون؟ وعلى أية درجة ثقافة كانوا يقفون في الألف الثانية قبل الميلاد؟ ومن أين جاؤوا؟ لكل من هذه الأسئلة أهمية في البحث الناجح عن الآثار. ولكي يمكن التقويم فيما إذا كان القادمون الجدد من العالم القديم قد خلَّفوا آثاراً في ثقافة الهنود الحمر فعلى المرء أن يتعرَّف أولاً على الثقافة الأمريكية القديمة وعلى حاملي هذه الثقافة وهم السكان الأوائل لأمريكة القديمة وأن يعترف بها عياناً. فلنبدأ إذن بعلم وظائف الأعضاء وعلم ملامح الوجه[98] لسكان وسط أمريكة الأقدمين من الهنود الحمر الذين يختلفون بوضوح عن بحَّارة العالم القديم من عرق الأوروبيد. وتوجد المعطيات التالية في الدراسات العلمية عن الألميك والمايا بخصوص وظائف أعضائهم وملامح وجوههم[99].

يعتبر «هنود أمريكة الوسطى الحمر «جزءاً من العرق المنغوليد كما هو حال قسم كبير من الآسيويين. ويمكن تعداد مجموعة من الملامح المميَّزة لهذا العرق الواسع الانتشار

ومنها[99]: الشعر الأسود الأملس، والأنف المسطَّح ذو التكوين الناعم، والجلد الفاتح إلى البني الغامق، وتكوين جسم ممتلىء، والوجه العريض أو بالأحرى جمجمة عريضة جداً. وحتى بالنسبة لمعايير الجبهة المنغولودية تعتبر جمجمة الهنود الحمر الأمريكيين عريضة للغاية. وبكلمات أدق: فإن للهنود الحمر لأمريكة الوسطى من المايا أعرض جمجمة في العالم[100]. ويبلغ مقياس الجمجمة الذي يتم عادة بحساب العلاقة بين عرض الجمجمة وطولها، أكثر من 85، وبهذا هي أعرض من كل ذوي الجماجم العريضة. وبالمقارنة مع الأوروبيين فإن مقاييس جمجمتهم تبلغ أقل من 77 وسطياً. علاقة أخرى هي العيون اللوزية التي يميِّز شكلها ثنية في الجفن. وللهنود الحمر في وسط وجنوب أمريكة هذه العيون اللوزية أيضاً، لكن ليس بالشكل البارز كما هو حال أولاد عمومتهم الآسيويين. ثمة دليل أساسي وقاطع لما نحن بصدد إثباته وهو أن الهنود الحمر المونغوليد تغلب عليهم وبنسبة مرتفعة تصل إلى 97 ٪ الزمرة الدموية من نوع أو[101] (زيرو). وتعد تبعية الزمرة الدموية علاقة وراثية لكل إنسان لا تتبدَّل خلال حياته على الإطلاق. ويتحدَّث العلماء عن نظام أ ـ ب ـ التي تندرج ضمنها المجموعات الرئيسية أ ـ أب ـ ب ـ و. وعلى سبيل المثال فإن 40٪ من الأوروبيين هم من زمرة الدم أو 13 ٪ من الدم (و). ويتميَّز الأتراك والعرب بنسب مرتفعة

من زمرة الدم ب أكثر من زمرة الدم أ. وهناك نسبة مرتفعة من زمرة الدم ب أكثر من زمرة الدم أ. وهناك نسبة مرتفعة من الناس في مختلف بقاع الأرض من حملة زمرة الدم (O) إلاَّ أنه لا توجد نسبة في أي منها تبلغ 97 ٪ على وجه التقريب.

ويظهر جدول توزيع زمر الدم لدى مختلف الأجناس، أن الهنود الحمر يبدون في الحد الأعلى من المتجانسين. وإلى جانبهم بنسبة تصل إلى 92 ٪ من زمرة الدم (O). هناك البولانيز وثيقي الصلة بالهنود الحمر، وهؤلاء من العرق المونغوليد ـ ليس كما تبينه تبعية زمرة دمهم فحسب ـ بل من الناحية الجسمانية.

ثمة صفة خاصة لزمر الدم ينبغي التنويه عنها لما لها من أهمية بالغة الأثر على برهاننا: فزمرة الدم (O) كامنة، على عكس زمر الدم أ وب المسيطرة، أي أنه في حال تمازج بين زمرة الدم عملياً لدى التناسل تكون الزمرة أ وكذلك ب ذات مكونات أقوى ـ على العكس من زمرة الدم (O) التراجعية[102].

من هذه الحقيقة التي توضح أن الهنود الحمر في أمريكة الوسطى كانوا من حملة زمرة الدم (O) التراجعية، يمكن الاستنتاج أنهم لم يتمازجوا مع المجموعات العرقية على الإطلاق تقريباً. فهم يمثّلون مجموعة متجانسة جسمانياً لم يكن لها مع شعوب غير مونغوليد أي اتصال تقريباً ولم تأخذ

عنها غيرها زمرها الدموية أ ـ ب، ولا بد من التركيز على كلمة تقريباً ـ على كل حال هناك 3 ٪ من المجموعة المتجانسة من الهنود الحمر تنحدر من أعراق أجنبية، كما سيتوضح ذلك فيما بعد.

وإذا ما جرى التأكيد هنا على أن الأغراب قد وصلوا إلى أرض أمريكة الوسطى قبل عصر كولومبوس فإن هذا لا يعني أن هؤلاء الأغراب قد أثَّروا تأثيراً دخيلاً بالغاً على منطقة الخليج المكسيكية. كلا، ولم تكن هذه المجموعة الصغيرة من البحَّارة الغرباء القادمين من الشرق أكثر من قطرة (دواء) في كأس ماء، قياساً إلى مجموع سكان أمريكة القديمة في هذه المنطقة.

كيف كان الوضع في أمريكة عندما تلاقى الناس في الألف الأولى قبل الميلاد، ومن عالمين مختلفين، مع بعضهم في خليج المكسيك وكيف كان الوضع السياسي؟ وما هو الدور الذي لعبه الأغراب بين مجموعة السكان المونغوليد؟ وما هي الآثار التي خلَّفوها وراءهم؟

من البساطة الإجابة عن هذه الأسئلة إذا كانت المسألة تتعلَّق بصورة الناس الظاهرة، إذ أن ذلك يرد في العديد من العروض والشروحات. بيد أن الصورة المدركة والمرئية فقط لا تعتبر مفتاحاً لفهم الخلفيات والحقائق التاريخية التي هي الأساس في هذا الفصل. ويبدو أنه لا مناص من جولة سريعة في التاريخ

الأمريكي القديم على الرغم من كون هذا التاريخ ما يزال ناقصاً إلى اليوم ولا يمكن استعادة بنائه إلاً بصورة غامضة مما يحمل على طرح الفرضيات في بعض الأحيان.

ومما يذهل كثيراً من القراء كيف تطوَّرت الأحداث بتزامن على جانبي الأطلسي. والمفاجىء هو توافق التواريخ التي حسبها المؤرِّخون وعلماء الآثار بالنسبة للحضارة الفينيقية من طرف وبداية الحضارة الأمريكية في الطرف الثاني للأطلسي. وباستخدام طريقة الفحم المشع(103) كان بالإمكان ربط الآثار الأولى من الحضارة الألميكية الراقية بالعام 1200 ق.م. وفي نفس هذا العام كان الفينيقيون منتشرين في كثير من الشواطىء الأجنبية في البحر المتوسط والأطلسي.

ولا بد من الإشارة إلى أن الفينيقيين أسَّسوا حوالى 1200 ق.م.(104) قادش كمدينة مستعمرة على ساحل الأطلسي. كما ويجدر التنويه إلى مدينة طرطيسوس على ساحل الأطلسي الإسباني، حيث أن هذه المدينة التجارية كانت تقيم علاقة وثيقة مع مدينة صور الفينيقية، وكانت ميناء انطلاق مناسب لعبور الأطلسي، باتجاه منطقة الخليج (منطقة الألميك). ولم يكن من الممكن أن يختار المرء نقطة انطلاق أفضل منها.

كان اهتمام التجار الفينيقيين منصباً على إيجاد أماكن تجارية مربحة وأسواق تصريف وتجارة المواد الخام. ولا بد أن أمريكة الوسطى كانت تبدو بالنسبة لهم هدفاً واعداً ومجزياً،

وذلك لمبادلة الأحجار الثمينة والأخشاب والحيوانات الغريبة أو ريشها وجلودها وفرائها مع الهنود الحمر مقابل «زخارف أهل التعب والضنك» ـ كما أطلق هومير على الفينيقيين وعلى مواد مبادلاتهم[105].

ومهما يمكن للمرء أن يقول عن ممارساتهم التجارية فإن الفينيقيين عرفوا كيف يثبتوا وجودهم في مجالاتهم ويقدروا على تنظيمها. ويمكن، بناء على هذا القول أنهم لم يكونوا يعرفون «الجزر النائية» بشكل عشوائي بل كانوا زوّاراً دائمين فيها، ولم يكونوا على عجلة من أمرهم لرحلة العودة المحفوفة بالمخاطر. وهذا ما يتلاءم حقاً مع تكتيك الفينيقيين المهرة، عندما كانوا يؤسّسون نقطة ارتكاز، لكي يكسبوا مجموعة من الناس يمنحونهم ثقتهم في هذا الموقع التجاري الباهظ الثمن.

انطلاقاً من هذه المقدمة تتطوّر، وبشكل منطقي، المراحل اللاحقة للاتصالات بين العالم القديم والعالم الجديد وحسب النموذج الفينيقي المجرَّب: كانت الطليعة من العالم القديم في بداية الأمر قليلة العدد وطبقاً لذلك كان تأثيرها على الهنود الأمريكيين غير ذي بال. وكان التفوُّق العددي للسكان الأصليين في البداية سبباً في اتباع الأغراب سياسة التحفظ والتكتيك المدروس. واتسم الفينيقيون في التعامل مع الشركاء التجاريين الذين لا يعرفون لغتهم ولا عادات حياتهم، بالخبرة والنجاح كما تؤكِّد الأعمال التجارية المنتعشة مع شركاء

تجاريين أفارقة وأوروبيين. ولم تكن الجهود الأولى وبدايات الاتصال فوق الأرض الأمريكية أسهل أو أصعب من بعض الشواطىء الأجنبية الأخرى. عرف الفينيقيون كيف يسيطرون على الوضع حتى ولو تطلب التعامل مع الهنود الحمر الغرباء شيئاً من إظهار تنوّع في الأفكار والخواطر والضيان.

حتى ولو كان موقع المقابلة الأولى بين الشرق والغرب في وسط أمريكة إلاَّ أن الأغراب من العالم القديم توغلوا سابقاً أو لاحقاً إلى جنوب وشمال أمريكة كذلك. لم تكن المسافات بالنسبة لأسلافنا على أية حال عائقاً. كان من المفروض أنه كان يوجد تبادل ثقافي منظم يأخذ مجراه عبر آلاف الكيلومترات في القارة الأمريكية. ومن المفيد تقديم الدليل من ضمن أدلة كثيرة على صحة هذا التأكيد، وهو أن الأساطير في جنوب ووسط أمريكة كانت على الغالب متطابقة مع بعضها[106] ولم يعرف عن بدايات الألميك في خليج المكسيك غير القليل.

من الحقائق المؤكَّدة أو المعطيات النادرة لكن ما يعتبر بحكم المؤكد هو أن حضارة الألميك الراقية قامت حوالى 1200 ق.م، دون مقدمات أو تمهيد. ولم يعرف لحظة انبعاثها. في الوقت ذاته انطلق المشرقيون بسفنهم عبر البحار، مما يجعل التوقع أقرب إلى الجزم، بأن «أغراباً» قرَّروا مصير التطور الحضاري من خلال «استيراد حضارة» لألميك أمريكة القديمة أو من خلال المساهمة بإغنائها على أقل تقدير.

ويتضح بالمقارنة أن أسلاف الألميك كانوا يعيشون على درجة غير متقدمة من مستوى حضاري سار ببطء شديد. كما كان التغيّر في العادات التقليدية وفي إيقاع الحياة نادر الحدوث، لأنه كان ينظر إلى الانحراف عن أنماط السلوك المجرَّبة تهديداً للأمن[107]. غير أن النظام المستقر هو نظام جامد لا تنبعث منه أية ديناميكية بأي شكل من الأشكال.

وتتناوب المراحل الديناميكية والجامدة مع بعضها البعض في كل الحضارات وفي كل الأزمنة. وغالباً ما يمكن أن يبرز في موضع الالتقاء بين مرحلة جامدة وأخرى ديناميكية حدث يرتبط مباشرة أو غير مباشرة بهذا التحوُّل. ومن الجائز اعتبار وصول الأغراب إلى أمريكة القديمة مثل هذا الحدث.

إلى أية نتيجة أدَّت المقابلة بين شعبين وحضارتين مختلفتين؟ ويبدو أن العنصر الغريب سيطر في مرحلة البداية بشكل جلي على التطوُّر الحضاري في أمريكة الوسطى. ووجد السكان الأصليون أنفسهم تجاه عدد قليل من أغراب متفوقين حضارياً فأعجبوا بمستواهم العلمي والراقي إعجاباً كبيراً. أدهشهم معرفة الأغراب بعلم الفلك الذي عرفوا من خلاله حساب الظواهر السماوية وفرضياتها.

كما كان إتقان الكتابة ورقة رابحة إضافية في يد الأغراب عرفوا بالتأكيد كيف يلعبون بها. لقد مكَّنت الكتابة الفينيقيين من الإحاطة بتنظيم وإدارة دقيقين. وبهذا تمكَّنوا من السيطرة

على الأرض الأمريكية القديمة وعلى ساكنيها. ومع ذلك كان دور الأغراب القليلي العدد أقرب إلى دور القدوة منه إلى دور «مجلس إدارة».

ثمة تأكيد من كافة مؤرِّخي العصر القديم تقريباً، على أن الفينيقيين لم يظهروا شخصيتهم الخاصة إلاَّ لماماً وكانوا بذلك في الواقع رواداً في التكيّف. وكانت مقدرتهم في الانسجام مع شعب متفوّق عددياً وفي أرض غريبة ذات فائدة لا يستهان بها في مرحلة التأقلم.

جاءت بعد مرحلة التأقلم التي مارس فيها الفينيقيون سياسة «الشخصية المتواضعة» مرحلة تدعيم العيش الثقافي والسوسيولوجي سوية بدءاً من القرن التاسع قبل الميلاد. في هذه الفترة شهدت الحضارة الألميكية عصر ازدهارها الكبير. ومن الجلي أن حضارة وفكر وعلم الفينيقيين الديناميكيين والراقين كانت بمثابة الشرارة التي فجَّرت طاقات الهنود الحمر الكامنة.

اختطَّ الفينيقيون في القرون ما قبل الميلاد مسار نجاحاتهم حتى إلى أمريكة. ولم يكن لهم منافسين في الملاحة عندئذ. وتوضح أن خططهم الطموحة أصابت نجاحاً. كانت مدينة قرطاجة التجارية، رمزاً للنجاح والديناميكية الفينيقية، وهي المدينة التي تأسَّست عام 813ق.م، على ساحل الشمال الإفريقي وما لبثت أن احتلَّت موقع الريادة بين موانىء البحر المتوسط.

كان القرن السادس قبل الميلاد فترة حرج سياسي للمدن المشرقية. صيدا وصور من ناحية، وعصر ازدهار لقرطاجة البونية من ناحية أخرى حيث طغت على تلك الفترة من التاريخ الفينيقي اضطرابات وحركات واسعة جعلتها تختلف عن القرون التي سبقتها أو تلتها. في هذا الوقت كانت تعتبر «الجزر النائية» بالنسبة للفينيقيين والبحّارة البونيين هدفاً جذاباً للغاية ـ كمكان للجوء أو لتوسيع مجزٍ لدائرة عملهم ونشاطهم.

وجرت في الوقت نفسه وبصورة معبّرة عن التغيرات في العالم الفينيقي ـ البوني، أحداث جسام في منطقة الخليج الأمريكي أيضاً. وجرى في حضارة الألميك إبان تلك الفترة تحوُّل أدّى إلى نهايتهم التدريجية والانتقال لبداية حضارة المايا[108]. وعلى الرغم من أن الاختصاصيين يؤكّدون على قرابة الألميك اللصيقة بالمايا (يوصف الألميك بأنهم الأسلاف المباشرون للمايا) إلاّ أن حضارة وسط أمريكة الراقية والفتية تظهر اختلافات جمّة وتشابهاً مع الحضارة الألميكية الأم. وثمة دفعة تطور طرأت في نفس الفترة التي يفترض أن تكون قد شهدت سيلاً قوياً من زيارات بحّارة العالم القديم إلى أمريكة.

وضع المايا معايير كانت تقاس بها حضارات المكسيك اللاحقة. وأعدت دراسات متنوعة عنها طبقاً لذلك. وسوف يجري إكمال هذه الدراسات بتحليل جديد وعميق لمظاهر صورة ملامح الوجه من الشواهد المقدمة للمايا وأسلافهم

الألميك، لأنه يمكن توقع إيضاح في هذا المجال عن العنصر الغريب في مملكة الهنود الحمر، التي يمكن استقراؤها من خلال ملامح الوجه بشكل ملموس. الفكرة هي كون الهنود الحمر مُرْداً. وعلاقة العرق الرئيسي المنغوليد تتجلّى في نمو شعر ذقن ضعيف أو حتى غير موجود. وهذه مساعدة مرغوب بها في البحث عن الآثار في العروض الأمريكية القديمة. وحين يعرض في حضارة المايا والألميك دائماً ملتحون، يعرف المرء أن هؤلاء المبينون ليسوا أشخاصاً من عرق الهنود الحمر المونغوليد. فلا بد أن يكون أصحاب اللحى هؤلاء أغراباً، حيث تتكرَّر رؤيتهم من المراقب النبيه. ولكن على الغالب في تقديم الأشراف وأصحاب السلطة. بينما يميز الهندي الأحمر البسيط عادة كونه بدون لحية.

ثمة ملاحظة أخرى تحظى بأهمية خاصة. فملامح وجه ذوي اللحى من الأمريكيين القدامى هم على الغالب من عرق الأوروبيد. ويظهروا طبقاً لذلك أنفاً دقيقاً ووجهاً ضيِّقاً وجمجمة عالية وشفتين أقل رقة من صنف الهندي الأحمر. وإلى الصنف الأوروبيد الذي لا يشمل فقط الأوروبيدون بالمعنى الضيِّق بل كل الشرقيين المتوسطين، فإن المرء يلاحظ في عالم الصور الأمريكي القديم أحياناً صنف النيغريد والملتحين من هذا الصنف. إذاً، كان ضمن شعب المايا مجموعات متباينة تختلف بوضوح عن بعضها البعض في

فسيولوجيتها وملامح وجهها. وتعتبر المزهرية الأسطوانية الشكل من عصر المايا التقليدي التي عثر عليها في كيمييش والتي هي جزء مجموعة تيلفيزا في المكسيك مثلاً لوجود الأجناس الثلاثة في منطقة المايا. وتبيِّن المزهرية ممثلي الأجناس الثلاثة في «مشهد البلاط» وهم يمارسون التجارة فيما بينهم.

إن تفسير الحدث ضمن العرض المتواصل الذي يبرهن عن نفسه على جسم المزهرية في شكل صورة من مجموعة مشاهد تشكِّل عرضاً هزلياً لا يمكن فهمه في تفصيلاته[109]. لكن الواضح تماماً، أن الأول مونغوليدي أسمر له بنية مكتنزة قليلاً، وجسم ممتلىء، وملامح مونغوليدية واضحة والثاني نغريدي أسود له جسم ضئيل ونحيف ورجلان طويلتان بوضوح وظهر أجوف، وملامح وجه تميزها الشفتان العريضتان، وانحناءة عميقة فوق قاعدة الأنف، وفكَّان بارزان وأنف أفطس. والثالث أوروبيد أبيض ذو بنية نحيفة، وجمجمة ضيِّقة وأنف طويل ومعقوف.

وجود الأشكال متعدِّدة الألوان وبالتالي ألوان الجلد المختلفة تجعل من الصعب على المتشكِّكين الدفاع عن شكِّهم بإقناع في وجود الأجناس الثلاثة في منطقة المايا. ولقد استطاع فنانو المايا، وبكثير من الصدق والوضوح، أن يعكسوا الصفات الخاصة بالمونغوليد والنغريد والإوروبيد، مما أزال

الشك عن وجود زائرين قدماء إلى أمريكة وفي فترة ما قبل كولومبوس.

وليس عالم الصور هو الوحيد الذي يمكن استنطاقه عن المركز الخاص للأوروبيد الأغراب وموضع سلطتهم بل يمكن الرجوع في ذلك إلى الأدب الأمريكي القديم والأساطير الأمريكية، حيث ما زال عند وصول الغازي، وهو رجل أبيض ذو لحية، جاء من الشرق عبر البحار إلى الهنود الحمر وجلب معه العلم والطب والفلك، الشخصية المركزية في هذه الأساطير[110].

أصبح هذا الملتحي الأبيض نقطة تبلور للأنشطة الدينية والثقافية لمختلف الحضارات الأمريكية القديمة التي قدّسته بأسماء شتى منها كويتسالكوتل، وفيراكوشا، وكوكولكان، وبوشيكا وغيرها[111]. وفي أغلب العروض التي تظهر هذا الإله يوجد تأكيد محسوس لوصفه الأدبي: إنه أوروبيدي ذو لحية.

ثمة ذكر لظاهرة اللحى في بلد المرد من قبل علماء الأمريكيات. لكنها لم تلق الشرح الوافي إلى الآن. ولا يعتبر تقديم الرجل ذي اللحية «كمثال للجمال» واللحية «كرمز للمرتبة» حلاً مقنعاً: من أين يا ترى توصَّل الهندي الأحمر إلى تصوُّر الملتحي ذي الوقار والهيبة؟ ولماذا تعرض اللحى غالباً على وجوه المونغوليد؟ وكيف يفسر أن أصحاب الهيبة والوقار

أنفسهم هم الذين كانوا ملتحين؟ ومن غير الممكن أن يكون مجرد التخيُّل هو الذي قاد إلى هذا الأبيض الملتحي الوقور! ولا مناص من الاعتقاد أن الهنود الحمر قابلوا أصحاب اللحى رؤية العين، وبطريقة تبادل مباشرة. وعندما يكون الملتحون فعلاً رجالاً أشداء، يمكن أن تكون لحيتهم صفة «لرمز مرتبي» للطبقة الحاكمة. وبما أنهم لم يعرفوا أنفسهم لحى، فلا بد أن يكون أولئك أغراباً، استطاعوا أن يصلوا إلى موقع السيادة، وعرفوا كيف يحافظوا عليه.

لا تتوفَّر إلى الآن تقارير تاريخية مهمة من أمريكة الوسطى تؤكِّد هذا النوع من العرض الصوري. فالأسقف دييغو دي لاندا أمر في عام 1560، بحرق «النصوص الإلحادية» للمايا. ولم تدوّن التقارير (المنقولة شفوياً) ذات المضمون التاريخي والشعائري والكهنوتي ولحدٍّ ما إلاَّ بعد الغزو «كونكويزتا». أكان ذلك من قبل الهنود الحمر أم من قبل الإسبان الذين اعتمدوا كلية على روايات الهنود الحمر بشكل أو بآخر. جمعت كل هذه التقارير التاريخية، التي تشكِّل أهم مصدر معلومات عن حضارات الهنود الحمر، في «دليل الهنود الحمر في أمريكة الوسطى»[112].

ثم إن شواهد القبور العديدة التي تحمل كتابات المايا يمكن أن تقدّم في يوم من الأيام دلائل عن تاريخ وثقافة وعن البنى

الاجتماعية لمجتمع المايا القديم. فكتابات المايا ما تزال لدرجة كبيرة لغزاً بالنسبة لنا.

في هذا المجال يذكر فولفجانغ كوجل، الذي أصدر عام 1988، بحثاً قيّماً ورصيناً عن «إمكانية حل رموز كتابة المايا» أن كلمة «كليفي» أي رأس به لحية تعني «حاكم». وهنا يتوضح لغوياً أن الملتحين ذوي الملامح الأوروبيدية كانوا آنذاك حكاماً في مملكة الهنود الحمر[113].

ومن الجدير بالذكر هنا تقديم تحليل تفصيلي لصور الحكام العظام لممالك المايا. ولا يتعلّق الموضوع في هذا الفصل مجرَّد تقديم شبيه مثالي، بل صورة واقعية عن ملامح الوجه، لأنه فقط من خلال الصورة النابضة بالحياة يمكن استخلاص براهين على العنصر الغريب بين السكان المحليين في أمريكة القديمة.

فالأمر يتعلّق إذاً بإيجاد صورة غير مزوَّرة عن الأمريكيين في عصر ما قبل كولومبوس، تظهر ملامح وجوههم أنهم غرباء أو بالأحرى من الجنس الأوروبيدي. توجد أمثال الصور غير المزوَّرة في معرض أمريكي قديم نموذجي، وهو في الوقت ذاته أيضاً ـ ويا للازدواج ـ في منطقة البحر المتوسط. الحديث هنا عن رؤوس فخارية مقلّدة بدقة كان الإنسان في وسط أمريكة وفي الشرق الأدنى يضعها مع الأموات في قبورهم أو يقدِّمها أضحيات للقديسين: «كان الفينيقيون يقدِّمون هذه

التماثيل الصغيرة من الحجارة كقرابين لهم، وفي صيدا استخدم الطين المشوي بديلاً عن الحجارة»[114].

وكان يحافظ على هذا التقليد في جزيرة قبرص والمدن الفينيقية منذ بداية الألف الثانية قبل المسيح. وترجع أقدم رؤوس الطين النضيج (تراكوتا) إلى بداية العصر الكلاسي.

يبلغ طول هذه الرؤوس الصغيرة من ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات، بيد أنها تظهر بوضوح معالم الوجه المميَّزة. كما أن الصفات الفردية والأتنية معمولة بطريقة راقية ومتباينة.

وجد الآلاف من الرؤوس الأمريكية القديمة «تراكوتا» في القبور المكسيكية، لكنها لم تحتل في الواقع إلاَّ موقعاً ثانوياً من البحث العلمي. ولم تحظ مقولاتها التي عبَّرت عنها إلاَّ بالنذر اليسير من الاهتمام.

ويعد الكسندر فون فوتيناو[115] أول من أدرك أهمية معرض أسلاف الأمريكيين الفخاري هذا. وكان جمع حوالى 1700، رأس فخاري مما خوَّله لأن يصبح من المختصين القلائل في مجال علوم الأمريكيات. لقد رتَّب مجموعته من الرؤوس الفخارية بشكل منهجي حسب المجموعات الأتنية التي تنتج عن خصائص وسمات الوجه. وكان أول ما أدركه، أن هناك مجموعات أتنية تتميَّز بكثرة تعدادها بشكل لافت. وكان أول من لاحظ ونشر، أن المجموعات الأكثر وجوداً، تحتوي على نسبة عالية يشابهون أناساً من منطقة البحر المتوسط.

ولو افترضنا أن صورة الميت التي كانت ترافقه إلى قبره قد وصلت من منطقة البحر المتوسط إلى أمريكة القديمة فإنما يتطابق ذلك مع المنطق بأن الأغراب من الشرق هم الذين حافظوا على هذا العرف في الأرض الأمريكية. ومن هنا فإنه ليس بمستغرب أن يكون الأنموذج المتوسطي مجرد بوفرة في العروض تلك.

ولدى فوتيناو عدد كبير من «الساميين» و«الزنوج» و«الماوريين» و«المصريين». كما ويمكن التعرف على كلتيين وأوروبيين آخرين من ملامح وجوههم. ووجد أيضاً «آسيويين»، على سبيل المثال صينيين بشكل أعينهم المميَّز وضفيرة شعرهم ـ كل هؤلاء جاؤوا إلى أمريكة عبر الأطلسي. فأيهم فقط عَبَرَ الأطلسي قبل كولومبوس؟

وسنعمد فيما يلي إلى دراسة مجموعة من صور لرؤوس ما قبل كولومبوس. ففيها أخبار وشواهد تعول المؤلِّفة كثيراً على مصداقيتها. يعرض بداية، وكنقطة انطلاق، وجه مونغوليد نموذجي لهندي أحمر من أمريكة الوسطى عاش في العصر ما قبل الكلاسيكي (قبل 1500 ق.م ـ 300 ب.م) في فيراكروز. وهنا توجد مجدداً كل العلامات المذكورة لأنموذج المونغوليد: الأنف العريض الأفطس، والفم الكبير، والشفتان المرتفعتان والجمجمة العريضة بشكل واضح. وفي صورة الظهور هذه لهندي أحمر والمعروفة بواقعية تتكشف مقدرة

الفنان في العصر ما قبل الكلاسيكي وما قبل كولومبوس، على الملاحظة الدقيقة واستعادة ملامح وتعابير الوجه بإقناع. لقد نشأت أقدم عروض «للأغراب» في القرن الثاني عشر ق.م.[116] ويحمل هؤلاء الأغراب ملامح الينغريد. وأول مثال لصورنا يري رأساً «تراكوتا» فيه تنعكس الملامح المميَّزة للنيغريد بشكل لافت: الفكّان البارزان بوضوح، شفتان مرتفعتان وكبيرتان. انحناءة عميقة فوق جذر الأنف، شكل جمجمة رفيع والشعر الأجعد المميَّز، المغروز في ثقوب الجمجمة الفخارية المعدَّة لذلك. وعلى نفس المنوال من الواقعية عرض الشعر الأجعد في بينين الإفريقية[117].

وفي أحد الرؤوس الثلاثة (تراكوتا) من العصر ما قبل الكلاسيكي يعرض الشعر الإفريقي الأجعد كبقعة ملتصقة بالرأس تماماً. وهنا تظهر العلامات المعروفة للنيغريد بواقعية ـ وإن كانت معروضة بشكل فج حسب زمن نشوئها ما قبل الكلاسيكي، جرى صنعه بطريقة بدائية إلى حدٍّ ما، لكن يظهر فيه أسود ذو لحية وبشعر أجعد. وفي رأس آخر «تراكوتا» للنموذج النغريد تعطى أهمية خاصة لإبراز الشعر الأجعد: وهنا يقوم الفنان بالتركيز على الأخاديد الدقيقة المتراصة بجانب بعضها البعض، بحيث «يغتلي ارتياب المشاهد» بأنه شعر حقيقي.

ولا يترك مثال الصور الأول من الفترة الكلاسيكية أدنى شك

عن التبعية العرقية للشخص المعروض. وهنا تبرز مجدداً وبوضوح الصفات المحددة لأعراقهم. وبالإضافة لذلك استطاع الفنان أيضاً تقديم صورة فردية جداً تحمل في طياتها معاني تتخطى ما يعنيه التصوير النموذجي لمثال معين. 13

غير أنه لا يمكن إطلاق صفة الأعمال الفنية الهامة على رؤوس «التراكوتا» جميعها. وعلى سبيل المثال يوجد تمثال لا يتعدى طوله الخمسة سنتمترات منفذ بحرفية بدائية. إنما ما يهم هو معرفة أن التمثال يعرض إفريقية سوداء. 14

وعلى العكس من ذلك ثمة شكل طيني كلاسيكي متقن من تيو تيهوكان، لا يعكس ملامح الوجه فحسب بل يعرض الأقراط وقلادة الرقبة العريضة لهذه الأفريقية الأمريكية القديمة. 15

ويوجد في مُتْحف برلين الحكومي داهلم رأس «تراكوتا» يمكن من خلاله التعرف بوضوح على أنه إفريقي دون أية إضافات تزيينية. وهنا أيضاً كانت الأشعَار مغروزة أصلاً في الثقوب الصغيرة المدورة في قشرة الجمجمة. 16

ثمة معرض لمجموعة أمريكية قديمة في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في نيويورك تقدم النموذج النيغريدي من خلال الجمجمة الضيقة والبروز الواضح للفكين. 17

ويتضح من أمثلة أخرى كيف يتم التركيز على الشفتين الممتلئتين والأنف الأفطس العريض والجبهة البارزة. إلاّ أنه

في كل حالة على حدة تكون نتيجة الجهود الفنية دلالة أتنية واضحة على أن الوجه الإفريقي أسود لا يمكن إخطاؤه إطلاقاً. 18

وتبرز مجدداً الأشكال المميزة والخاصة لصورة ظهور النيغريد في الأعمال الفنية الأمريكية الأولى: وهكذا تبين بعض الرؤوس الصغيرة «تراكوتا» من الفترة الكلاسيكية وشم الجلد المستعمل جداً في إفريقية. ومع أن عادة تغطية الجلد بهذه الندوب التزيينية لا يقتصر على إفريقية فقط، فإن الوشم مقترناً مع النيغريد المميزة يبقى إضافة تلقى الترحاب وتقدم تأكيداً للفكرة المطروحة هنا على بساط البحث[118]. 20,19

كما تبين العروض المختلفة لعصر ما قبل كولومبوس الملامح النيغريدية بشفاه طبقية. وهذه الشفاه الممطوطة اصطناعياً هي تشويه تزييني يعزوه علماء الأنتروبولوجيا بكل وضوح إلى منطقة إفريقية السوداء. وأخيراً يجدر التنويه إلى مثال لأنف إفريقي عليه حلقة. فالرأس الفخاري الصغير من مجموعة فوتيناو له، إلى جانب الشعر الأجعد الواضح المعالم والشفتين الممتلئتين وبروز الفكين المميز، أنف يتدلى منه خاتم زينة. 22,21 23 24

ولا بد من التعريج على بينة أخرى عن الدقة التي عرف الفنانون قبل عصر كولومبوس من خلالها أن يفرقوا في عرضهم العلاقات الخاصة بملامح الوجه: فهناك رأسان صغيران من الفخار من نفس المجموعة يظهر كل منهما أنموذجاً لنيغريد.

25,26 لكن يتضح وبسهولة أنهما ينتميان إلى مجموعة إتنية مختلفة في إفريقية السوداء، بالنظر إلى خاصية ملامحهما المغايرة. فبينما سيبحث الأنتربولوجيون عن موطن الأسود الملتحي ذي الوجه العريض والشعر الأجعد الدقيق في شمال إفريقية، فإن الثاني ينحدر من أثيوبيا دون شك[119]. وفي هذا ممثل عن العرق الخليط الذي تظهر فيه الملامح السامية والنيغريدية: جمجمة رفيعة وعالية، وأنف ضيق ومستقيم، وشفتان فيهما القليل من الانثناء، وشعر أقل تجعيداً، كما هو حال الشعر في النموذج النيغريدي.

ويعرض نموذج النيغريد أحياناً كجزء من مادة للاستعمال، بمعنى له «وظيفة خدمية». فعلى سبيل المثال يعرض وعاء «تراكوتا» يجري صنعه كشكل عار لزنجي موشم. لا يعاد 27 تشكيل إلاّ الرأس والجزء التناسلي بشكل واقعي. كما يوجد أشكال نيغريدية أخرى تدعم بجسمها المذبح، أو أنها تستلقي على بطنها كي تكون أجسادها دعامة لغرض ما. وثمة وعاء بخور له مقبض على هيئة رأس زنجي في هذه المجموعة 28,29 أيضاً. وسيتم التحدث باستفاضة عن هذا الموضوع الهام في إطار المقارنة ما وراء الأطلسية بين «الفن» و«الحياة اليومية»[120].

من الجائز أن تكون قد أزفت اللحظة الملائمة للتعرض إلى الشواهد الأدبية الأكثر قدماً على تواجد السود في أمريكة. سبق

وأن كتب بيتر ماير بعد «اكتشاف أمريكة» في القرن الخامس عشر، عن وجود السود في العالم الجديد. وكان مربياً لأبناء إيزابيلا الكاثوليكية من بعلها الملكي فرديناند، مما سهل عليه الحصول على التقارير عن المناطق المكتشفة حديثاً في العالم الجديد. وعلى هذا المنوال استطاع ماير أن يخبر البابا بذلك، وبالتالي جرى توثيق ما نقله للبابا من ذلك الحين[121]. ومن جملة ما ذكره: «أن الأثيوبيين يستخدمون في أمريكة عبيداً».

بيد أن تقاريره لم يكن لها ذلك التأثير الكبير في روما، على غرار ما جرى للقس الدومينيكانيكي جريجوريو كارثيا الذي ظل كتابه «أصل الهنود الحمر في العالم الجديد ـ مدريد 1607» عملياً دون أدنى صدى. وكان قد تحدث عن السود في أمريكة، كونهم عبيداً للحكام[122].

سبق وأن بحثت مسألة وصول السود إلى أمريكة باقتضاب. ويكمن التفسير الأكثر وضوحاً في أن الأفارقة ـ طواعية أو قسراً ـ قد أبحروا على سفن الفينيقيين. وعلى أي حال توجد في هذا المعنى بعض الإدلاءات لمؤرخين من العصر القديم تبدو قابلة للتصديق[123].

ويجب أن يبقى السؤال قائماً فيما إذا كانوا قد أبحروا باتجاه أمريكة بسفنهم الخاصة، ثمة تقارير تتحدث عن سلطان من مالي يدعى موسى كان قد أبحر «بمائة سفينة» إلى حدود

المحيط في الغرب[124] لكن لا تتوفر أية إشارات وثيقة الصلة بذلك.

حدد مؤرخو العصر القديم المسافة بين ساحل إفريقية الغربي و«الجزر النائية» بأربعين يوماً. وليس بالضرورة أن يقبل المرء الرقم 40 حرفياً إذ أنه غالباً ما كان دلالة لمعنى غيبي. فالرقم 40 هو رقم «القدر والتحضير»[125]. حسبما تورد غيبيات الأرقام في العصر القديم. فحين أمضى موسى أربعين يوماً على جبل سيناء ومشى بشعبه أربعين عاماً في الصحراء، وعندما مكث المسيح أربعين يوماً في الصحراء، أو عندما تأمَّر علي بابا على الأربعين لصاً، فلا بد إذاً من أن يكون للعدد 40 معنى غيبياً. لكن ليس من الجائز الاستنباط من هذه الغيبية غير الدقيقة، لأن هذا سيؤدي لأن يدور التقرير في دائرة التخيل والحدس، وقد يكون في ذلك شيء من الاستعجال على الأقل. ومن ناحية ثانية أظهرت البعثات الاستكشافية التي انطلق آخرها عام 1984، أن عبور الأطلسي بالطوف، الشبيه بنماذج السفن من العصر القديم يستغرق عملياً من أربعين إلى خمسين يوماً. بهذا تكون التقارير من العصر القديم موثوقة ودقيقة[126].

إن أول من أكد بأن الأفارقة السود هم من اكتشف أمريكية، كان ليو فروبينيوس، عالم الأنتربولوجيا الضليع بمعرفة إفريقية[127]. ونظراً للأشكال الفنية الكثيرة والقديمة عن الزنوج

في الفن الأمريكي القديم فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إهمال هذه المقولة. ومن المبكر جداً استعراض دقيق لتاريخ موجات الهجرة إلى أمريكة القديمة. فما تزال أسئلة جمة عن تاريخ أمريكة القديمة دون إجابة ثم إنه يجري الآن إعادة النظر في علوم الأمريكيات من حين لآخر من جراء المعارف الجديدة، مما يجعل الحكم المطلق على الحقائق التاريخية فيه شيء من التجرؤ والمغالاة.

ولا تعتبر آثار العرق النيغريدي بطبيعة الحال الوحيدة في أرض أمريكة القديمة إلاَّ أنها الأقدم والأوفر عدداً. فهناك أشكال من (الماوريين) وجدت في الأرض الأمريكية، وهؤلاء عاشوا كشعب عربي ـ بربري في شمال غرب إفريقية، كان يتردَّد على سواحلهم البحَّارة القدامى. وكانوا قد سيطروا منذ القرن الثامن على أجزاء واسعة من إسبانية التي اعتبر شاطئها الأطلسي من خلال مدينة قادش وطرطيسوس بوابتهم القديمة إلى الغرب.

ويظهر شكل أمريكي قديم ومعبر بوضوح أحد الماورر وله غطاء رأس، لا يبدو غير هندي أحمر بل يعطي استعادة صحيحة ودقيقة لعمامة رأس ماورية، فنهايات العمامة المخروطية الشكل تلتف حول الجبين ثلاث مرات مكونة نتوءاً ملتفاً. كما أن الوجه التابع لها يبين كل السمات الماورية، 30

بالإضافة إلى الندوب التزيينية التي غالباً ما تلاحظ لدى الماوريين.

31,32 وهناك زينة الرأس لزوج من كويرو (في المكسيك) تشابه بشكل مدهش عمامة زواج يعتمرها بعض السكان في المغرب. وتعطي أقراط الآذان انطباعاً أنها من نفس الطراز. وكان الرسام ديلاكرو رسم في القرن الماضي، حيث تنامى الاهتمام في عادات الشعوب الأفريقية، عروساً من المغرب على رأسها عمامة ملتفة تتطابق تماماً مع تلك من مدينة كويرور في المكسيك. 32

ونقدم هنا نيابة عن المصريين في الأرض الأمريكية القديمة صورة تراكوتا في وضع الشاهد وقد نحتت تعابير وجهه بشكل مرهف وحساس. فاللحية الخفيفة وزينة الشعر اللافتة توضح بجلاء أن من يعرض في الشكل هو لأجنبي على الأرض الأمريكية القديمة. ثم إن الزينة التي تذكر «بالموضة المصرية» لا تصادف في صورة الهنود الحمر. 33

ثمة رأس صغير جداً (3,2 سم) فيه قوة تعبير كبيرة واضحة، يرجع إلى الفترة ما قبل الكلاسيكية. والرأس هنا ضيق، ويكاد يكون مجوف الوجنتين، مما يجعل إضافة إلى ذلك التركيز 34 على الأنف الكبير والمعقوف. وتعتبر الذقن برهاناً على المنشأ غير الهندي الأحمر لهذا الرجل الذي تم اختياره ليقدم مثالاً أولياً في مجموعة الصور العديدة من الرؤوس التي تحمل

قسمات الناس من دوائر الشعوب السامية. ومع أن هذه الشعوب في المعنى الإتني متشابهة وتمتلك كثيراً من التشابه اللغوي والتاريخي والثقافي إلاً أنه توجد فوارق مميزة في سماتها. ولن يدور الحديث هنا عن كل واحدة على حدة. لذلك سنتحدث عندئذ فقط عن المصريين والفينيقيين حين يتوضح انتماء الشعوب المختلفة من خلال صفاتها المميزة مثل موضوعات الشعائر الدينية. 35

ويعرض شكل صغير آخر من فترة ما قبل كولومبوس رجلاً له غطاء رأس مشرقي تتضح فيه العمامة الملتفة على الرغم من صغر مقاسه. وثمة حامل لطاقية ذات طرف مرتفع تقدم كذلك نموذجاً غريباً، ويؤكد هذا الانطباع اللحية المدببة والأنف المعقوف والشفتان الرقيقتان. 36 37

وسيصار هنا إلى استعراض بعض الأمثلة من المجموعة العريضة للرؤوس التي تبدو ساميّة بين المجموعات العالمية ومن المتاحف: وهي لعجوز بطاقية، ورجل ذو لحية، سامي له ذقن مدببة وأنف دقيق وجمجمة ضيقة، ومجسم آنية عليها رأس لأجنبي، وشكلان صغيران تقدم فيهما منطقة الأنف والعيون والشفاه بطريقة كاريكاتورية إلى حدٍّ ما. 39,38 40 43,41 42

عندما سبق وأن كونت الرؤوس المرسومة الفارق الواضح مع الأنموذج الهندي الأحمر، فإن هذا يسري بصفة خاصة على الرسوم الكاريكاتورية بمبالغاتها في عرض الصفات

المميزة. وعلى ما يبدو فلقد حظيت الرسوم الكاريكاتورية بشعبية كبيرة في أمريكة القديمة كما تبين لنا ذلك غزارة الأشكال الموجودة ويتطلب الرسم الكاريكاتوري من الفنان ومن المراقب على حد سواء إلماماً كبيراً بالموضوع المرسوم أو الشكل المعروض. ويجب أن يكون الشخص المرسوم ذا مكانة مرموقة، لذا لم يكن ما قدم كرسم كاريكاتوري ظاهرة جانبية أو قضية ثانوية إطلاقاً.

ويمكن الاستنتاج بأن ذلك الغريب الذي رسم كاريكاتورياً كان في دائرة اهتمام وولع المواطنين الأصليين ويشغل خيالهم ـ خيراً أو شراً ـ وأن وجود صور شوهاء غريبة مبالغ فيها عن الأنموذج السامي يدفع للاعتقاد بوجود أنموذج مغاير ورأى نفسه في موقف تحد للتعبير عن هذه الصور، أو بمعنى آخر: فإن الصور الكاريكاتورية تشير إلى استقطاب بين مجموعتين مختلفتين يطلق على إحداها «الأغراب» والثانية «الهنود الحمر». وفيما يلي نقدم مثالاً عن شكل لطيف ومحبب للرسم الكاريكاتوري:

44 رَجُلان يجلسان القرفصاء بجانب بعضهما على الأرض
45 ويبدوان غارقين في الحديث، وصورت العلامة المميزة للنموذج السامي وهي الأنف بشكل غريب، بينما رسمت التفاصيل الأخرى بشكل مجمل فقط.

وثمة رأس حجري من كويريرو يتألف فقط من أنف فائق

الأبعاد. ويسري نفس الشيء على صورة «تراكوتا» من الفترة المبكرة قبل كولومبوس وهي تقدم اللحية كعلامة تعرف إضافية على الغريب. إن العلامات المختلفة لصورة الظاهرة الخارجية تتوافق هنا ـ كما هو واقع الحال في الفن الأمريكي القديم ـ وهي ليست متناقضة أبداً: فاللحى موجودة في النماذج ذات الجمجمة الضيقة، والهندي الأحمر ذو الجمجمة العريضة لم يكن له أنف معقوف إطلاقاً. 46

47 ويجري إبراز العلامات الإتنية في منحوت حجري له صفات فنية عالية وذات قيمة لعَرْضنا، بحيث يمكن للمرء أن يتحدث هنا عن رسم كاريكاتوري لشخص سامي بوضوح تام.

48 كما تمكن أحد الفنانين القدامى من رسم صورة لرجل كبير في السن له شكل إناء بخور يمكن التكهن بأنه لشرقي وذلك بسبب هذه العلامة. ويوجد مثال مشابه في صورة رأس لجانب من إناء بخور يحتوي بالإضافة إلى السمات المميزة طاقية الكاهن المدببة والعالية. وسنتعرض في الفصل الخاص عن «العبادة وعلوم الكونيات» وبإسهاب أكثر إلى التطابق العجيب 49 بين آنية البخور في الشرق الأدنى وفي أمريكة القديمة. وهناك شكل مضحك يبعث على الدهشة في إعادة تشكيله لرجل نحيف دمج جمسه سوية مع أنفه العملاق على شاكلة قوس ضخم. وتضطرنا الثقة التي استطاع من خلالها الفنانون القدماء إدراك وفهم الأساسي والهزلي للظاهرة تقديم الاحترام لهم مع

الأخذ بعين الاعتبار زمن نشوئها (حوالى فترة ميلاد المسيح).

وإلى جانب هذه الصور المضحكة ثمة رسوم كاريكاتورية خبيثة حقاً منها شكل لرجل يجلس القرفصاء وتمثال وجه يتوجه شكل لقضيب رجل. وكانت شعوب البحر المتوسط عرفت هذا الربط الشكلي بين الرأس والقضيب كما يدل على ذلك رسم من الرباط يمكن مشابهته بالرسوم الكاريكاتورية الأمريكية القديمة.

وحتى لا ينشأ الانطباع بأن الأغراب من النموذج الشرقي هم من رسموا بطريقة كاريكاتورية فسنعرض كاريكاتيراً لنيغريد. هذا الكاريكاتير صغير الحجم لكنه يحظى بقوة تعبير هائلة قلما يمكن التفوق عليها. ففي الوقت الذي صنع فيه الرأس من الصمغ الراتنجي القاسي عملت الشفاه الكبيرة المقاس والأسنان من الذهب الخالص، لكي يتوجَّه الانتباه إلى الشيء المؤثر كما هو معمول به في الرسوم الكاريكاتورية.

إن الإطلالة على هذه الرسوم الكاريكاتورية تقود إلى نتيجة مفادها أنه يتم التعرف على العلامات الحاسمة لكل شخص بواسطة رسمها بشكل بارز ومركز. وعلى الرغم من وضوح واحتراف هذه الصور الكاريكاتورية الأمريكية القديمة فلن يتحدث عن تشابه بالمصادفة أو عن أوجه المقارنة إلاً المناوئون العنيدون لنظرية اكتشاف أمريكة قبل كولومبوس.

كانت توجد على الأرض الأمريكية صور لنماذج وأعراق

مختلفة تتناقض جذرياً مع أنموذج الهندي الأحمر المحلي. وسيطلق هنا وبكل بساطة صفة «الأوروبي» على مجموعة كبيرة إذ أن كل أنموذج على حدة من هذه المجموعات غير المتجانسة يمكن أن يكون ينحدر من أوروبة دون أدنى صعوبة. 58

59 ولن يخطر على بال أحد عندما ينظر إلى المقطع الجانبي لقطعة حجرية في أن يتعرف فيها على هندي أحمر. ويمكن أن يوصف بأنه أوروبي، ضمن ما يفهم من هذا التعريف الواسع. وليس صعباً بالتأكيد على الأوروبي تحديد العلامات المميزة للأوروبي كما هو على أولئك بالنسبة للهندي الأحمر أو للنيغريد. فالتعرف على رجل أوروبي أثناء ذلك لن يصعب على أوروبي.

58,57,56 هناك أمثلة أخرى تتحدث عن نفسها، منها رجل ذو لحية من فاراكروز الرأس، ويجلس القرفصاء ويلتف بإزار على خاصرته، والعجوز المكروب. 60

كما توجد أوروبيات جميلات بين النساء ما قبل كولومبوس. فثمة سيدة نبيلة تعتمر قبعة يتدلى منها رباط تحت الذقن وكذلك شكل نسائي لطيف آخر. كلها أمثلة من هذه المجموعة. 1،

كذلك يوجد عدد من هؤلاء الأغراب الذين يعتمرون غطاء رأسي لافت، إذا لم يكن أوروبياً بالضرورة فهو على كل الأحوال لا يبدو أمريكياً قديماً، مثلاً: القبعات التي ليس لها

63,67 شكل القدر وتلتصق بالرأس بشدة. وهناك في أحد النماذج تكون القبعة فيه مضافاً إليها شريط للذقن، وفي أخرى يظهر شريط حبلي سيتم بحثه في مكان آخر من حيث دلالته الرمزية[128]. ثمة أغراب آخرون يزينون أنفسهم بمخلوقات غير مألوفة، بيد أنها ليست غير عادية أبداً للدرجة التي يمكنها أن تحرف الانتباه عن السمات الغريبة لحامليها: وعلى أي حال فإن حامليها ليسوا هنوداً حمراً.

وإذا ما أريد اختيار صورة تدل بوضوح على الأوروبي فلا بد عندئذ من التعرف على صورة لوجه مألوف لرجل له شعر ذو حلاقة مستديرة وذقن مشذبة هي أقرب إلى شكل الرجل الأوروبي. 68

ولو تصفح المرء كل هؤلاء الأغراب لأدرك أن الأمريكيين القدامى فرقوا أنفسهم على ما يبدو بوعي عن أولئك من وراء المحيط بواسطة اختلاف الناس، حتى ولو كان عدد الأغراب زهيداً جداً بالمقارنة مع السكان الأصليين من الهنود الحمر.

ويمكن اعتبار ما يطلق عليه ترجمة يانوس ترجمة فنية وإبداعية خالصة عن المجموعات العرقية المختلفة لأمريكة القديمة، لأن الرأس بوجهيه الاثنين يتبعان لعرقين مختلفين. 69,70

إن المهم بشكل خاص لموضوع الكتاب الذي بين أيدينا هو أن الوجه الأول يحمل ملامح أوروبيدية والآخر مونغوليدية. وبالتحديد فلقد كان هذان العرقان هما اللذان وقفا وجهاً لوجه 71

في اللقاء الأول بين العالم القديم والعالم الجديد. ورأس يانوس نشأ في زمن اللقاءات الأولى بين العالم القديم والعالم الجديد. 72

ويوجد رأس صغير آخر عليه ثلاثة وجوه يتبع كل منها إلى المجموعات العرقية المختلفة. فثلث الرأس الصغير له شعر النيغريد الأجعد، بينما للوجهين الآخرين شعر أملس. وفي هذا إيضاح أصيل وغير عادي للتعايش في أمريكة القديمة! وثمة مطابقة لهذا الرأس الأمريكي القديم في الفن الإفريقي. 73 والشيء الذي يبين التناقض العرقي بصورة فنية ودقيقة المعاني وكذلك ثنائية العيش الإنساني هو مجسم فخاري يخلع فيه شكل مشوه، ذو انثناءة عميقة، قناع الوجه. والقناع وحامل القناع يبدوان بقسمات وجه مغايرة، أراد الفنان من خلالها على ما يبدو وضعهما في صورة متعاكسة.

إنه لمن المدهش التأكيد بأنه تولد عند أبناء عمومتنا البعيدين على الجهة الأخرى من الأطلسي اهتمام بالقضايا المرهفة للظروف الإنسانية وعرفوا كيف يعبِّرون وبفهم تحليلي عن قضايا عصرهم وقارتهم بصورة فنية.

عودة أُخرى إلى صورة الأوصاف والبحث عن الآثار: يمكن للمرء في هذا المجال التعمق في أغطية الرأس المختلفة، ذلك أنها تقدم في بعض الحالات إشارات واضحة أيضاً عن منشأ الأشخاص المعروضين كما هو شأن اللمسات

الخاصة لحامليها. وستعالج هذه النقطة الثرة بإسهاب في الفصل الأخير من هذا الكتاب. غير أنه سيعمد فقط إلى معالجة رأس صغير ذي طاقة إغريقية. لأن تاريخ الرأس، على الأقل في نظر المؤيدين للنظرية القائلة باكتشاف أمريكة قبل كولومبوس، سيكون بمثابة خاتمة تتويجية لفصل السمات الخاصة بالزوار الأغراب لأمريكة القديمة.

يتعلق الموضوع هنا بما يسمى رأس كاليكستلا هواكان (المكسيك) الذي أثار ضجة كبيرة عند اكتشافه في عام 1933. وهنا يتطابق غطاء الرأس للرأس الصغير (تراكوتا) في كل تفاصيله مع قلنسوة اللباد المخروطية التي كانت مألوفة في العصر القديم عند الشعب الإغريقي أو الروماني أو بالأحرى عند الذين أطلق سراحهم كعلامة على حريتهم[129].

كان التشابه واضحاً جداً بين الطاقية الأمريكية القديمة والإغريقية ـ الرومانية، جعل أشد المناوئين للنظرية مشدوهين حيال ذلك.

بعد فترة صمت في البداية انشغل المهتمون من ذوي الاختصاص بعدها في هذا الاكتشاف الأمريكي القديم وبالتفصيل. وفي البداية جرى التأكيد على أن هذه الاكتشافات الهامة وجدت في ثلاث طبقات سليمة من الحجر والتراب، وتم ذلك بمراقبة وبإشراف علمي من قبل عالم الآثار

المكسيكي كارثيا بايون. كان مكان الاكتشاف في كاليكستلا هواكا المنوه عنها، التي تبوأت مقاماً رفيعاً في دوائر الاختصاص من جراء هذا الاكتشاف. حدد المختصون الرأس كعمل روماني يعود تاريخه إلى القرن الثاني بعد الميلاد. وفي المؤتمر الأمريكي العالمي الرابع والثلاثين المنعقد في ڤيينا عام 1960، جرى التعريف بالرأس لعالم الاختصاص عن طريق النشر في مجلات متخصصة مختلفة. ومن بين الكثيرين تطرق إلى الاكتشاف كل من البروفسور إيريش بورنغر عالم الأنتروبولوجيا من جامعة ڤيينا والأستاذ هاينه جلدرن. ولاقت المحاضرات المختلفة عن الاكتشاف «الروماني» من المكسيك ما قبل العصر الكولومبي اهتماماً بالغاً[130]. في عام 1961، أي بعد ثلاثين عاماً تقريباً من رؤية الرأس الصغير نور العالم الجديد، نشر بايون أخيراً مقالاً في «مجلة المعهد الوطني للأنتبروبولوجيا والتاريخ» تطرق فيه مجدداً إلى السمات المدهشة وإلى القبعة ذات الشكل الإغريقي ـ الروماني الحقيقي. وهذا ما حفز خوزيه ألسينا فرانش لكتابة تقرير عن العلاقات بين جزر الكناري وأمريكة[131].

لكن، لماذا كل هذا التفصيل في معالجة رأس لا يتعدى كونه واحداً من كثير من الاكتشافات غريبة المظهر من العصر ما قبل الكولومبي؟ السبب يعود في ذلك إلى أمر في غاية الغرابة

عما جرى لهذا الرأس الصغير. لقد اختفى الرأس في غضون ذلك، ولا أحد يعرف، عن مكان وجوده شيئاً. لقد ضاعت آثاره.

ما الذي يمكن استنتاجه من هذه القصة؟ هناك أمر مؤكد: لم يكن من شأن الاكتشاف البارز إثارة الإعجاب لدى علماء الآثار، وعلماء الأمريكيات والمناوئين للنظرية التي نحن بصددها فحسب، بل إن نور الجمهور الساطع، الذي وقع فيه الرأس، تحول إلى برق عاصف. وفجأة اختفت في يوم من الأيام قطعة الدليل غير المستحبة. أي قَدَرٍ كان لها بالمرصاد.

ولشدة ما يؤسفني الحقيقة التي لا ينكرها المختصون، بأن أفضل البراهين عن الاكتشاف ما قبل العصر الكولومبي لأمريكة لم تناقش أو تحلل علمياً بالجدية المطلوبة. اعتبر الموضوع برمته غير جدي. ولم يحظ الاهتمام العلمي بهذه المسائل بتعاون الزملاء الاختصاصيين. وكان عليه أن يتخطى صعاباً فائقة التعقيد. كما لم تلاق المعلومات الجديدة إلاَّ صمت القبور. إن هذا التأكيد يسري بقدر خاص على المكسيك نفسها، التي ترفض بحدة التأثيرات الغريبة على الحضارة الأمريكية القديمة الخاصة بها. ولذلك فإنه من الجائز أن تختفي ببساطة قطعة دليل غير مرغوب فيها إطلاقاً.

بعد أن ألقينا الضوء على الرؤوس الصغيرة الفخارية سنوجه اهتماماً إلى الرؤوس الحجرية العملاقة من حيث سماتها. تعتبر

الرؤوس الحجرية الضخمة بالتأكيد من أشهر أوائل المكتشفات في أمريكة القديمة وأكثرها فخامةً. ففي عام 1962، اكتشف خوزيه ملغار بالقرب من فيراكروز أول أنموذج من الرؤوس العملاقة التي اكتشفت تباعاً لتبلغ أكثر من (دزينة) من مجموعات الرؤوس هذه، والتي يصل وزن أحدها إلى خمسة وستين طناً وارتفاعها إلى ثلاثة أمتار ونصف المتر. ومما يبعث على الاستغراب أن هذه الرؤوس عملت من أحجار بازلتية مفردة. لم تكن أحضرت من المقالع الصخرية القريبة من مكان وجودها. وهذا يبعث على الاعتقاد، أن الألميك جلبوا الأحجار الضخمة بالسفن عبر الأنهار العريضة المتوفرة بكثرة في تلك المنطقة الاستوائية. ويجدر التنويه هنا مجدداً إلى أن أرسطو ذكر بصراحة هذه الأنهار القابلة للملاحة في «الجزر النائية»[132].

قُدِّرت أعمار الرؤوس الألميكية بواسطة طريقة الكربون المشع[133] بثلاثة آلاف عام تقريباً. وبهذا فهي من أقدم الاكتشافات في الحضارة الأمريكية القديمة الراقية. ولم يوجد مثل هذا العمل المتكامل لحضارة أولية في الدوائر الحضارية الأخرى إطلاقاً. لقد استطاع الألميك، من خلال هذه الرؤوس العملاقة ودون مراحل تطور سابقة، التوصل لأعمال فنية رائدة استقطب إعجاب العالم.

غير أن أحداً من الرؤوس العملاقة لم يستطع تخطي الزمن

دون أن يتركَ آثاره عليه. فكلها تحمل آثار عطب سببتها يد الإنسان، أو أن نقلها من موضعها الأول جعلها تحمل آثار العطب. ولا بد أن الاستعجال قد ترك بصماته على هذا العمل العضلي الكبير. لم يكن المرء «يجازف في بذل قصارى جهده إلاً بالأمور ذات الأهمية الثقافية العالية». لكن ماذا كانت أهمية الرؤوس؟ سؤال لم يجب عنه أي من الاختصاصيين جازماً حتى الآن.

ولكي لا ننحو مسلكاً فيه شيء من الخطر، ونتوصل إلى نتائج غير صائبة عن الحقائق القليلة المثبتة حتى هذا التاريخ وعن مضامين وقدر هذه الرؤوس العملاقة، ينبغي أن يكون التحليل والتفسير منطلقين من أرضية صحيحة لا تخطئها العين. وأول ما يعترضنا في ذلك هو التعليق على الشكل غير المألوف لهذه الرؤوس. اختار الألميك عرض شكل «الرأس دون رقبة وكتفين». وكانت الأيقونات في العالم القديم تعطي دائماً موضوع الرأس المفصول عن الجسد معنى سلبياً: «يوديت ورأس هولوفرن»، «برسيوس ورأس ميدوس»، و«داوود ورأس جوليات»، «سالومي ورأس يحيى». كان الرأس بدون كتفين يحمل معاني سلبية.

يقترح فوتيناو التفسير التالي: يمكن أن تكون الرؤوس العملاقة نُصُباً تذكارية[134]، أقامها المنتصرون لأمير القبيلة التي انتصروا عليها لكي يدللوا من خلال كبير قبيلة الأعداء المهزومة

على عظمتهم أنفسهم. ويعتمد هذا التخمين على الأهمية التي تؤكدها الرؤوس الحجرية العملاقة الخمسة في تانيس عند مصب النيل. وكان رمسيس الثالث قد دعا لإقامة الرؤوس الحجرية العملاقة لكي يشير إلى انتصاره على خمسة من أمراء القبائل. ووضع الفرعون الرؤوس الضخمة بحد ذاتها على منصة حجرية كي تبدو أكثر قوة وجبروتاً. ثم عمل على إحداث ثغرة في أعلى الحائط لكي يطل على أعدائه الكبار من عل كيما «يحقرهم من خلال ذلك»[135]. ليس لهذه الرؤوس الحجرية رقبة أو أكتاف، تماماً كما في رؤوس الألميك، وبالإضافة إلى دور الأيقونات فإن تسلسل الزمن (كرونولوجيا) هام هنا أيضاً. لقد أنشئت مدينة تانيس عام 950 ق .م، في دلتا النيل الشرقية. وكان الفينيقيون آنذاك يقومون بإرسال أخشاب الأرز إلى هناك باستمرار. وفي نفس الفترة برزت أيضاً رؤوس الألميك!!

ونقر بأن طرح مثل هذا التفسير حول رؤوس الألميك بالاعتماد على التقسيم الزمني قد يبدو فيه بعض الاندفاع. غير أن التطابق الزمني والشكلي بين الرؤوس العملاقة على طرفي المحيط باد بوضوح بحيث يجعلنا مضطرين إلى التنويه عن هذه العلاقة في هذا المقام.

75,74

كل رأس من الرؤوس الألميكية الضخمة جرى تكوينه على حدة. بيد أن سماتها أنجزت على نحو متباين وواقعي. ويمكن

من جراء ذلك إلحاقها بمجموعاتها العرقية بشكل جيد جداً. ويظهر القسم الواحد من الرأس الضخم الأنموذج المونغوليدي، والآخر الأنموذج النغيريدي. ولا ريب في أن هذه السمات تعكس المظهر الحقيقي للألميك لأن المجسمات الصغيرة تؤكد أيضاً هذا الأنموذج[136]. ولرأس صغير من لافنتا عليه زينة حمراء قانية للإشارة على أنه ذو منصب رفيع، وجه عريض للغاية بشفتين عريضتين وهو الوجه النموذجي للعرق المونغوليدي: هكذا كان الناس يبدون والذين نطلق عليهم الألميك.

76

أما الأشكال الأخرى فلا يهتدي الإنسان من خلالها على الأنموذج الألميكي ثانية، لأن الجمجمة فيها ضيقة للغاية ومرتفعة. أين يكمن حل اللغز؟ كان الألميك يمارسون تقليداً جرت عليه عادة الفينيقيين وشعوب أخرى من الشرق الأدنى، ونعني به: تشويه الجمجمة[137].

كانت توضع للطفل الوليد أربطة قاسية لأسابيع عدة، وقد تحشى أحياناً بقطع خشبية، وذلك لتثبيت الرأس. وبهذا تأخذ الجمجمة، التي لا تزال طرية، الشكل المرغوب.

أورد أبقراط الطبيب المشهور في العصر القديم، في القرن الرابع قبل الميلاد، أن تشويه الجمجمة كان عادة أوجدتها ومارستها شعوب البحر الأسود[138]. وكانت هذه الشعوب قد اندفعت منذ عام 1500 ق.م، باتجاه الجنوب الغربي وأثّرت

على عادات وتقاليد الشعوب على الساحل المشرقي. وبما أن تشويه الجمجمة كان مألوفاً جداً لدى الفينيقيين، إذن يمكن الظن بأنهم أخذوا هذه العادة عن شعوب البحر الأسود. وكما يؤكد أهل الاختصاص ويتوافق، فلقد حافظ الفينيقيون على تقاليدهم وعاداتهم في السواحل الأجنبية. ولم يكن تشويه الجمجمة استثناء عن القاعدة.

يظهر أحد الأعمال الرئيسية للفن الألميكي مجموعة من التماثيل لستة عشر رجلاً في وضعية الوقوف نحتت من اليشب، المادة الثمينة في حضارة وسط أمريكة. ويوضح ترتيب الأشكال، وانتصاب الأحجار المقدسة المشرئبة أن الأمر يتعلق بمشهد مقدس وأن المشاركين فيه من ذوي المراتب الرفيعة. وكل هؤلاء «الأعيان» لهم جماجم مشوهة. كما لو أنها تدلل على رمز لمنزلة عندهم. 78,77

وينبغي التنويه مجدداً إلى دلالة التسلسل الزمني: ففي أثناء ظهور المشهد الطقوسي المقدس للأشكال الألميكية الستة عشر من ذوي المراتب الرفيعة وبجماجمهم المشوهة التي يعود تاريخها لحوالي 800 سنة ق .م، كان الفينيقيون في أوج قوتهم وحركتهم. وهنا في الشرق الأدنى كانت تنصب في الساحات المقدسة أشكال بحجم قامة الرجل لكي تزين الطقوس المقدسة. وليس من قبيل المصادفة أن يوجد محاكاة لأمثال هذه المساحة المقدسة في متحف القدس وفي المتحف

الأنتروبولوجي في المكسيك؛ فعلى الرغم من حجم المساحة المخصصة للأشكال فإن جهد القيمين يظهر في تهيئة المعروضات هذه، حيث تكمن قيمة كبيرة لهذه الغابة من النصب في كلتا الحضارتين. ومن ناحية أخرى تستكمل الجمجمة المشوهة صورة مظهر حكام المايا وكهنتهم. هذه الصورة التي يحددها عادة أنف كبير للغاية ومعقوف وجبهة عليها تحديب غريب: وغالباً عينان فيهما حَوَلٌ بارز مع وجود لحية أحياناً. وعند التدقيق في صورة مظهر المايا يتضح أن كل شيء تقريباً في هذه الصورة مصطنع. فبالإضافة إلى الجمجمة المشوهة اصطناعياً هناك الأنف المصطنع. ومن خلال أنف ملصق إضافي يكتسب أنف المايا شكله المحمر المعقوف الذي لا يمكن إخطاؤه[139].

لم يطلقوا لحاهم في الغالب، وإذا ما حصل ذلك، فإنها إما غير كثة أو مصطنعة. ومن المعروف عن المصريين أنهم كانوا يثبتون لحية مصطنعة دلالة على الوقار. وليس بالإمكان الجزم فيما إذا كانت هذه قدوة أو نمو لحية ضئيل جعلا المايا يلجأون في الغالب للحى المصطنعة. المؤكد أنهم كانوا يضعون لحى مصطنعة.

حتى الحَوَلُ المنوه عنه فيما مضى كانوا يتوصلون إليه بشكل مصطنع: كانت الأمهات يضعن أمام عيني الوليد كرة هزازة ليصلن إلى الدرجة المطلوبة من حَوَلِ العينين.

لماذا كل هذه التصحيحات المصطنعة؟ ومن هو الشخص الذي أرادوا نيل إعجابه؟ ولم أراد المرء هذا التصنع؟ إن الفكرة القائلة بأنه في كل الأزمنة كان الناس، وفي المقام الأول من الطبقة العليا، يلجأون إلى محاولة تحسين مظهرهم عن طريق الحيل الصغيرة، لكي يقتربوا من النموذج المثالي، هي حجة لا تفي بالغرض. كانت الإجراءات التي خضع لها حكام المايا ومواليدهم الجدد، جذرية للغاية ومؤلمة ومتعبة جداً، من أن يلجأ إلى تهوين هذه العمليات على أنها مجرد جنون الموضة.

وكما هو رأينا، فإن العلاقات التاريخية وتأثير الأغراب هي التي تقدم تفسيراً لهذه التصحيحات الجذرية في صورة الظهور. لقد عرف هؤلاء الأغراب انطلاقاً من تفوقهم الفكري كيف يصلون إلى موقع السيطرة بين الهنود الحمر. وكأنما تقديس «الإله الأبيض من الشرق» الذي جلب للهنود المعارف عن الفلك والرياضيات ما زال حياً لدى وصول الغزاة الإسبان. ومن الجائز النظر إلى التقديس من زاوية أخرى لها صلة بالدور الذي لعبه الأغراب القادمين من الشرق في القرن الأول قبل الميلاد. فالأبيض، والعارف والقوي أصبحت مترادفات مرتبطة مباشرة بصورة ظهور الأبيض العالمي.

كيف يمكن أن يكون سار تاريخ منطقة الخليج؟ فبعد مرحلة البداية من التساوي الاجتماعي بين الأغراب والسكان الأصليين

توزعت الأدوار في وقت ما بصورة نهائية: وشكَّل هؤلاء طبقة الحكام والآخرون الأتباع.

بيد أنه لم تحل كل المشاكل بالنسبة للمجموعة الصغيرة من المهاجرين الجدد: كانت تنقصهم النساء، لإنجاب صغار ذوي جلدة بيضاء، مشرقيين «آلهة صغاراً». وتفاقم الوضع مع كل جيل، لأن السلالة الجديدة من «الآلهة البيضاء» من المشرق لم تعد تفرق تدريجياً عن أتباعها. وبالتحديد، لأن موقع السلطة لممالك المايا انحدرت من التفوق من خلال التباين، كانت السمات الغريبة أكثر من مجرد صفة حاكم غير ذات أهمية. وكان ضرورياً معرفة الانتماء للطبقة الحاكمة من خلال المظهر الخارجي. لقد برهنت صورة ظهور الأبيض من الشرق عن نفسها، وكان لا بد لها من أن تستمر دون تغيير حيث يكون ذلك ممكناً. وعند الضرورة يمكن اللجوء للوسائل المصطنعة لتحقيق هذه الغاية. ولهذا الغرض بالذات اعتمد المرء على التصحيحات التجميلية التي أراد الكثير من ورائها في البحث عن العلاقات التي لا تتوفر في وجه الهندي الأحمر النموذجي.

لم يوجد شعب في العالم بحث رجاله عن تغيير مظهرهم الجانبي من خلال أعلى الأنف. وجدت في قبر الأهرام الشهير بالينغ نقوش عن أمثال هذه الإضافات الأنفية(140) ـ التي يمكن عند ذلك من ملاحظتها في كل أشكال أعيان المايا بوضوح كإضافة مميزة في وسط الجبهة، حيث ينتهي ظهر الأنف

المصطنع. تعمل الإضافة المصطنعة على تضخيم الأنف وعلى زيادة انحنائه. ويبدو أن حكام المايا كانوا يفتقدون غالباً للمقاس الصحيح وللمثال النموذجي لتقليد أنوفهم. لقد تحول المايا وبحرصهم الشديد على محاكاة أسلافهم الشرقيين إلى نوع من تقديس الأنوف: وطبقاً لذلك جعلت الأنوف المصطنعة كبيرة للغاية. ثم إن ظاهرة المغالاة هي في الحقيقة ملازمة لكل النسخ المقلدة من كل فن.

يتضح من متوارث المايا أن الأمهات كن ينزعن شعر ذقون أبنائهن بالملقط أو بتقليله عن طريق وضع مناشف ساخنة عليها، هذا على الرغم من ضآلة نموه بالأساس. ومما يؤكد نجاح هذا الإجراء أن نمو اللحية لديهم كان ضئيلاً جداً في الحقيقة. ولم يكن بمقدور المرء بطبيعة الحال منع لحية شرقية كثة بهذه الطريقة من العناية باللحى.

لقد تسبب الإرث المشترك للهنود الحمر، المُرْد أساساً، وللشرقيين ذوي اللحى مشاكل جاءت للأجيال التالية، عرفت أمهات المايا التعامل معها بدقة بواسطة ملاقط الشعر.

ومن الجائز هنا في هذا المجال أن يعتقد المرء، بأن اللحية الظاهرة على تلك الوجوه إنما تحمل ملامح أوروبيدية. ومن الخطأ الاعتقاد بأن «الأبيض الملتحي» لم يكن سوى صورة مجملة ومثالية للهندي الأحمر. كلا، فالأنموذج الأوروبيدي كان موجوداً فعلاً في أمريكة القديمة.

ثمة برهان قاطع على ذلك في قناع الأموات، الذي يتطابق تماماً مع شكل الميت، هكذا ينبغي أن يعتقد المرء. كان الوجه في قبر بالينغ الشهير للحاكم، وقد غطي بقناع من اليشم يظهر ملامح وجه أوروبيدية تماماً. 79

وجدت أقنعة الأموات بشكل ظاهر في أمريكة القديمة وفي فينيقية. وكان الإنسان يختار لصنعها في كلتا الحضارتين أكثر المواد قيمة. والأكثر قيمة كان بالنسبة للمايا اليشم بينما كان الذهب هو الأكثر قيمة بالنسبة للأمريكيين الجنوبيين وللعالم القديم على حد سواء. وهكذا كانت أقنعة الموتى تصنع في فينيقية وفي البيرو من الذهب. وعند المايا من اليشم. وما ذكرناه عن قناع اليشم ينطبق أيضاً على أقنعة الأموات الذهبية أي أن كل ادعاء عن وجود سمات هندية حمراء في هذه الأقنعة سيكون بحثاً دون أدنى طائل. 80,81

وتوجد ملاحظة أخرى قد تكون أكثر إقناعاً من الصفات الإفرادية لملامح الوجوه الأوروبيدية على أقنعة الأموات الأمريكيين القدماء ويمكن التنويه عنها في قبور أمريكة الجنوبية، ونقصد بذلك الشعر الأشقر الذي وجد على عدة مومياوات[141]. يمكن أن يختلف المرء على شكل الأنف أو عرض الجمجمة. لكن لا تترك الشعور الشقراء للمومياوات الأمريكية القديمة مجالاً للنقاش. وجود العديد من هذه المومياوات الشقراء هو أفضل دليل على حياة وموت

المهاجرين الأغراب. ومن المؤكد عدم وجود مونغوليد شقر.

وثمة علامة تفريق أخرى بين الهنود الحمر والأوروبيد هي لون البشرة. فعلى ما يبدو فلقد صبغ المايا لون بشرتهم بشكل مصطنع. ويجدر ذكر مثال الكاتب كأحد الأعيان وقد ازدان بالأصباغ. وبينما ترك جلد جسمه المغطى بإزار يصل لوسطه فقط، طبيعياً، صبغ وجهه بلون أصفر خفيف. كان يجلس متربعاً على طريقة جلوس الكتَّاب المصريين من الشرق الأدنى. كان الكتَّاب أشخاصاً يحظون بالاحترام، لأن العلم كانت له مكانة خاصة، لم يستطع إلاَّ قلة من المطلعين لا بل لم يكن ينبغي لغيرهم معرفة خط المايا المعقد. المعرفة كانت سلطة، والسلطة كانت من نصيب القلة القليلة. وكان جزء من سياسة السلطة عند المايا زواج الإخوة، الذي كان من شأنه أن يحصر عائلات السلطة في إطار ضيق. هل أراد المرء أن يبقى ضمن دائرته فقط ـ حتى ولو كان يحمل ذلك خطر الانحلال والانحطاط الفكري.

82

من المعروف أن بيوتات الحكام المصريين كانت ترعى زواج الإخوة لأسباب تتصل بممالكهم. وهنا يبرز تشابه آخر مدهش بين أمريكة القديمة ومنطقة البحر المتوسط.

ويمكننا أن نتصور بوضوح النتائج والآثار التي خلفها زواج الأقارب على مدى قرون عدة، على الرغم أنه لم يصلنا عنها شيء بالتفصيل. ثم، لماذا توجب أن يكون ما جرى لممالك

المايا أفضل مما جرى للهابسبورغر على سبيل المثال، الذين تذكر كتب التاريخ عن انحطاطهم التدريجي. فعقب وفاة شارل الخامس الذي لم تكن تغيب الشمس عن مملكته، كما هو معروف تفتت الإمبراطورية إلى جزء نمساوي وآخر إسباني اعتاد أبناء ملوكهم أن يتزاوجوا فيما بينهم بانتظام. وهكذا كانت قوة وديناميكية الحكام وأبنائهم تتقلص باستمرار. وحين تزوج فيليب الرابع أخيراً ابنة أخته ماريا من النمسا ذات الأربعة عشر ربيعاً لم يكن لنسل هذا التهالك على المحارم من شيء مشترك مع أسلافهم سوى الشفة السفلى المشهورة عند الهابسبورغر. فإذا لم يموتوا في سني حياتهم المبكرة، فلقد نشأوا ضعافاً، مرهفين وذي أجسام لا تقوى على شيء. وهكذا كان شارل الثاني الذي ورث العرش عام 1660، معتل الصحة، وبدا مظهره الخارجي شاحباً ضعيفاً، وشعره خفيفاً ـ كما كان عنّيناً ـ طبقاً لما ذكره المؤرخون[142]. والكائن الحي الذي اعتراه الضعف من جراء زواج الأقارب يمكن أن يستدل عليه بأشكال مختلفة. من ضمن ذلك حول العينين، حيث لا تقدر عضلات الرؤية التحكم بعملية النظر ـ ويكون جهد تكيف العيون كبيراً ـ ويؤدي هذا لحول العين. ومن الجائز لنا المضي في هذا التفكير لنقول إن الحول لدى حكام المايا ينبغي النظر إليه من زاوية علاقته مع زواج الأقارب عبر عدة أجيال مما أدى إلى الانحطاط الحتمي للإمبراطورية.

كما أن احتمال انتقال التشوهات المختلفة إلى الأجيال اللاحقة كبير الحدوث في زواج الأقارب. يشير كوجل إلى أن ممالك المايا المتأخرة في بالينغ كانت تعاني من التشوهات الظاهرة العديدة مثل الأكروميغاليا* التي يمكن الإشارة إليها كظواهر انحلال وتفسخ. وأصبح الحول من هذا المنظور صفة إضافية لمملكة المايا، وقد تكون أمهات المايا تسببن بإحداثه لكي يبدو الطفل في يوم من الأيام من المايا الحقيقيين[143].

(*) الأكروميغاليا: مرض تضخم اليدين والقدمين والوجه يسببه خلل في الغدة النخامية (المترجم).

4 ـ آلهة وأبطـال

ما هي الآثار التي خلّفها الزوار الأوائل من العالم القديم في أمريكة القديمة ـ عدا رسوماتهم الخاصة بهم؟ ويتوقع التوصل إلى النجاح الأكيد في تلك المجالات التي لعبت دوراً هاماً في حياة البحّارة الأوائل. كانت هذه المجالات تتمثل بالعبادة وبالآلهة إلى جانب السفن وأسفار البحار. ومن المعلوم أنه لم يكن بالإمكان تصور حياة أسلافنا دون ديانة: حيث كانت الطقوس الدينية والعبادة تطبع يومهم وإيقاع سنتهم، وحياتهم إلى الممات بطابعها.

كما كانت الرحلة البحرية محاطة بحماية آلهتهم. يعرف المرء عن الفينيقيين أنهم كانوا يزيّنون مقدمة سفنهم بأشكال لم يكن القصد منها الزينة فحسب بل تيمناً بها كآلهة للحماية. وكان منها الإله القزم بيس المألوف جداً لدى الفينيقيين.

اعتبر بيس أساساً آلهة مصرية صرفة لم تلبث أن وجدت لها تقديساً من قبل شعوب أخرى. كانت صورة الإله الصغير البشع موجودة في الألف الأولى قبل الميلاد عملياً في كل منطقة البحر المتوسط. وكان يتبع إلى الجن بيس في كل مكان الوجه

المشوَّه المخيف أو وجه نصف حيوان، وله قوائم قصيرة، ولحية كثة، وعينان جاحظتان وسحنة أسد مرعبة أو بالأحرى له جلد أسد. عرف قزم الأسطورة كيف يتلفَّع بها. كان غالباً يتدلَّى رأس الأسد على صدر بيس الصغير على مبدأ دلالة الجزء على الكل. أما من جلد الأسد نفسه فلم يكن يرى إلاَّ اللبدة[144]. حقاً إنها دراسة رموز أصيلة[145] تسهل تفريق الآلهة عن الآلهة الأخرى في معابد منطقة البحر المتوسط وكذلك تتيح تتبعها.

ومما يثير الدهشة أن يحظى هذا القزم المسخ بهذه الشعبية[146]. لقد وثق الناس بتأثير بشاعته الخارقة في رد الشؤم والنحس عنهم وتمنوا تحقيق أمانيهم المختلفة بواسطته. في البداية كان بيس مسؤولاً عن حماية غرفة الزوجية. بيد أن حصره في هذا المجال كان بالنسبة للذين يقدِّسونه شيئاً يؤسف عليه، مما جعلهم يوكلونه بمهام أكثر تعقيداً ليترقّى بعدها إلى إله الرقص والانبساط. وفي العصر المتأخر ألصق بـ «ورع تقي الشعب» ملامح الآلهة العظام التي لم يكن من ضمن دائرتها عندما كان جنياً. ثم أصبح يقدّس بشكل اتحاد شخصي مع أعلى الآلهة مثل بيس ـ آمون، أو بيس حورس.

ولم ينته الحماس لهذا القزم المسخ أبداً، حتى المسيحية وجدت نفسها أخيراً مضطرة لدمج هذا المشاكس في التعاليم الجديدة العظيمة، بحيث أعطاه المرء دور «الخصم الشرير».

83 ومن صور بيس الكثيرة يوجد في جزء من صورة أمثلة نموذجية: وثمة قطعة نقدية معدنية من عام 340 ق.م، يظهر عليها سفينة فينيقية وفيها رأس بيس على مقدمتها. وبسبب مركزه المتدني ضمن آلهة البحر المتوسط كان بيس على ما يبدو حماية غير كافية تضمن الاستغناء عن الآلهة الأخرى الكبيرة. لذلك كانت توجد صورة لأسد البحر، كرمز لإله البحر «بوسايدون» على الطرف الآخر للعملة المعدنية.

84 ويظهر رأس بيس على إحدى التعويذات التي تبيِّن كل ملامح صورة شكله بوضوح على الرغم من قطرها الذي لا يتجاوز الـ 55 ملم. غير أنه ليست كل صورة تعرض الإله القزم بصورة بشعة للغاية. ثمة أشكال أخرى تبيِّن الجنِّي كعجوز
85 طيِّب، ذي أرجل قصيرة قليلاً وبطن كبير. من هذه الدراسة الرمزية يوجد شكل متأخر لبيس «يعود للقرن الثاني قبل
86 الميلاد» عثر عليه في إيطالية.

كانت إيطالية مجرَّد مرحلة في طرق مسيرة النصر لهذا الإله في وجهته نحو شاطىء الأطلسي. ويمكن تتبع وإثبات آثار عبادة بيس حتى كادس. لم يكن بيس يرافق البحارة كشكل «جاليون»: بل كان غالباً ما يتصادف وجوده على شكل تعويذة توضع في الجيب. ويحمل أحد أشكال بيس الصغيرة هذه اللحية مكتملة لا غنى عنها ورأس الأسد فوق الصدر ــ وكل

هذا في حجم يمكن تداوله بسهولة كي يوضع في حقيبة البحارة الصغيرة.

كانت طلاسم بيس تؤخذ فعلاً في الرحلات، وأيضاً في رحلات الأطلسي البعيدة حيث وجدت أشكال بيس فوق الأرض الأمريكية القديمة.

ففي منطقة المايا، التي هي الآن غواتيمالا، اكتشف شكل صغير بمقاسات جسم قزم: ولا يبلغ حجم الرأس ثمن طول الجسم الكلي بل ربعه. يتطابق الشكل هذا في كل تفاصيله الإفرادية مع الدراسة الرمزية لبيس: أرجل قصيرة، ورأس مشوَّه بلحية شعثاء ولبدة غليظة، ثم جلد الحيوان على الأكتاف 87 بطبيعة الحال ــ أما مقاسه فهو يبلغ 20 سم، كما يعتقد العلماء أنه يعود إلى الزمن الإمليكي المتأخر، أو بالأحرى إلى الفترة الانتقالية إلى حضارة المايا الكلاسيكية (500 ق.م. إلى حوالى صفر). إذاً، فهذا الإله القزم الأمريكي يرجع إلى الفترة الزمنية تحديداً، التي كان ينتشر فيها تقديس بيس في الشرق الأدنى على نطاق واسع.

ومن اللافت ذلك التطابق بين شكل أيقونة صورة بيس في منطقة البحر المتوسط التي لا يظهر فيها سوى رأس الجني ذو اللحية، وبين شكل الوجه المشوَّه الذي وُجد في منطقة ــ كوريرو في المكسيك ــ وعليه اللحية الكثة التي هي بطبيعة الحال غير معروفة عند الهنود الحمر. فاللحية العريضة هنا 88

تغطي كامل الوجه المعروض بصورة كاريكاتورية. وينقسم جزؤها السفلي إلى قسمين مجدولين كما هو معروف عن شكل بيس في أيقونات الشرق الأدنى. ثمة ملاحظة: الجنّي الملتحي من كوريبرو موجود اليوم في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي الشهير. لكن ليس في إحدى خزائن العرض بل في الدرج، كما يقول فوتيناو[147] ولربما يكمن السبب في إخفاء الشكل إلى أن المرء لا يعرف ماذا ستكون مسؤولية الكتابة التوضيحية لهذا «الجنّي الملتحي» من المكسيك ما قبل كولومبوس[148]. وكما هو الحال عند الشكل بيس عَبَرَ «جني» آخر المحيط الأطلسي: إنه هومبابا (أو شوفافا أو خومبابا). وهو يلعب في أنشودة جلجامش دوراً هاماً كمنافس للبطل[149]. ويقوم بمهام حماية غابات الأرز المقدَّسة في لبنان ـ وهو بدوره له وظيفة هامة جداً في نظر أولئك الذين يقدرون خشب الأرز كمادة ثمينة[150].

إن اهتمام الفينيقيين الكبير بحامي غابات الأرز المقدَّسة أمر مفروغ منه؛ لأن نجاح هذا الشعب التجاري يعتمد كثيراً على ترويج خشب الأرز، الذي تصنع منه السفن الفينيقية الظافرة.

غير أن الفينيقيين لم يكونوا وحدهم ـ وبطبيعة الحال مؤلف أنشودة جلجامش كذلك ـ ممن كانت عندهم هومبابا ذات قدسية كبيرة. فثمة شعوب من الشرق الأوسط كان يحظى بإعجابها ـ رغم بشاعته ـ ترجع أقدم صورة وهي على شاكلة

89 قناع فقط، إلى عام 2200 ق.م. وهي غير موجودة الآن إلاً كرسم. ويبيِّن أقدم قناع موجود لهومبابا نشأ في قبائل السومريين وجه الجنّي وقد تقلَّصت عضلاته وفيها أخاديد عميقة[151]. وفي الواقع فإن وجه هومبابا، وفي كل صورة، يتكوَّن من مجرَّد أخاديد عميقة. ولذلك معناه الخاص. إذ

90 يتطابق عرض الأخاديد في وجه هومبابا مع اتساق الأمعاء: إذ ينبغي النظر لهذه الحقيقة لعلاقتها مع ما يسمَّى «رؤية الأمعاء» المعروفة عند العرافة في الشرق الأدنى. فإذا كانت أمعاء الميت تظهر تشابهاً في ترتيبها مع أخاديد وجه الجني هومبابا، فسيأتي حكم العرافة ساحقاً[152].

وفي سياق هذه المقارنة بين أقنعة هومبابا في العالم القديم وفي العالم الأمريكي القديم تكتسب العلامة المميَّزة على جبين الهومبابا مغزى عميقاً، حيث تحتفظ هذه العلامة في التاريخ القديم بتقاليد عميقة الجذور، فحين قتل قابيل الابن الأول لآدم، أخاه هابيل أرسل الله لجبينه ما يسمى بعلامة قابيل[153]. وهي بمثابة رمز الحماية من كل سوء على مختلف أشكاله. أما لماذا يحمل هومبابا هذه العلامة؟ برأينا ليس لذلك أهمية في موضوعنا. إنما تكمن الحقيقة في أن وجهه المرعب المجعد ـ يحمل غالباً علامة على جبينه ـ ، هنا تكمن الأهمية، لأن مثل هذه العلامة على الجبين تظهر في الفن ما قبل كولومبوس، حيث يبدو هنا جزء من الوجه مغضناً، وكما أن الوجه معروض

هنا على هيئة قناع. ولا يمكن لأي امرىء أن يعتقد بأن التطابق في هذا الرمز غير العادي والمعقد لقناع هومبابا وانعكاسه في الصورة الأمريكية القديمة جاء عن طريق الصدفة البحتة.

92,91 كان الإغريق ينتجون أقنعة هومبابا في أعداد ضخمة[154]، منها ما كان عليه العلامة على الجبين وبعضها لم يكن عليها، ويبدو أن تأثير الحماية لهذا القناع كان يظهر مع هذه العلامة أو بدونها[155].

ومع مرور القرون فقدت أقنعة هومبابا تجاعيدها البشعة باستمرار. وبدلاً من الأخاديد العميقة المرعبة التي توحي للناظر وكأنه يشاهد تلافيف الأمعاء، نشأت في القرون الأخيرة قبل الميلاد وجوه ذات تجاعيد بسيطة، والتي كانت تعرض دائماً كأقنعة ـ وفي أمريكة القديمة كانت هذه الظاهرة مألوفة أيضاً! وعلى هذا المنوال يظهر قناع لتيراكوتا ما قبل كلاسيكي من منطقة تلاباكويا في المكسيك وجه هومبابا بتجاعيده العميقة وابتسامته العبوس ـ ثم بعلامته المميزة في الجبين. 93

وفي هذا تطابق تام مع النموذج القديم لهومبابا من العالم القديم. وتوجد متطابقات للنموذج القديم بتجاعيده الطبيعية، أي المخففة، في أقنعة شيباس (المكسيك) وكولومبيا، حيث 94 يعرض وجه الجني بطريقة أقل بشاعة لكن فيه تجاعيد زائدة ـ تماماً كما يجول ذلك في خاطر البابليين، وبالتجاعيد، والقناع

95 والتغضن، وعلامة الجبين، والتزامن، هنا يصبح التطابق هوية.

ثمة نوع يحمل مضامين فكرية للجني المجعد ذي العلامة على الجبين وهو قناع أمريكي قديم من المكسيك يظهر في نصف الوجه الأيسر نموذج هومبابا المجعَّد بينما في النصف الأيمن رأس ميت. وكما يوجد على الجبين علامة شبه دائرية تحمل رمزاً من الكتابة الأمريكية القديمة لكلمة «موت». تعطي هذه المنقوشة الرمزية النافرة للقناع المقسوم إلى جزءين معنى تحذيرياً عن الموت. ويمكن الاستنتاج من خلال ذلك أن القناع المشوَّه ذا العلامة على الجبين كان له صلة بموضوع الموت في العالم القديم وفي أمريكة القديمة وكان له وظيفة دفاعية. وليس التطابق الأيقوني وحده بل الوظيفة نفسها تجعل 96 استنباط الصور الأمريكية من أشكال هومبابا أمراً ملزماً.

لقد أضاف القدماء لقصصهم الأسطورية عن آلهتهم المتعددة كثيراً من التفاصيل المدهشة بحيث نستطيع التعرف على هذه التفاصيل بسهولة كبيرة في صورة ظهورها الأمريكية. فمثلاً يجري الحديث عن الإله المصري حورس الذي ولدته أمه، 97 الإلهة إيزيس العظيمة في منطقة البوص في دلتا النيل. وطبقاً لذلك كان حورس يعرض أحياناً على هيئة زهرة البحيرة، أو على الغالب كإله يافع في شكل صقر.

كان حورس واحداً من أكثر آلهة مصر أهمية. وكان فرعون

مصرياً يرى في نفسه تجسيداً لهذه الإلهة. انتصر حورس على الحيوانات الخطرة، وكان إله بلاد النور. واعتبرت عيناه رمزاً للشمس والقمر. إنه حقاً إله هام حظي على ثقة المرء، وبشكل خاص على ثقة البحَّارة، ذلك أن حورس مقدَّساً كإله لاتجاهات السماء وللتوجيه.

ولم يكن من المفاجىء أن يفضي البحث عن حورس فوق الأرض الأمريكية القديمة إلى النجاح. ففي واجهات المعارض الكبيرة في القارة الأمريكية يصادف المرء صورة حورس الصغيرة، التي تبدو على أنها ليست استيراداً ثقافياً[156]. وفيها يكون حورس بحجم الإبهام يجلس في وردة البحيرة المتفتحة التي يحملها ساق طوله 15 سم. ومن يجد صعوبة في التصنيف النباتي سيكون سعيداً حين يستنتج أنه ثمة صور لا حصر لها من أزهار اللوتس في عالم الصور الأمريكي القديم تدعو للمقارنة وأنه جرى إعداد فيض من الدراسات التفصيلية والرصينة عن وجود زهرة اللوتس الغامض كعنصر للزينة في الفن الأميركي القديم[157].

98

وتبيِّن المقارنة مع صورة العالم القديم عن وجود حورس في زهرة اللوتس بأن الصعوبة التي واجهها الفنانون في كلتا المنطقتين تكمن في تصوير طفل. ويمكن أن تكون هذه المشكلة عامة لم يطرأ عليها تغيير على مرِّ القرون. ووجد الإنسان في العالم القديم حلاً لها بنوع من العرف: وفيه يعرض

يافع يضع إصبعه في فمه. هذه الإشارة كفيلة بجعل اليافع طفلاً. وهكذا يرى المرء الطفل حورس كإنسان ناضج على هيئة ناسك يقبع على أطراف أوراق زهرة اللوتس. ولم يكن التقي ممن قدَّس حورس بحاجة إلى دقة طفيفة في التفاصيل، يكفيه أنه كان على علم بأسطورة حورس، متخذاً من قطع الديكور المذكورة إشارة كافية إلى الإله العظيم.

ولننتقل الآن من استعراض أيقونات الطفل حورس في وردة البوص إلى دوره كمروض للحيوانات الشرسة: إحدى الشواهد تقدمه كقاهر للتمساح، حيث يساعده الإله بيس بأن يظهر على رأس حورس[158]. 99

كان المصريون يعتبرون التماسيح حيوانات جديرة بالتقديس وقاموا فعلاً بتقديسها، الأمر الذي نتعرف عليه من خلال هيرودوت[159] «بنيت معابد للتماسيح خاصة بها في مدينة طيبة وكروكود يلوبوليس لا بد أنها كانت فخمة جداً. وفي زمن رمسيس الثالث كانت معابد التماسيح من أكثر الأماكن المقدسة في أرياف مصر تجهيزاً. كانت تقام إلى جانب المعبد بحيرة من أجل التمساح المقدس». وقدم سترابون وصفاً دقيقاً عن رعايتها وإطعامها[160]. وأخيراً يحس المرء حين يصل سترابون إلى وصف الإجراءات في تزيين آذان وأرجل هذه الزواحف بالخواتم، بشيء من الانقباض فيما إذا كانت هذه الحماسة في الوصف تنسجم حقاً مع كاتب جدير بالأمانة مثل سترابون.

لكن لمَ يكن تزيين التمساح فقط وإنما كان هو نفسه يستعمل كمادة للزينة أو التمائم والحجب. وأحياناً كانت تستخدم صورة الحيوان المقدس على أشرعة السفن الكبيرة تيمناً بقوتها الحامية. ولم يكن تقديس الحيوان هذا ينفصل عن الخوف منه حقاً. كانت توضع مع الأموات نصوص إلى مملكة الأموات لتساعد في الحماية من التماسيح أو لكي يتم تحول الموتى أنفسهم إلى تماسيح[161].

من الواضح أنه في إطار البحث عن الصورة القديمة الأمريكية للتماسيح فإنه ينبغي البحث عن تلك الصورة التي لها علاقة بمفهومها التقديسي والسحري. وهناك شكل لا يتجاوز طوله خمسة سنتمترات من قرطاجة يمثل الإله المسخ بات ـ باتيكو، يغطي ظهره وقفا رأسه جسم ورقبة تمساح. هنا يتحد الإنسان والحيوان مع بعضهما ليشكلا وحدة متداخلة مع بعضها. مثل هذه الصورة موجودة في أمريكة القديمة. حيث نرى تمثال صغير وجهه إنسان مجعد وملتحي، أما قفا رأسه فهو على شكل تمساح. إذاً ليس من المستغرب أن تتطابق سمات هذا الإنسان مع أنموذج «الغريب» تماماً.

يجب أن يبقى تفسير عرض التمساح ـ الإنسان محصوراً فقط في الشيء المنظور والتاريخي؛ لأنه فقط، وفي هذا المستوى، يمكن إجراء المقارنة مع الصورة الأمريكية القديمة، ذلك أن الحقائق الثقافية والتاريخية الفنية وكذلك الشروحات

الأدبية عن الصور الأسطورية لم تعد موجودة للأسف، بعد أن سلم المبشرون المتحمسون في القرن السادس عشر هذه الشواهد عن الحضارات الأمريكية القديمة لألسنة اللهب. لذا فإنه من المعمول به أن يصار إلى التعرف مجدداً على المتوازيات عن طريق المستوى المنظور. مثل هذا التوازي يمكن إيجاده بلا ريب في تقديس التمساح. 100,102

كما أن للإله المسخ بات ـ باتيكو في مصر وفي فينيقية شبيهاً معاصراً في أمريكة[162]. ويرجع علماء الأمريكيات صورته إلى الفترة ما بين 1200 ـ 1400 ق .م[163]، بيد أن هذا لا يمثل رقماً دقيقاً، لكن في هذه الحقبة الزمنية بالتحديد بدأ في منطقة البحر المتوسط تقديس الإله المسخ، قصير الأرجل. 103,104

ومن الحجج التي يدلي بها معارضو النظرية هو أن الفكر البشري، رغم وجود هذه المتشابهات المثيرة للدهشة، هو فكرٌ مبدع وعالمي. فما يمكن أن يخترعه الفكر المبدع في منطقة من الكرة الأرضية، يمكنه أيضاً اختراعه في نقطة أخرى منها، حيث أن الإنسان في كل مكان، يبحث عن تلبية الحاجات الأساسية. ثم إن الوجود الإنساني ليس له طابع وطني محدد. غير أن المنافحين عن النظرية، وهم قليلو العدد، ينظرون إلى العكس من هذا تماماً. وجود شبكة من النماذج الفكرية أو المواد الثقافية أو الأعمال الفنية ليس من قبيل الصدفة: إذ أن الاحتمالية لا تتفق مع هذا الطرح، بأن أمثال هذه البنى المعقدة

قد اختلقت بمعزل عن بعضها البعض ودون علاقة واضحة بالمعنى فيما بينها. ولا يمكن للإشارة على الذاكرة الجمعية أن نقدم شرحاً للمتطابقات المتعددة والأصلية. ثمة مدرسة برمتها في علم تقاليد الشعوب تشرح المتوازيات بما يطلق عليه «التشابه». وهذا تعبير يعزو وجود الحلول نفسها وفي مواقف إنسانية معينة إلى نفس الأوضاع والحاجات الفكرية(164). إلاَّ أن التشابه ليس تفسيراً عالمياً للمتطابقات. فعلى سبيل المثال تمتلك القدرة الإبداعية إمكانيات متنوعة لا حدود لها. فالتطابق في النبرة أو في البنى المعقدة للإبداع في التكوين لا يمكن إرجاعها إلى التساوي النفسي لبني البشر المرتكز على التطابق بين الدوافع الأولى والأفكار الأساسية، كما هو الحال في نطاق الحضارة المادية بسبب عالمية قوانين الطبيعة. ففي إطار الدين، والأساطير والفن يكون مجال حركة الاختراع أكبر بما لا نهاية له، لأن لا وجود لقوانين ملزمة تفرض حلولاً متشابهة.

والاتصالات بين المكانين الاثنين لا تغدو محتملة فقط من خلال المتطابقات في الشكل والمضمون لمواد ثقافية وفنية محددة وإنما عن طريق وجود متطابقات في مراحل زمنية معينة بشكل متواتر وواضح، بينما لا يوجد ذلك في مراحل تاريخية أخرى.

إن تأثير البحارة المتوسطيين على أمريكة القديمة في الألف

الأولى قبل الميلاد ـ ومن ثم لاحقاً بأكثر من ألف سنة ـ من خلال البحارة الأوروبيين في الشمال هو واضحٌ وبيّن تماماً. وبمثل الوضوح عينه تبدو المرحلة الطويلة لاستقلالية الحضارة الأمريكية القديمة في الفترة الزمنية الانتقالية حيث تخبو علامات تأثير العالم القديم تدريجياً. وبتعبير آخر: لم تعد المتوازيات في قرون ما بعد الفترة الزمنية الانتقالية إلاّ مجرد مخلفات وبقايا للمتوازيات التي كانت سابقاً واضحة ومتعددة ما بين العالم القديم والعالم الجديد.

وفي نهاية زمن ما قبل الميلاد ابتعدت القارات عن بعضها مجدداً ثقافياً وجغرافياً في وعي الشعوب أكثر مما تبتعد عن بعضها كل سنة سنتمترين اثنين، حسب النظرية الفينيقية عن تباعد القارات[165].

لقد توجَّه العالم القديم نحو أهداف أخرى، ولم يعد البحارة بعد ذلك يوجدون في رحلات استكشافية ولا كتجار. وفيما يتعلق بالتجار يمكن القول إنه كانت توجد في أمريكة القديمة آثار لسيدهم الكبير الموكل بحمايتهم: هرمس أو المشتري. وامتدت وظيفة حمايته ليس إلى المسار الميسر للتجار بل إلى ربحهم التجاري. وكان المرء يعتقد أن هذا الحمل المزدوج للإله صعب للغاية لا يقدر على تطويع هذه المهمة إلاّ إله ماهر ذو حيلة واسعة. غير أن مثل هذه الصفات كانت تندرج ضمن مفهوم الإيجابية البالغة، وهكذا لم يكن من

المستغرب أن يتمتع الإله المشتري بقيمة فائقة الأثر. كان الفنانون يعرضون المشتري بأجنحة طائرة وبحذاءين طائرين ليتاح للإله استباق رعاية وحماية التجار. وللتنويه عن المشتري كانت تكفي اليد الرمزية التي هي كرمز أقدم من الإله الإغريقي. ويمكن الإضافة إلى ذلك أن أصل تقديس المشتري ـ كما هو في أي تقديس آخر تقريباً ـ ينبغي البحث عن جذوره في علم الفلك. كان البابليون القدامى يحسبون، كما مر ذكره سابقاً، بالرموز الفلكية التي تنشأ عن حساب مسارات الكواكب المختلفة. وكوكب المشتري كان له الرقم الدال عليه وهو 4,5 (انظر المقدمة). وعليه كان يوجد للرقم 4,5 الشكل الرمزي المتمثل في الكف المبسوطة بأصابعها الأربع وبالإبهام. وغالباً ما كان يضاف إلى رمز الكف ما يجعل إمكانية أن يخطئها المرء غير وارد إطلاقاً: كان يوضع في معصم الكف المبسوطة سواراً 5,105 عليه حلية وردية الشكل. وتلاحظ شكل اليد هذه في زمن البابلي آشور ناصربال الثاني بوضوح كبير. وليس بالوضوح ذاته يظهر مثال السوار في معصم يد كبيرة جداً محفورة في جدار من الصخر في مدينة خالاكاتسينجو المكسيكية.

ويعود تاريخ هذه اليد إلى القرن الأخير قبل الميلاد. ومن الجائز أن الهنود الحمر قد استخدموا رمز اليد المبسوطة دون تأثير أو إيحاء من الغرباء. إلاً أن الصورة الخاصة بأكملها «اليد

مع السوار والزينة» تجعل التفكير في أخذ الفكرة من العالم القديم قريبة جداً من المنطق. 107

ويعتبر أبو الهول أحد المتشابهات المعبِّرة بين الشرق والغرب. وهذا الشكل الثنائي الجنس اشتهر في العالم القديم أكثر من الفرعون الذي عمل من أجله. وحسب الأسطورة التي سادت في طيبة كان هذا الكائن المجنح بجسد أسد ورأس فتاة، يقتل كل زائر لم يقدر على الإجابة الفكرية عن الأعمار الثلاثة[166].

كان أبو الهول في فنون العالم القديم موضوعاً محبباً جداً، ولكنه على العكس من ذلك لا يجده المرء في العالم الجديد. ومن الجدير بالذكر وجود إثبات وحيد عنه في الأرض الأمريكية القديمة: نجده في هيئة تيراكوتا صغيرة في الإكوادور، ويحمل كل علامات الشكل الخرافي كما هي معروفة في العالم القديم. 108,10

وثمة شكل مزيج آخر يشاهد في كل العالم وهو الإله في هيئة طائر. ويشاهد المرء مثلاً في نقش بارز حثي الإنسان الطائر وله رأس إنسان وجسم صقر. يعني ذلك ارتباطاً غير مألوف أو إنه أمر مفروغ منه بحيث يمكن تخيل حدوثه في الدائرتين الحضاريتين المختلفتين بصورة مستقلة عن بعضهما؟ هذا شيء محتمل. إن الإجابة لا تتوفر مباشرة غير أن التحقق في بعض تفاصيل الشكل يقود إلى انطباع لا لبس فيه وهو أن

الإنسان الطائر الأمريكي القديم لا يمكن أن يكون إلاّ نسخة عن نماذج من العالم القديم.

ومن الواجب مقارنة صورة مثالين اثنين نشآ تقريباً في نفس الفترة الزمنية في عالمين مختلفين: الإنسان الطائر من دائرة حضارة الشرق الأوسط والإنسان من منطقة خليج المكسيك. وللهيئة البشرية في كلتا الحالتين زوجان من الأجنحة يضمان الشكل جانبياً. ويعتلي الجسد البشري هنا وهناك رأس طائر له منقار قوي معقوف كما يبين الشكل الجانبي له بوضوح. ثم إن أعلى الجسم يظهر على مقطع أمامي وأسفل الجسم والأرجل والأقدام وكذلك الرأس يظهر بمقطع جانبي. 111,110

لكن هذا لا يفي بغرض المقارنة تماماً: لقد بدت ملابس الإنسان الطائر الغريب كما لو أنها صممت من قِبَل نفس الخياط. وهذا التشابه مدهش لدرجة بالغة، حيث تشهد كلتا الصورتين على إبداعية تفوق المعدل المتوسط: يرتدي الطائران البشريان نوعاً من السترة مقصوصة دائرياً بشكل جانبي؛ وتصل من الخلف إلى بطن الساق، ومن الجانب إلى الركبة ولا تغطي من الأمام وسط الجسم إطلاقاً، أو بالأحرى فهو محمي بواسطتها. إن السترة النصف مستديرة مطرزة بإطار عريض يصل إلى الخصر. وإذا لم تكن مثل هذه العالمية العجيبة لموضة «تناسب» الآلهة تدهش حقاً، فلا معنى لهذا. إلاّ أن الشخص الذي لا يريد الاندهاش بها لا يريد إلاّ أن يغمض

عينيه عن التطابق الذي لا يسمح له بأن يكون موجوداً بنظره.

ومهما قيل عن أهمية تفاصيل الموضة فلا يمكن أن تفي حقها، لأنها تشكل مساعدة بالغة الأثر لتحديد التاريخ. فمثلاً زينة الرأس المشهورة لأحد الآلهة المصرية هو مهم لأن شكله لا يمكن إخفاؤه وبالتالي يمكن التعرف على هذه الآلهة بمساعدة غطاء الرأس المميز وبسهولة كبيرة. كما يمكن اقتفاء 112 أثر الآلهة هذه حتى إلى أمريكة لأنها تحمل زينة الرأس الظاهرة التي لا يمكن الخلط بها.

ويجد المرء هذه الآلهة المصرية أولاً في منتصف الطريق بين بلاد المنشأ الأصلية الشرقية وأمريكة، ونعني بها قادش مدينة المرفأ الفينيقية على ساحل الأطلسي. يتعلق الموضوع هنا بشكل صغير من البرونز له لحية، وإزار للوسط بالإضافة 113 إلى زينة الرأس العالية بوضوح، التي يمكن مصادفتها أيضاً في أمريكة. ومن الجدير بالملاحظة ـ هو أن زمن نشوء الشكل 114 يعود إلى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد. ثمة تمثال للإله نفسه يظهر عليه القدم والشكل المصري بجلاء ويجري اقتباسه هنا، لأن كل تفاصيل غطاء الرأس المعقد واضحة المعالم، الأمر الذي يخولنا لمقارنته مع شكل حجري مكسيكي صغير يحمل غطاء رأس مشابه. وتبرهن مقارنة الصورة التطابق كأفضل مما يمكن أن يؤديه وصف لشكل الطاقية.

ولا بد من تقديم بضع كلمات عن هذا الشكل: غطاء

الرأس مرتفع بشكل لافت، ويرتفع عن الرأس بقدر مرتين من رأس حامله، وهو معقود على الجبين. ويصل الغطاء إلى أسفل قفا الرأس ثم يضيق شكله في قمة رأسه. كما أن تكوين الغطاء الخارجي متطابق في كلا الشكلين المقارنين. ويتقاطع شريط عريض في زاوية منفرجة مفسحاً المجال ليبقى القسم العلوي من غطاء الرأس مكشوفاً حيث تشكل قمته العلوية إضافة نصف دائرية.

تحدَّثنا بما فيه الكفاية عن القبعة، وبدقة أكبر عن قبعتين. لكن الكلمات المستفيضة عنها حققت هدفاً مهماً: لأن المسألة هنا تتعلق بمسألة مقنعة عن نسخة واضحة. وفي الكثير من المواد المعنية بالأمريكية القديمة التي استعرضت لاحقاً وأظهرت تشابهاً لافتاً للأشكال من العالم القديم نرى أن الأمر له صلة باستيراد القطع نفسها. أي أن هناك استيراداً للبضائع أخذ مجراه. أما عن القطع التي يبدو فيها تشابه من ناحية الموضوع، وبدرجة أقل في الأسلوب، فأغلب الظن مع مواد جرى تشكيلها في العالم الجديد إنما طبقاً لنماذج من العالم القديم. أي أن ثمة استيراد للأفكار.

لكن، كيف يمكن التمييز بين المواد التي أنجزت نتيجة لاستيراد الأفكار وبين التي تم استيرادها. يمكن ملاحظة هذه الظاهرة أيضاً لدى غزو أمريكة في القرن السادس عشر. فحين بدأ الغزاة بتنصير الهنود الحمر كانوا يحتاجون لوسائل إيضاح

يستطيعون من خلالها شرح التعاليم الجديدة لهؤلاء الوثنيين. وبما أنه لم يكن يتوفر العدد الكافي من الحرفيين والفنانين الأوروبيين كان المرء يوكل للهنود الحمر وبمساعدة التوجيهات الشفهية والبصرية قبل الغزاة، إنجاز الصور المسيحية الأولى للعالم الجديد.

كانت نتائج الجهود الفنية الأولى للهنود الحمر المتنصرين حديثاً، مؤثرة جداً وغريبة في آن واحد. فالهنود الحمر اعتنقوا ديانة جديدة، بيد أن عالم تصوراتهم بقي ملتصقاً في العالم القديم ذاته. وهكذا لم يعد لماريا شيء من الغيابة عن العالم. ولا للطفل يسوع شيء من الوقار، ولم تعد الملائكة لها سماوية لا جورج والتنين الشجاعة. ونفس الشيء ينطبق على الموضوع المعاد صياغته للقديس مارتين والشحاذ من القرن السادس عشر حيث لم يرسم الهنود الحمر صورة الرحمة المسيحية وإنما صورة فارس بالمظهر. أي أنه نشأت أعمال فنية أمريكية لكن بمواضيع أجنبية، وليس نسخاً عن نماذج من العالم القديم[167].

115

ولا بد من أن يأخذ المرء بعين الحسبان أثر التغريب عندما ينقل مجال ثقافي نماذج من مجال ثقافي آخر مختلف تمام الاختلاف. ومن الخطأ توقع تطابق كامل للتراث الثقافي للشعوب التي يفصل بينها الأطلسي، حتى ولو جرى بين المجالين الثقافيين تبادل أفكار.

إن المعيار الوحيد والهام لتقويم المتطابق والمتوازي والمتشابه بين الأعمال الفنية والموروثات الثقافية الأخرى من العالم القديم والعالم الجديد هو المنطق. وبالتالي فإن الإجابة عن السؤال، فيما إذا كان من المنطق الاعتقاد بوجود أشكال متطابقة مع بعضها لدرجة كبيرة ونشأت بفترة زمنية واحدة ومكونة بطريقة فائقة التشابه لا تخطئها العين وأن ذلك تم بمحض الصدفة، لا بد أن يكون نفياً قاطعاً.

وعودة أخرى للآلهة والأبطال: الأثر الوحيد لآلهة العالم القديم الذي ما يزال قائماً حتى يومنا هذا في أمريكة وبصورة غير مزيفة إطلاقاً هو للإله الفينيقي والبوني العظيم بعل. كثيرة هي أسماء المناطق والأحراج والبشر أيضاً التي كانت تحمل في فينيقية اسم هذا الإله كإضافة على أسمائهم الأصلية على سبيل «هاني بال» و«بعلبك». وحين يسمى المرء باسم بعل يعني أنه أصبح تحت حمايته: فالإله بعل أصبح سيداً لأولئك الذين يحملون اسمه ـ كما هو معنى بعل لغة أي «السيد»[168]. وينطبق هذا على كلا العالمين، إذ أن بعل يعني في لغة المايا «سيد» أيضاً. ولا تقتصر معرفة المايا على كلمة بعل بمعنى «السيد»، بل إنهم يعرفون الإله بعل نفسه. وحتى أنه أطلق في منطقة المايا في غواتيمالا في الماضي اسم بعل على إحدى المناطق: «الباعول أو البعل»[169]. وفي هذا المكان يوجد رأس حجري لإله لا يزال سكان المنطقة يقدمون له القرابين.

وهذا لا يمكن فهمه إلاَّ إذا كان «الإله الأبيض» هذا كان يلعب دوراً فيما مضى في أمريكة القديمة، شبيهاً بالدور الهام كما عند الفينيقيين، الذي لم يطرأ عليه النسيان رغم التنصير.

ما تزال العادات الوثنية عند الهنود الحمر حية إلى الآن. ويمكن إيراد حادثة في هذا الإطار عاشتها المؤلفة شخصياً. عندما كانت تعيش في المكسيك في بداية الثمانينات قُدِّمَ لها هدية عبارة عن تمثال قيم من الفخار، يمثل إله الموت القديم عند الهنود الحمر. ولكي تخفي الهيكل العظمي الفخاري عن العيون، وضعته في وعاء للأزهار في الحديقة. وكم كانت دهشتها كبيرة حين وجدت قدوراً فخارية صغيرة توضع تحت أقدام «الإله» والتي توضح أن الغرض منها تقديم هبات وقرابين أنجزت خصيصاً من أجله. وكانت توضع قرابين جديدة على الدوام أمام الإله. غير أنه لم يتبين مَنْ مِنَ الهنود الحمر المسيحيين والعاملين في المنزل كان يقوم بتقديم هذه القرابين، وربما كان كل العاملين من المشاركين في تقديمها. وعلى الرغم من أن أحداً لم يقر بهذه المخلفات من الماضي الوثني، إلاَّ أنه من الواضح أنها استمرت بعد أربعة قرون من دخول المسيحية لتلك البلاد.

ولكي نعود إلى نقطة الانطلاق نوضح أن تقديس إله الفينيقيين الكبير بعل واسمه، كانا يعيشان في المكسيك حتى أيامنا هذه. ويقدم الدليل الأكيد على ذلك الرأس الضخم في

«الباعول» الذي يندرج من الناحية الزمنية ضمن المجموعة الكبيرة لعروض ما يسمى «الإله القديم الأبيض». وفي الوقت الذي كان فيه الإله بعل الفينيقي على الساحل الشرقي يتم تقديسه كإله شاب، قدمه القرطاجيون في المرحلة المتأخرة من «تقديس بعل» كإله عجوز. وهكذا يكون الإله الأبيض المتغضن من «الباعول» قد وجد تطابقه التاريخي في بعل الشمالي الإفريقي. 116

تعرض الآلهة البيضاء الكبيرة في أمريكة القديمة بملامح وجه أوروبيدية وبتجاعيد لا حصر لها. وتحمل على جبينها غالباً علامة، كان قد تم التعرض لها في سياق الحديث عن أقنعة هومبابا. وجرى تقديمها في أنموذج الإله الكبير المتجعد إشارة للحماية ما فوق الطبيعية. يطلق علماء الأمريكيات على «الآلهة البيضاء الكبيرة» أسماء مختلفة: «إله النار»، «إله الشمس»، «إتس آمنا» أو «الإله القديم» وهذا غيض من فيض عن تسمياتها. الشيء المشترك في كل هذه الآلهة مظهر «الغريب» فيها. وهذه الحقيقة هامة جداً لموضوع هذا الكتاب، إذ أن «الإله الأبيض» هو حجر الزاوية في الأساطير التي استمرت في استقطاب أحاديث السكان حتى الغزو. كانوا يقولون، إن «الإله الأبيض» جاء من الشرق إلى الهنود الحمر وجلب لهم المعرفة والرياضيات والفلك والطب. لقد جاء عبر البحر الكبير، وعاش معهم ثم غادرهم في يوم من الأيام بعد 118,117

أن قطع لهم عهوداً في أن يعود في تاريخ «الساكتال»[170].

كان الطولطيكيون في طولا يطلقون على إلههم الأبيض «كوتيسالكوتل» بمعنى «الأفعى ذات الريش»[171]. ونفس المعنى يأخذه اسم إله إيوكاتش «كوكولكان». وفي البيرو عرف المرء الإله الأبيض بـ : «ميزاكوشا». وكان يسمى في منطقة كولومبيا «بوشيكا». ومجدداً يمكن القول: إن كل هذه الآلهة جاءت من بعيد، كانوا كلهم ذوي لحى، وبيضاً وكانوا يملكون عِلْماً جماً.

غالباً ما كان يطرح السؤال في الماضي عن مدى صحة هذه الأسطورة، ويأتي الجواب عنه دائماً: الإله الأبيض هو نتاج للتخيلات الأسطورية ولا يمكن أن يكون ثمة أرضية واقعية للأسطورة، لأنه من غير الممكن أن يكون وصل أبيض إلى أمريكة القديمة. لكن كيف يمكن للمرء أن يفهم نشوء القصص «الأسطورية» عن وصول الإله الأبيض من الشرق؟ إن الأسطورة تتحدث عن عمل الآلهة والأبطال، وبطريقة لم يكن فيها تفريق هذين التعبيرين عن بعضهما البعض سهلاً. متى يصبح البطل من الآلهة؟ والعكس بالعكس؟

يرتكز علم أساطير النجوم على تقديس النجوم، وأساطير الطبيعة ترى في الآلهة تشخيصات عن ظواهر طبيعية، وتستقيها ميثولوجيا الأرواح من التصور الناشىء عن العالم المعاش

للناس، كما يراها علم النفس الفرويدي في رغبات فردية مكبوتة. وأخيراً ينوه يونغ على أن الآلهة هي خبرات روحية لحقائق فوق فردية[172].

لكن ما هو الإله في المثيولوجيا القديمة؟ وما هي المثيولوجيا. يمكن القول باختصار إن الأسطورة هي «تعبير جمعي» لأقاصيص عن كائنات فوق طبيعية أو عن كائنات ذات قدرات غير طبيعية. وتتحدث هذه الأقاصيص عن أفعال جرت في الماضي البعيد وعن معطيات خارقة، أو بالأحرى هي تسمو بالفعل الأرضي دون تبرير للحقائق أو دون انطلاق من الحقيقة في أي شكل على الإطلاق. وتعني مثيوس باليونانية «كلمة» مطلقة دون حاجة لتبرير هذه المقولة. وبعد ذلك طرأ على التعبير «ميثوس» نوع من التغير جعله يقترب من كلمة أسطورة أو «خرافة».

لكن ماذا عن أشخاص الأسطورة، أي الآلهة والأبطال؟

كان يوجد كثير من الآلهة في مدافن أسلافنا. فكل مدينة وكل قبيلة، وتقريباً كل غابة، وكل فضيلة وعمل إنساني، كانت تقع تحت حماية إله ما. ولم ينشأ عن ذلك نزاعات. وكان يمارس المرء نوعاً من التسامح في مواجهة آلهة الآخرين وبالتالي كان يتوقع من الآخرين أن يتوددوا ويحترموا آلهته الخاصة في البلاد الأخرى. وهكذا كان يقوم الفينيقيون بممارسة عباداتهم في البلاد الغريبة، وبالمقابل أصبحت مدينة

صور مركزاً فكرياً للمسيحية وكان لها كنيسة مسيحية منذ العام 57 ب. م[173].

ومن الأهمية بمكان في سياق الحديث عن موضوعنا التذكير، بأن الفينيقيين صدَّروا آلهتهم وعلى ما يبدو مجَّدوها في مدفن غريب دون أية نزاعات. من هنا لا نتفاجىء بوجود بعض الآلهة الفينيقية في أمريكة القديمة[174].

وكأعلى درجة من الامتياز والتفوق، جاءت الكائنات ما فوق الطبيعية على أشكال مختلفة، لكي تقدس كآلهة. ومثلاً رفع بعض ملوك السومريين والحثيين، والمصريين العظام إلى درجة الإله مَنْ ولادتهم بعد وفاة آبائهم، وأنتج هذا الأخير عن طريق البطولة. فإذا ما اعترى ذكرى شخصية تاريخية شيء من النسيان تدريجياً كان يمكن أن يحصل من جراء الحماسة المستمرة للمتوفَّى أن تحاط أعمال البطل سابقاً بهالة من المجد ليصبح في مقام الإله. لكن كيف غدا المرء بطلاً. ثم كيف جعلت منه الأجيال اللاحقة إله؟ مقاييس البطولة التي توجب على البطل حيازتها هي ستة معايير:

1 ـ نسب أسطوري (من أسد، أو حورية، أو غريب، أو آلهة، أو غيوم).

2 ـ سلالة غير عادية أو محيرة (من بلدان غريبة، أو من رأس إله، أو من الغابات، أو الأموال).

3 ـ مظهر غير عادي (عادة أطول، أو أجمل، أو أقوى من

الناس العاديين، أو له إشارة فارقة كالعلامة، أو ما شابهها).

4 ـ أعمال وعطايا غير اعتيادية (أذكى من الآخرين، ويجب أن يكون ذلك في السنين الأولى من حياته، أو جالب حضارة ساعدت الشعب بالعلم).

5 ـ موت غير طبيعي (على أية حال ليس في السرير).

6 ـ العودة بعد الموت، أو على الأقل الوعد في أن يرجع في وقت معين غير محدد في المستقبل إلى شعبه، الذي يتوقع من عودته الخلاص.

وتنطبق الصفات هذه على «الإله الأبيض» في أمريكة القديمة. فهو من سلالة غريبة كما تنبيء لحيته وبشرته البيضاء. ويقع موطنه الأصلي بعيداً، في الطرف الآخر من البحر؛ وهو يحظى بعلم غزير في مجال الفلك والطب. ثم هو يعود من موته إلى الأفق ويقطع على نفسه عهداً بالعودة ذات يوم من بعيد وبالتحديد في سنة «سي أكتال»[175].

ويتجلى في هذه الأقاويل التطابق الواضح مع المعطيات التاريخية في أمريكة، ونقصد به مجيء الرجل الأبيض ذو اللحية إلى أمريكة، أي بتعبير آخر، لا تظهر هنا عناصر غير واضحة أو تناقضات: فسلالة التجار من الشرق إنسانية بجلاء، وغير محير وإنما يمكن وصفه جغرافياً بدقة انطلاقاً من البلدان التي يعيش فيها البيض. ولم يكن لرحلته شيء من البطولة بقدر

ما لها صلة بالرغبة في السفر أو بالحنين: وليس للوعد، في العودة في يوم من الأيام توقع بالخلاص، بل كان صياغة لطيفة للوداع موجهة إلى عنوان الهنود الحمر الذين بقوا في أرضهم.

إذاً، لقد كان «الإله الأبيض» قبل تأليهه بحّاراً من العالم القديم، قدَّسه الهنود الحمر بطلاً نظراً لعلمه المبهر؛ لأنه جلب لهم علماً لم يكن معروفاً في أمريكة القديمة عن الفلك والطب وهما احتلاّ في حضارات العالم القديمة مكانة مرموقة في العلوم[176].

لم تتوقف الأحاديث عن الإله الأبيض مكوِّنة نوعاً من التقليد لم ينقطع. لم يكن الهنود الحمر يريدون تزويق الأخبار أو تغيير محتواها. كانوا واقعين تحت تأثير الصدمة الثقافية التي أفرزها الالتقاء مع هذا «الإله». وكانوا متأثرين للغاية من المعطيات الواقعية من أن يكونوا أرادوا إضافة عناصر خيالية أو تفصيلات مختلفة عن وصول الإله الأبيض من الشرق. وهكذا بقيت قصة وصول الأبيض الملتحي إلى أمريكة وصفاً متطابقاً ومنطقياً ودقيقاً لحدث تاريخي. وكما هي حقيقة عروض الصور عن الأبيض الملتحي المسن الذي وصل إلى مرتبة الإله لدى الهنود الحمر، فهي كذلك الأوصاف الأدبية تماماً التي لا تحيد مطلقاً عن صورة «الرجل الأبيض». و«الإله الأبيض» الأمريكي ما قبل العصر الكولومبي لا يعرف فقط من سيمائه أي من جمجمته الضيِّقة ومن ملامح وجهه الضيِّقة، بل غالباً

من لحيته التي لم تكن مألوفة إطلاقاً في وجوه الهنود الحمر.

وثمة مثال معبّر عن تاريخ «الإله الأبيض» يقدّمه تمثال تيراكوتا من الزمن الكلاسيكي المتأخر وعليه رباط ذقن، ويحمل شعار «الأفعى ذات الريش» كويتسالكوتل، ودون أدنى شك يمكن وصفه بأنه يخص وجهاً لأوروبيد. وتؤكد القبعة ذات المظهر غير الأمريكي بالإضافة إلى ذلك هذا الانطباع. 119

وفي حوزتنا رأسان تيراكوتا آخريان، وهما مختلفان كلياً في الشكل عن مثال الصورة، ويبدو عليهما رمز على الطاقية، وله صلة أكيدة «بالإله الأبيض» «كويتسالكوتل»، كما يؤكد المختصون بالأمريكيات[177]. وهنا يكون شكل الجمجمة في كلتا الحالتين ضيقاً والأنف كبيراً وحاداً. 121,120

كما ويعتبر الوجه المجعّد الذي لا توجد في فكّيه أسنان، أو يكاد يكون بدون أسنان جزءاً من شكل وهيئة «الإله الأبيض القديم». أما الأنياب الباقية فتبقى علامة على حكمة هذا الأنموذج، الذي يطل على سبيل المثال من أهرام كوبان في الهندوراس على الزوار. وهناك شكل آخر لهذا الأنموذج من «الإله القديم» وهو في وضع القرفصاء، ويبدو على وجهه المجعد لحية. 122 123

وختاماً يمكن التنويه إلى شكل صغير مصنوع من اليشم، عثر عليه في قبر الأهرام الشهير في بالبنيك. يبلغ حجم هذا التمثال النادر من حضارة المايا 8 سم فقط. إلاّ أنه يبدي

بوضوح العلامات العرقية لهذا الإله الهام جداً للمايا. ثم إنه يؤكد دون أدنى ريب، بأن الإله الذي تركزت فيه التقوى الشعبية الأمريكية القديمة والذي كان يحظى بموقع هام ومميَّز في دائرة إله السماء الأمريكية القديمة، هو أبيض جاء إلى الهنود الحمر كغريب. 124

لقد اكتملت الحلقة. فما أمكن قوله سابقاً في الفصل عن سمات حكام المايا وأتباعهم، يمكن قوله الآن أيضاً عن آلهة وأبطال أمريكة القديمة. لقد طبع البيض غير الأمريكيين الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية لعالم أمريكة القديمة. واعتبر وصولهم إلى شواطىء أمريكة حدثاً تاريخياً مشهوداً ذا تأثير لم ينقطع إطلاقاً[178].

لقد أصبحت لحظة الوصول دافعاً حَدًا بفناني البلد أن يسكبوه بطرائق وأشكال فنية شتى. يقدم تمثال حجري في غواتيمالا شاهداً ينطق بدرامية الوصول التاريخي لذلك الغريب: بحّار أبيض يستحوذ على الانتباه من خلال حركة باليد وكأنها تأمر وتنهي. ومن مظاهر السمو الدالَّة على أن وصوله كان ذا مغزى كبير وأنه هو نفسه ذا مكانة رفيعة. ورغم أن سفينته لم تتوقف إلاَّ لماماً غير أنه يركِّز على المياه لما لها من أهمية وتصور بأمواجها وأسماكها بطريقة غنية بالتفاصيل. 125

ولا داعي للتأكيد مجدداً أن أبطال البحارة في مشهد الوصول هم أصحاب ـ لحى ـ مثل «الإله الأبيض» من أساطير

ما قبل الغزو. ويكمل الفنان فكرة صورته ـ متوخياً الدقة ـ بصورة رمزية منقوشة نافرة تأخذ حيِّزاً بالقدر الذي يأخذه وجه البطل. وتتكوَّن هذه الصورة الرمزية النافرة من شريطين عريضين موضوعين فوق بعضهما بحيث تجعل حتى المراقب السطحي يشعر، وبسبب البساطة المؤثرة لها، أنها لا تظهر إلاَّ في إطار تصوير الحكام. ويفهم من الرمز «كاآت» معنى «العابر»[179] وبهذا إشارة واضحة جداً على عبور الأطلسي.

ونفس الصورة الرمزية النافرة يحملها سبَّاح على جسده، الذي يستطيع على الرغم من قيامه بسباحة «الكراول» أن يجد فرصة لرفعها للأعلى علامة على السمو والرفعة. وسبَّاح آخر له لحية كاملة لم يجد غيرها علامة تميِّز رفعته.

126

128,127

ولا يتبيَّن من صورة السبَّاحين أن الموضوع يتعلَّق بصورة لفنٍّ من فنون الحياة فحسب، وإنما عملياً بدوافع فردية عن أسطورة الوصول، وهذا لا يتوضَّح من السياق بل من المادة الثمينة التي يعرض عليها السبَّاحون ـ وهي اليشم. إن لحظة الوصول في التاريخ الأمريكي تعتبر نقطة حاسمة، ونقطة انطلاق، وأول قمة تحظى بالاهتمام الكبير ـ حتى بالنسبة لفناني مرحلة ما قبل كولومبوس. وفي ضوء هذه الأهمية يجري تصوير كل تفصيل عن الوصول الأسطوري للبحارة الأغراب بطريقة تليق بهم ـ وحتى اللحظات الأخيرة قبل مغادرة البحَّار الغريب سفينته كي يسبح باتجاه اليابسة.

5 ـ الكتابة واللغة

تنامت في عصر الإعلام الثقة في الكلمة المكتوبة بشكل كبير ـ أكبر مما كانت عليه في أيام العالم الدكتور فاوستوس*، الذي أطلق العنان آنذاك بطريقة تهكمية على عدم ثقته بالكلمة المكتوبة قائلاً: «إذ أن ما بحوزة المرء من مخطوط، يستطيع أن ينقله معه بارتياح إلى بيته»[180]. ولا تزال القاعدة الرومانية القديمة سارية المفعول إلى أيامنا هذه: «ما لم يكن مكتوباً لا محل له في العالم». ولذا يبدو السؤال ملحاً، ويطرح بشيء من الاستفزاز، عن الشواهد الخطية لأسلاف كولومبوس في العصر القديم. وهذا السؤال مبرَّر، ذلك أنه حتى لو كان الفينيقيون ليسوا هم من اخترع أحرف الكتابة، إلاَّ أنهم كانوا قادرين عليها[181]. وليس في الأمر غضاضة أو طلب منهم تقديم إثباتات وشواهد خطية. وعلى الرغم من أهمية آثار

(*) الدكتور فاوستوس ـ أهم الأعمال الأدبية التي ألّفها الأديب والفيلسوف الألماني يوهان فولفجانغ غوته ـ وتعالج في بدايتها تبرُّم العلماء في العصر الوسيط من أداء العلوم (المترجم).

الكتابة واللغة في العصر القديم في أمريكة ما قبل كولومبوس، والتي لا يختلف عليها اثنان، فإن الإيضاحات المتعلّقة بهذه النقطة عن قرائن سيرورة الحياة الثقافية لم ترد إلاّ في هذا الفصل؛ لأن الأولية كانت من نصيب العلاقات الثقافية التاريخية، والحقائق التاريخية والبيئية الفكرية والإمكانات الفنية للبحارة القدماء. وبعد استعراض الخلفية الثقافية التاريخية الشاملة يبدو الحديث عن التشابه والتطابق اللغوي بين العالم القديم والحديث ذا معنى ليحظى بالاهتمام والتفهم.

وكنا قد أوردنا الخطوة الأولى في البحث عن الآثار اللغوية لدى الحديث عن فصل «الآلهة والأبطال» وأوردنا اسم الإله الفينيقي بعل، الذي كان في المنطقة الفينيقية اسماً عاماً يشير فقط إلى السيد «الإله» ذاك الذي يقع بحمايته السحرية جبل أو مكان أو شخص. وبعدها أصبح بعل من أهم «سادة» الفينيقيين أي «آلهتهم». وكما ذكرنا سابقاً، فلقد كان «المايا» يعرفون الإله «بعل» هذه الكلمة التي تحمل معنى «سيِّد»[182]. ومن أهم الأشخاص والأماكن التي وضعت بحماية بعل وألصقت مسمياتها به، هناك «هاني بال» و«بعلبك». وثمة أسماء أقل شهرة إلاّ أن لها أهمية كبيرة في البحث عن الآثار التي نحن بصددها. ولهذا لا بد من إعطاء لمحة موجزة عن تاريخ البيت الفينيقي.

من ضمن ملوك صيدا وصور الذين وضعوا أنفسهم بحماية بعل كان أبي بعل، علي بعل، وايت بعل. وهذا الأخير سمَّى ابنته باسم هذا الإله. اسمها ايشابل (ايشابل - إيزي بال أو جيزي بل)[183]. وفي السامية الغربية ترد كلمة «ايشا» بمعنى «سيِّدة»؛ ولهذا كانت ابنة الملك «السيِّدة» (تحت حماية) بعل. ولعبت أيزابيل دوراً في التاريخ لأنها تزوَّجت الملك آهاب (القرن التاسع قبل الميلاد) ثم ما لبثت أن قامت بترويج الديانة الفينيقية في مملكته. وبعدها تزوَّجت ابنتها ملك يهودا وسعت بدورها إلى نشر العبادة الفينيقية في يهودا. وكما استطاعت ميليسا، امرأة أخرى من نساء البيت الحاكم في صور، وبطريقة أخرى أن يكون لها اسم في كتب التاريخ: لقد أسَّست مدينة قرطاجة على ساحل إفريقيا الشمالي إلى حيث اضطرَّت أن تهرب من أقربائها في الساحل المشرقي[184].

ما هو القصد من هذه اللمحة التاريخية أو بالأحرى في الميثولوجيا؟ أردنا من خلال ذلك التنويه إلى الدور الهام الذي لعبته إيزا - بيل في التاريخ الفينيقي وإلى حقيقة أن اسمها كان له وقع خاص لدى الفينيقيين بقي في ذاكرتهم حتى عندما كانوا في المناطق البعيدة. ويتأكد هذا الواقع عندما يصادف المرء اسم إيشا - بل في منطقة المايا. نعم، لقد كانت قبائل المايا تعرف إيشا - بيل. وكان إله المايا - كينيش عنده إيشا - بيل في

عائلته مثل ملك أهاب في فينيقية، مع الفارق في كتابة اسم أميرة المايا «اكشابيل»[185] آخذين بعين الاعتبار أن الحرف «اكس» في اللغة المكسيكية يلفظ «ش». وكلمة «اكش» في لغة المايا تلفظ «إش»، تماماً كما تلفظ في اللغة السامية «ايشا!» أي المرأة، أو «الأنثى»! وبإضافة بال إلى الاسم المركب يصبح الاسم في لغة المايا نفس معناه كما هو وارد في اسم الفتاة الفينيقية إيزابيل. إن هذا التطابق المزدوج ضمن الاسم المركب يمكن أن يقدم على أنه مقارنة لغوية مقنعة.

وعلى نفس المنوال يأخذ التشابه اللغوي في معنى آخر لم يكن مكتشفاً إلى الآن وهو «شيفيم». غالباً ما يجري الحديث في تاريخ المايا عن «شيفيم» الذي جاء من الشرق إلى منطقة المايا. يقول إرفين في سياق هذه الكلمة: «لم يستطع المرء تحديد الكلمة ولا منشأها»[186]. لكن سنعلّق على ذلك مؤكّدين، أن المقطع اللاحق «ايم» هو دلالة على الجمع في اللغة السامية الغربية الكلاسيكية. كانت قبيلة «شيفيم» معروفة في تاريخ المشرق في الألف الثانية قبل الميلاد. وذكرت «شيفيم» أو «شيفيتر» في التوراة بشكل متنوع في علاقة مع جيرانهم. ففي كتاب «الخروج»: «وتكلّم الرب إلى موسى: قل لأبناء إسرائيل السيِّد، والدكم ظهر لي، إنه إبراهيم واسحق ويعقوب». وقال «سأخرجكم من مصر البائسة إلى

أرض الأموريين، والكنعانيين والحثيين أو الفاريزيين، والشيفيتر والجوبيزيتر، الأرض الذي يجري فيها الحليب والعسل»[187].

ويكون التطابق اللغوي معنى: بأن الشيفيتر عاشوا مباشرة كجيران لفينيقيي الساحل المشرقي ولربما كان من ضمن طواقم السفن الفينيقية، التي كانت فيها جنسيات مختلفة، سفن الشيفتريين. على كل حال، يبدو في ذكر الـ «شيفيم» في نصوص المايا تبريراً بأن هذا الشعب لعب دوراً في تاريخ أمريكة قبل كولومبوس.

ثمة تناظر لغوي آخر: تسمَّى إحدى لغات المايا «شول»[188] ويتصادف وجود هذه الكلمة مع الكلمة السامية «كول» بمعنى «لغة» أو «صوت»[189]. هل هذا صدفة!

يمكن المضيّ في قائمة المتطابقات اللغوية للسامي والمايا. وكان العالمان اللغويان أرنولد لنيربرغ[190] وكورت شيلدمان[191] جمعا مئات من الكلمات. واعتمدت مقارنتهما اللغوية في الكلمات السامية على مفردات العهد القديم، كما جمعها يوليوس فورست في قاموس خاص بها[192]. وهما أوردا بالنسبة للغات المايا مجموعات من الكلمات من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحتوي على عناصر لغوية أوروبية أقل من التي تستخدم اليوم في لغة منطقة المايا[193]. وهي

تراعي التغيرات الصوتية والتصريفات انطلاقاً من التطور اللغوي عبر آلاف السنين الماضية.

لقد تم اختيار مجموعة من المترادفات اللغوية في القائمة التالية، فيها تطابق تاريخي لغوي بين اللغات السامية ولغات المايا قد لا يدركها إلاَّ المختص في اللغات. ورغم هذا سنقدِّم بعض أساسيات علم اللغة في هذا الشأن: إن الانتقال من (أو) إلى أي ـ هو شيء عادي؛ ونفس الشيء ينطبق على تبدل الحرف ب وبي إلى في. كما أن «ها» و«ش» «المهملة» متقاربتان في الأصوات. وتخضع الكلمة المبدوءة بحركة ونهايات الأحرف إلى استهلاك متزايد. ولا تعرف اللغات السامية الأحرف الصوتية. وحدها الأحرف الساكنة هي التي يؤخذ بها في المقارنة اللغوية. كما لا تعرف بعض لهجات المايا الحرف (ر) ويعوّض عنه مثلاً في الكلمات المقتبسة من خلال الحرف (ل). وكانت الفوارق بين لغات المايا قبل 3000ـ 2000 سنة أقل أو بالأصح لم تكن موجودة. لذا لن تتم مراعاتها في المقارنة التالية بين السامية والمايا.

وأحياناً تتغيَّر على مرِّ الزمن طريقة الكتابة أو معنى الكلمة. المثال الحديث في اللغة الأوروبية هي كلمة «كيكين» و«تشيكن»*.

(*) كيكين في الألمانية تعني صوص وفي الإنكليزية تعني تشيكن (المترجم).

لغة المايا المنطوقة	اللغة السامية المنطوقة	المعنى بالعربي
يم	يم	البحر، الموجة، الزبد
ألم	ألم	رجل/ ابن
كوبا ـ كوب	كافا	يلوي
شاك	شعق	زغق
موك	موكش	عقدة
بم	بيما	سمن/ سمين
أوب	أفا	خبز/ طبخ
ناهال	ناخال	ملك ـ كسب
هول ـ هولول	غالال	ثقب
بات	بيت	منزل
اشي	إشا	امرأة
اشا هان	إشا شام	حماة/ والدة الزوجة
أختان	خاتان	زوج
سوكون	ساكن	رجل عجوز
مكيل	ماكار	قريب
بال (ل = ر)	بار	ابن
إن	أني	أنا
أت	أتا	أنت
كوتين	كاتان	صغير
تشابال	شافال	واطىء
دزابال	زبال	وسخ
شآن	شأن	عمل بيطء
تاك، شيكال	تاكا	ضرب، وضع
تسيل	ذليل	انخفض
ناكال	ناشا	ضرب
توك	تسوج	منطقة
كيعش	كوتس	شوكة
ماليل	ماليل	مساء

لغة المايا المنطوقة	اللغة السامية المنطوقة	المعنى بالعربي
موك	ميك	شكل، قشرة/ غطى
لهش	لهث	لهب
خيل	خائيل	مجموعة/ سائل/ ماء
بوتاه، بات	باتاخ	فتح، اقتحم
آشك	اشك	ضم
شاك	ساك	سلة
هام، أم	هيما	عنكبوت
كيمي	كامل	قتل/ ميت
أوتش ـ أوش	أوش	عث/ قمل
ماتي	ماته	مط
ليك	لالاك	لعق
كاب	كف	يد
بتيل	بتول	محارب/ بطل
زال	زال	بشع
دزاباك	تسيفاخ	أعطى
فاكاكس	باكار	بقر
كال	كول	لغة
آل	أول	ثقل
تشيك	تشوك	خطوة
أهوا	أهاب	قوي/ ملك
كاشا	كاشار	رباط
يوهيل	باخول	يستطيع
بوه	بواخ	ينفخ
بعش	بشخ	يحطم
بت	باتات	كسر
ام	ام	أم/ صدر
كيل (ل ـ ر)	كار	بارد
ياخيل	ياليل	يشكو

لغة المايا المنطوقة	اللغة السامية المنطوقة	المعنى بالعربي
كاب	شوفيف	ضغط
تشاؤول	شائل	ناقش
أميك	اميك	عميق
مابال	نافال	احتقر
لوكسول	زوليك	غطس
كابل	كافيل	اثنان/ مزدوج
ماهال	ماخاك	ألفى/ محق
تاك	تاكا	تبت
شوبول	سوف	أنهى
كسل	كاسيل	مجنون
تيك، تيكان	تيكان ـ تاخن	أسس
تليل	تائيل	أطل/ وصل
هوناك	إيناك	كثيراً جداً
تشيششاك	تشافيك	ضحك
تساب	شاميف	أشعل
اينا	هينا	هنا
بياتا	باتا	أغوى
إله	أله	سما ـ ارتقى
باي	بي	فم
هدم	هامام	ضجة/ صخب
بوتول	باتيل	حطم/ ثقب
باكبوك	باكبوك	وعاء
ياوم	باخام	حامل
شول	شالا	سحب
بيتوم	بيتوم	سريع/ مدور
بول	بول	الزد
أباك	اناك	غبار/ هباب
هوم: آه هوم	خوما	حائط، وادي

لغة المايا المنطوقة	اللغة السامية المنطوقة	المعنى بالعربي
باتس	بسياخ	قطع
اتسات	ايتساء	حكيم
بونه	يوناك	رضيع
اتوب	توب	جيد ـ طيب
ليك	لاكاك	لعق
تسيري	تسار	عدو/ سيِّىء
تاها	تسوها	براز
كيتام	كاديم	سابق
ميل	ميليل	تحدث
روك	أروك	طويل
ليكاب	لاكاب	لهب
تساكول	ساكيل	حزر
شاما	شامال	شمال
نوهيل (ل = ر)	ناهاز	جنوب

ليس، «التأكيد للنقطة نفسها» فحسب، وإنما تجانس الكلمة ضمن مجموعات الكلمات يدحض الظن بأن المقارنة اللغوية الواسعة لم تكن سوى صدفة أو تشابهاً عَرَضياً. ولكننا لا نفسح المجال لإثارة سوء تفاهم، ولا يمكن أن يكون القصد التأكيد على أن لغة المايا كانت لغة سامية. فحين جاء «الغرباء» إلى أرض الهنود الحمر كان من المحتمل أنهم واجهوا القادمين ذوي اللحى الطويلة والمزودين بالعلم الواسع بنوع من الصمت. لكن الهنود الحمر لم يكونوا دون لغة. ما جرى هو اقتباس لتعابير إفرادية من قبل الأمريكيين القدامى من لغة

«الأغراب»، بحيث وجدت المتشابهات جزئياً وإفرادياً. ومثل هذا التداخل اللغوي يمكن تأكيده في مناطق لغوية أخرى وفي كل الأوقات.

وبعد هذا العدد الكبير من «عناصر الأثر» اللغوية سيقدّم الآن عرض لنصوص أكبر متصلة مع بعضها. وجدت نصوص قديمة من العالم القديم في الزمن قبل كولومبوس في القارة الأمريكية وبأعداد كبيرة. ففي القرن الماضي بشكل خاص الذي ولدت فيه كتابة التاريخ الحديث وبرز اهتمام جديد بالحضارات القديمة عثر على العديد من النقوش الصخرية في الأرض الأمريكية كنتيجة لحملة بحث هادفة. وإلى الآن لم تحل رموز القسم الأعظم من الكتابات التي عثر عليها أو أنه لم يجر استقصاؤها بشكل كاف. واستهل المرء الأمر معتبراً اللقى الكتابية على أنها «مزورة» أو غير صحيحة، أو أحياناً على أنها طبيعية. لكن يداً غير بشرية نحتتها في الصخر.

استأثرت منقوشة كتابية بالاهتمام منذ عام 1872، جاعلة العلماء ينقسمون بشأنها، ونقصد بها منقوشة باريابل في البرازيل، التي يجب أن تذكر كأول منقوشة كتابية من مجموعة النقوش من العالم القديم فوق الأرض الأمريكية، ذلك أنها تذكر أيضاً إله الفينيقيين بعل، وهي مكتوبة بالعبرية القديمة! اللهجة القريبة من الفينيقية، وبالأحرف الفينيقية. ومن الجائز

أن يعود تاريخها حسب الخط واللغة إلى القرن السادس قبل الميلاد[194].

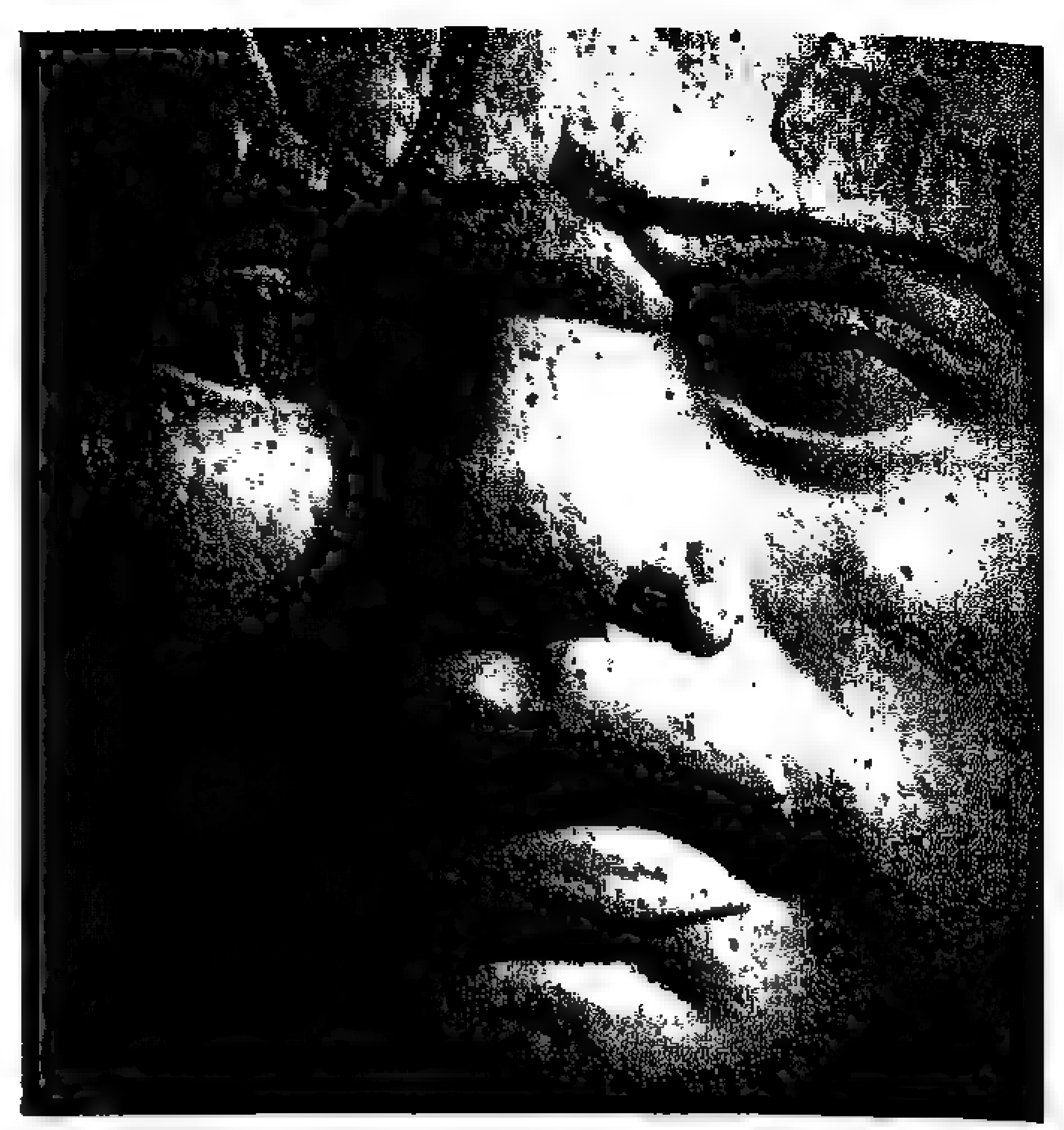
وكان المختصون في لغات الشرق الأدنى وكتاباتها، الأساتذة سيروس جوردن، وأولاف مونجة، وليـنهاردت ديليكات[195] توصَّلوا سوية إلى الترجمة التالية للمنقوشة الحجرية: «نحن أبناء كنعان من صيدا: المدينة التي أصبح فيها تاجر ملكاً. أرسلنا إلى هذه الأرض البعيدة، بلاد الجبال. وضحَّينا لآلهة السماء بشاب عمره 19 عاماً من حيرام لمليكنا أبرا. أبحرنا من أزيون جيبر على البحر الأحمر بعشر سفن، وبقينا في البحر سنتين وأبحرنا حول إفريقية، وبعد افترقنا بيد بعل، ولم نعد سوية مع زملائنا. وهكذا وصلنا إلى هنا وكنا اثني عشر رجلاً وثلاث نساء، إلى هذه الجزيرة غير المأهولة، لأن عشرة منا قضوا نحبهم.

«يا أبرا، فلتحرسنا آلهة السماء»![196]

ولو قارنا المعطيات في هذه المنقوشة مع إطارها الزمني، مع وصول الفينيقيين إلى البرازيل، لتأكدت عندئذ صحة النص. ولا ينتج عن تراتب المعطيات المختلفة بالنسبة للحقائق التاريخية أية تناقضات أو مخالفات. فالبحارة يذكرون اسم ملكهم حيرام. وثمة ثلاثة ملوك فينيقيين بهذا الاسم على مدى القرون. لكن حسب الخط، واللغة وخصوصية النص، يمكن أن يكون المقصود هو حيرام الثالث، الذي بدأت سنوات



74



75



76

74. راس ضخم من الحضارة الألميك
(1200 ـ 800 ق م/سان لورانس/المكسيك).

75. رأس ضخم من حضارة الألميك
(سان لورانس/المكسيك).

76. شكل من الألميك بملامح مونغوليد
(لافانتا).

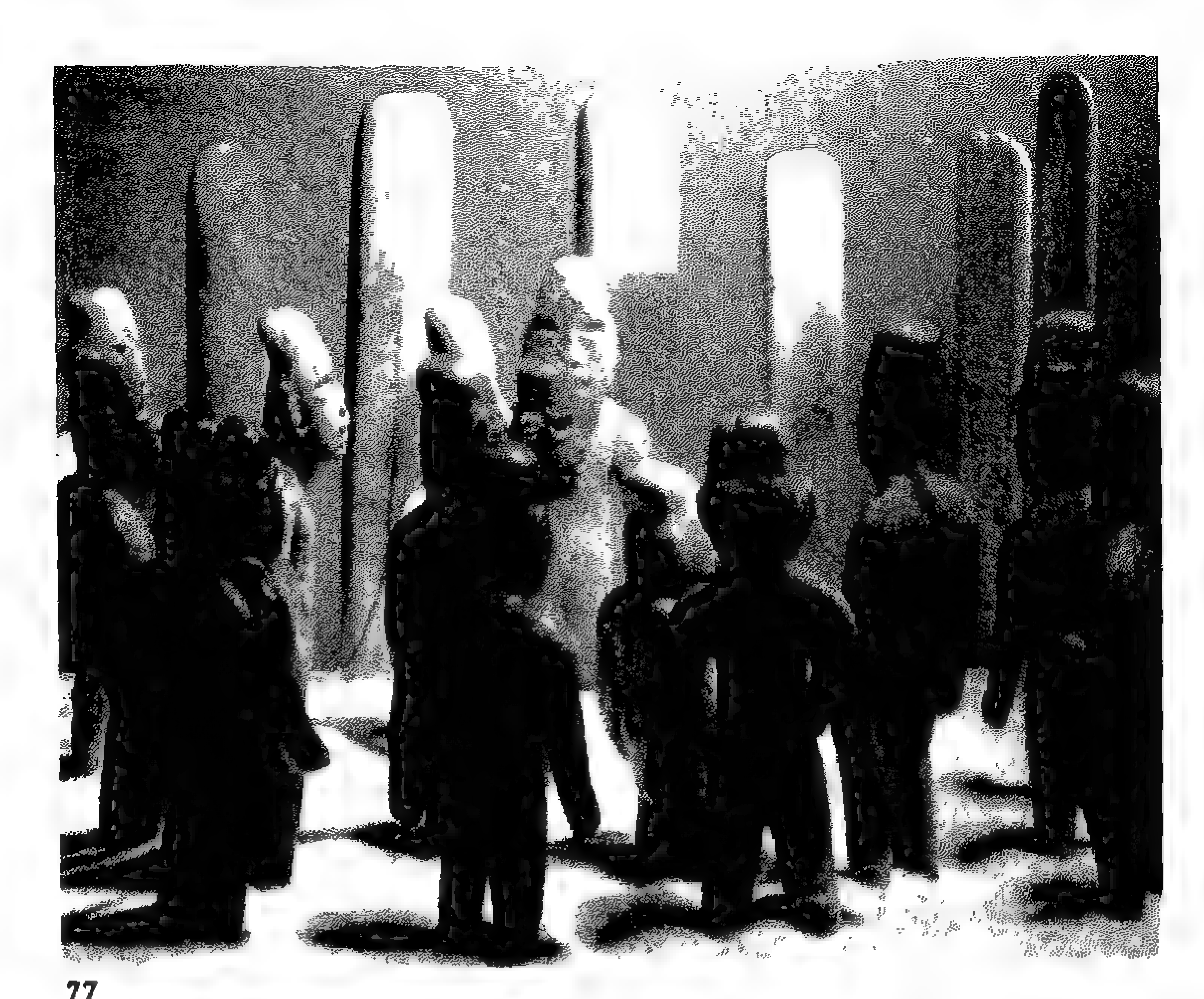
77. مشهد الستة عشر رجلاً برؤوس مشوهة وخلفهم الشواهد.

78. مشهد عبادي من الشرق الأدنى وبه شواهد (القرن 13 ق .م).

79. قناع من اليشب لوجه ذي ملامح أوروبيد (بالبينك / المكسيك).

80. قناع لميت من رقيقة ذهبية (البيرو).

81. قناع لميت من رقيقة ذهبية (فينيقية).



77



78



79



80



81


82


83


84

82. شكل فخاري لكاتب (شياباس / المكسيك).

83. عملة معدنية فينيقية من بيبلوس (340 ق .م).

84. تميمة لراس الإله الفينيقي القزم بيس.

85. شكل من حجر رملي للإله الفينيقي القزم (فينيقية).

86. الإله القزم بس وله محيا بلحية وجلد حيوان على كتفه (فينيقية).

87. قزم بلحية كثة وجلد حيوان على كتفه بيس (غواتيمالا).

88. راس لمجسم بلحية (كيريرو /المكسيك).


85


86


87


88

89. هومبابا بتجاعيد كثيرة وعلامة على الجبين.

90. قناع الجنّي هومبابا بتلافيف الأمعاء (بابل).

91. قناع بكثير من التجاعيد وعلامة على الجبين (منطقة البحر المتوسط).



89 90

92. قناع بتجاعيد كثيرة دون علامة على الجبين.

93. قناع بتجاعيد كثيرة عميقة وعلامة على الجبين (تلاباكويا / المكسيك).

94. قناع بتجاعيد كثيرة (شياباس / المكسيك).

91 92









93 94 95

95. قناع بتجاعيد كثيرة (كولومبية).

96. رأس بتجاعيد كثيرة وعلامة على الجبين (أوكساكا / المكسيك).



97. حورس في زهرة اللوتس (جانيا / المكسيك).

98. حورس في زهرة اللوتس (نمرود).

99. شاهدة حورس مع الإله القزم بس والتماسيح.

100. الإله من العالم القديم بتاج – باتيكو مع الزواحف.

101. إله أمريكي قديم مع الزواحف (فيراكروز).

102. إله مع الزواحف (المكسيك).

97



98





99





100



101



102





103 104

103. إلـه مشـوه بتـاح ـ باتيكو (قرطاجة).

104. إلـه مشـوه للأالمـيك منـطـقـة (الأالـمـيـك/ المكسيك).

105. يد ممدودة مع سوار وحلـيـة فـي وسـطـهـا (آشور).

106. يد ممدودة مع سوار (قرطاجة).

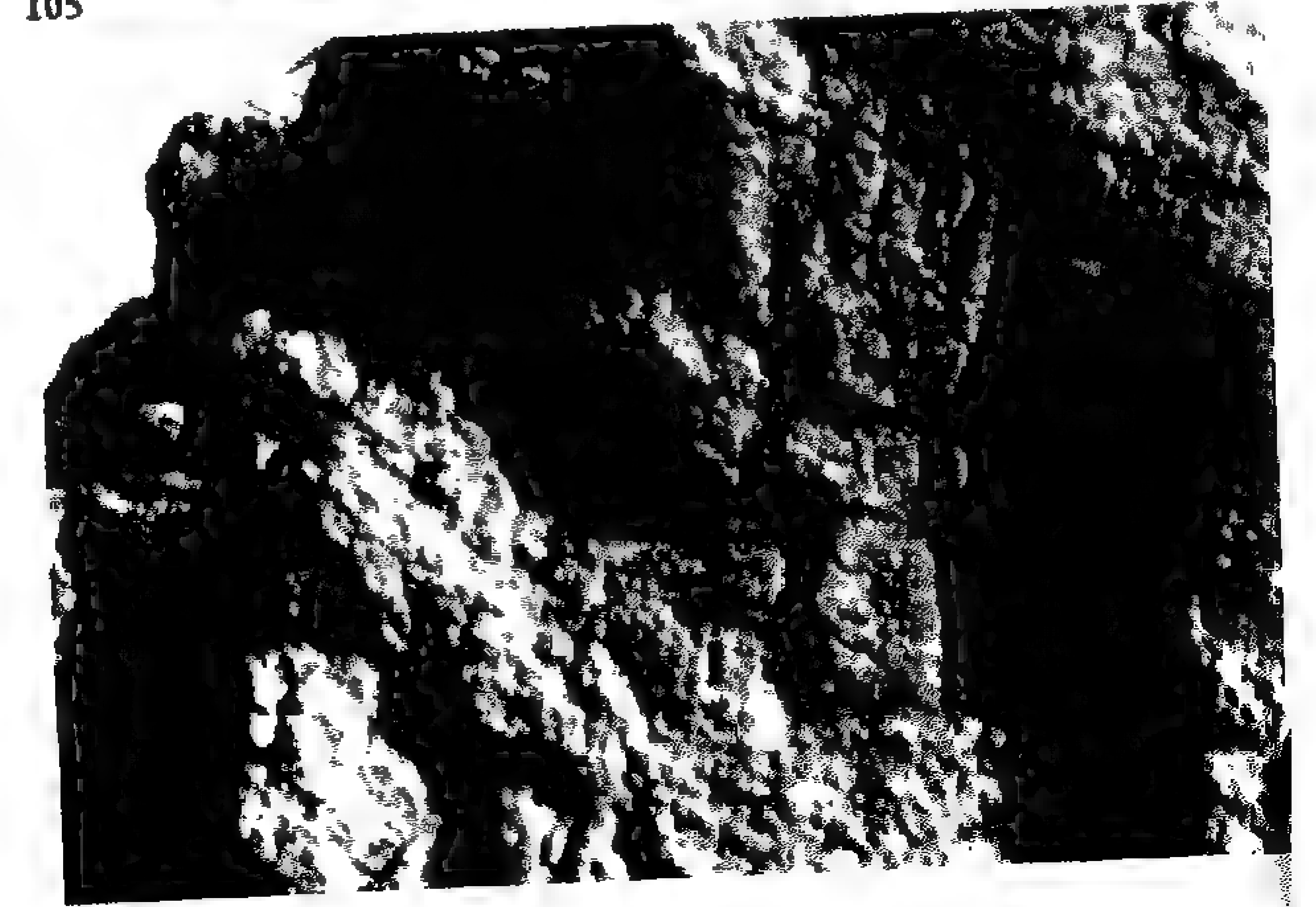
107. يد ممدودة مع سوار كـالـكـا تـسـتـيـنـجـو/ المكسيك).



105



106



107

108. شكل مجنح ورأس أسد (قبرص).

109. شكل نسائي بأجنحة وجسد حيوان (الإكوادور).

110. إله النسر (حورس) بجناحين مزدوجين (الشرق الأدنى).

125. شاهدة من الألميك/ إله الأمواج.

126. سبّاح وعليه رموز الرفعة من اليَشْب الألميكي.

127. سبّاح وله لحية على نقش حجري (أوكسككا/ المكسيك).

128. سبّاح على نقش حجري (البان/المكسيك).







108

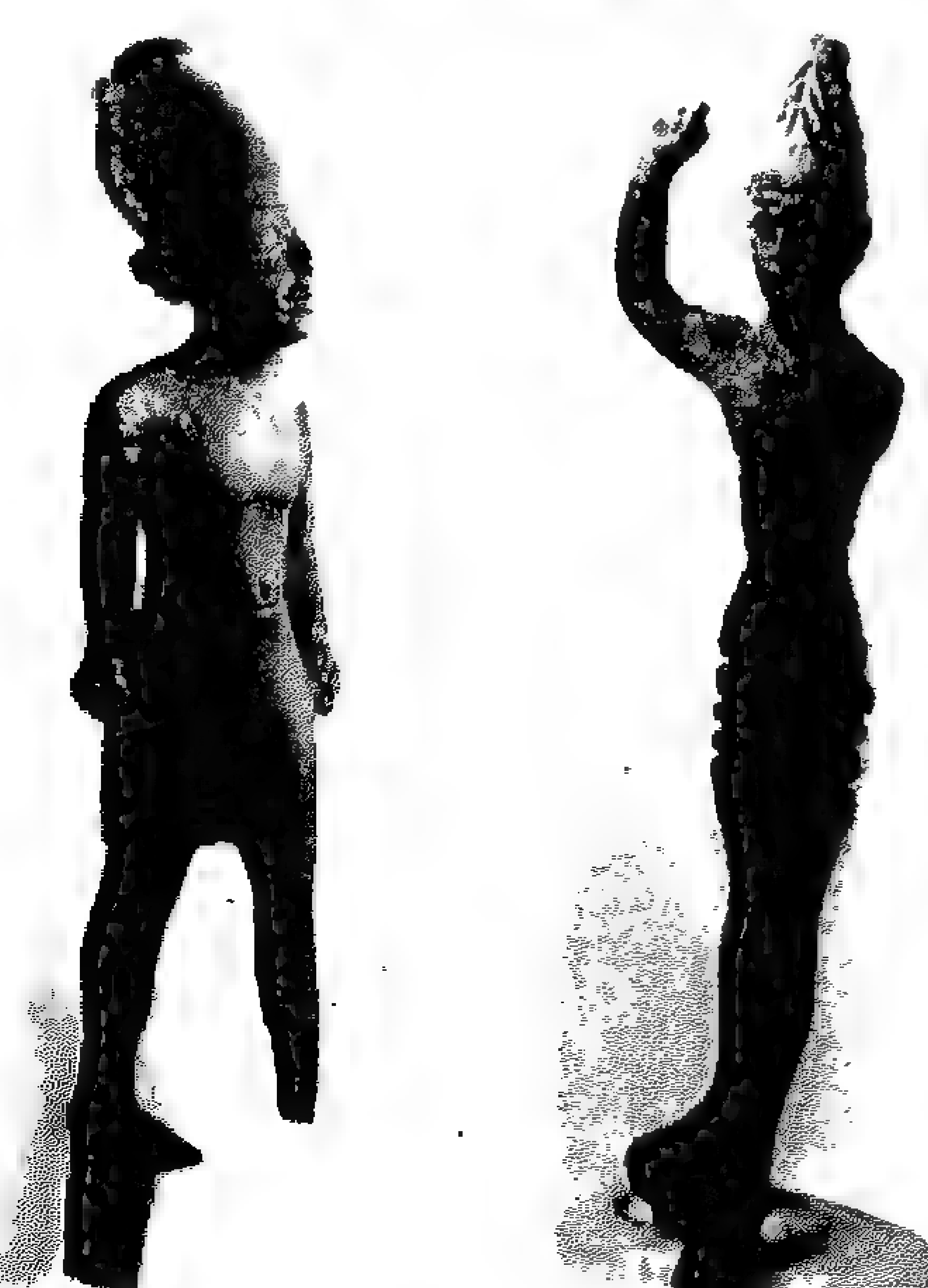
109



110



111



112

113



114

115. مارتين والشحاذ (صورة من القرن السادس عشر/المكسيك).

116. رأس حجري (الباعول/غواتيمالا).

117. شكل له لحية وعلى جبينه علامة (وسط أمريكة).

118. الإله الأبيض الملتحي (الأفعى المجنَّحة - فيراكروز).

119. إله وعلى طاقيته رمز.


115


117


116


118



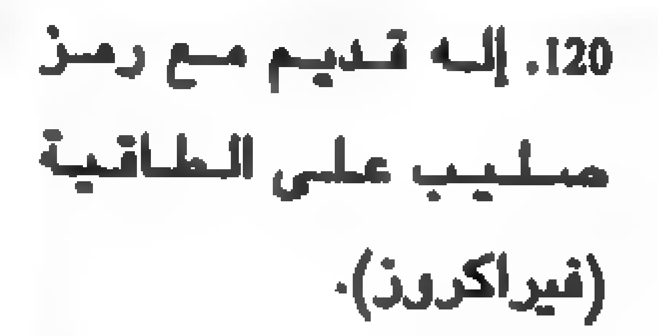

120


121


122


123


124



120. إله قديم مع رمز صليب على الطاقية (فيراكروز).

121. إله أوروبيد مع رمز صليب على الجبين (فيراكروز).

122. راس حجري (إله قديم) (كوبان/غواتيمالا).

123. إله قديم ملتح (وسط امريكة).

124. إله قديم ملتح (بالنيك/المكسيك).

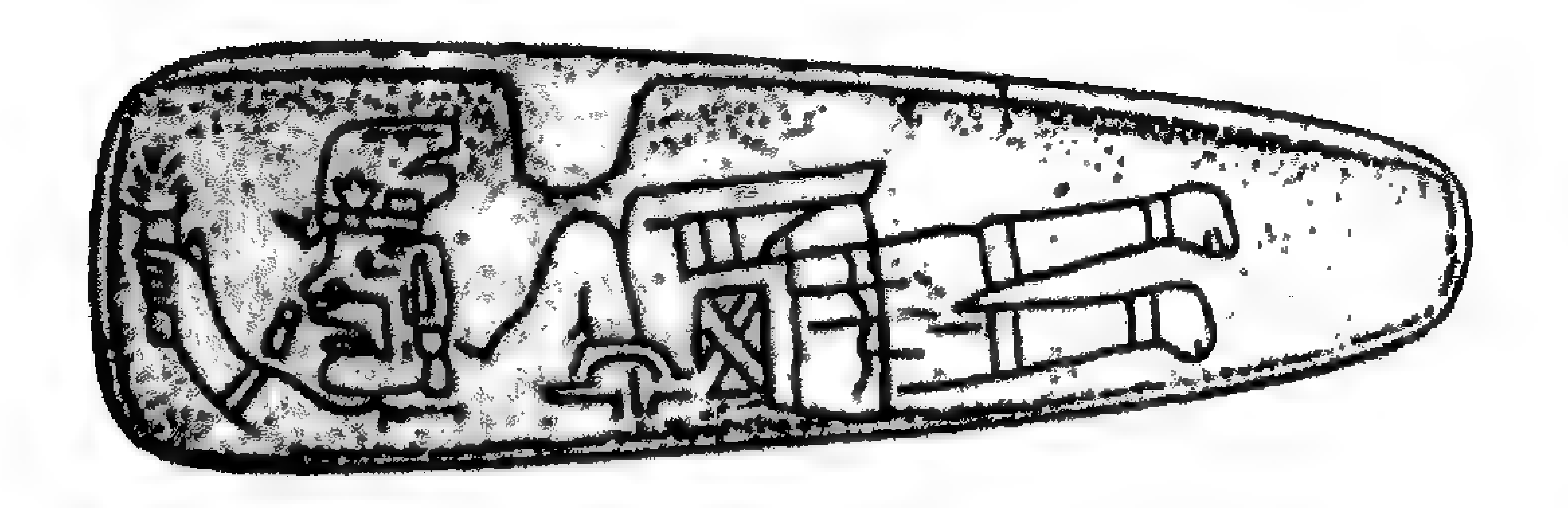
111. الإنسان الطير بجناحين مزدوجين (فيلاهيرموزا/ المكسيك).

112. تمثال وعليه غطاء رأس عال ومتناسق (كاديش).

113. غطاء رأس عال ومتناسق (الشرق الأدنى).

114. غطاء رأس عال ومتناسق (كويريرو/المكسيك).

125



126



127



128

129. نقوش لغوية قديمة (تينيسي/الولايات المتحدة).

130. نقوش ديبرية – بونية (باراغواي).

131. نقش ثنائي اللغة (كلتي – بوني) (أوكلاهوما/الولايات المتحدة).



129

130

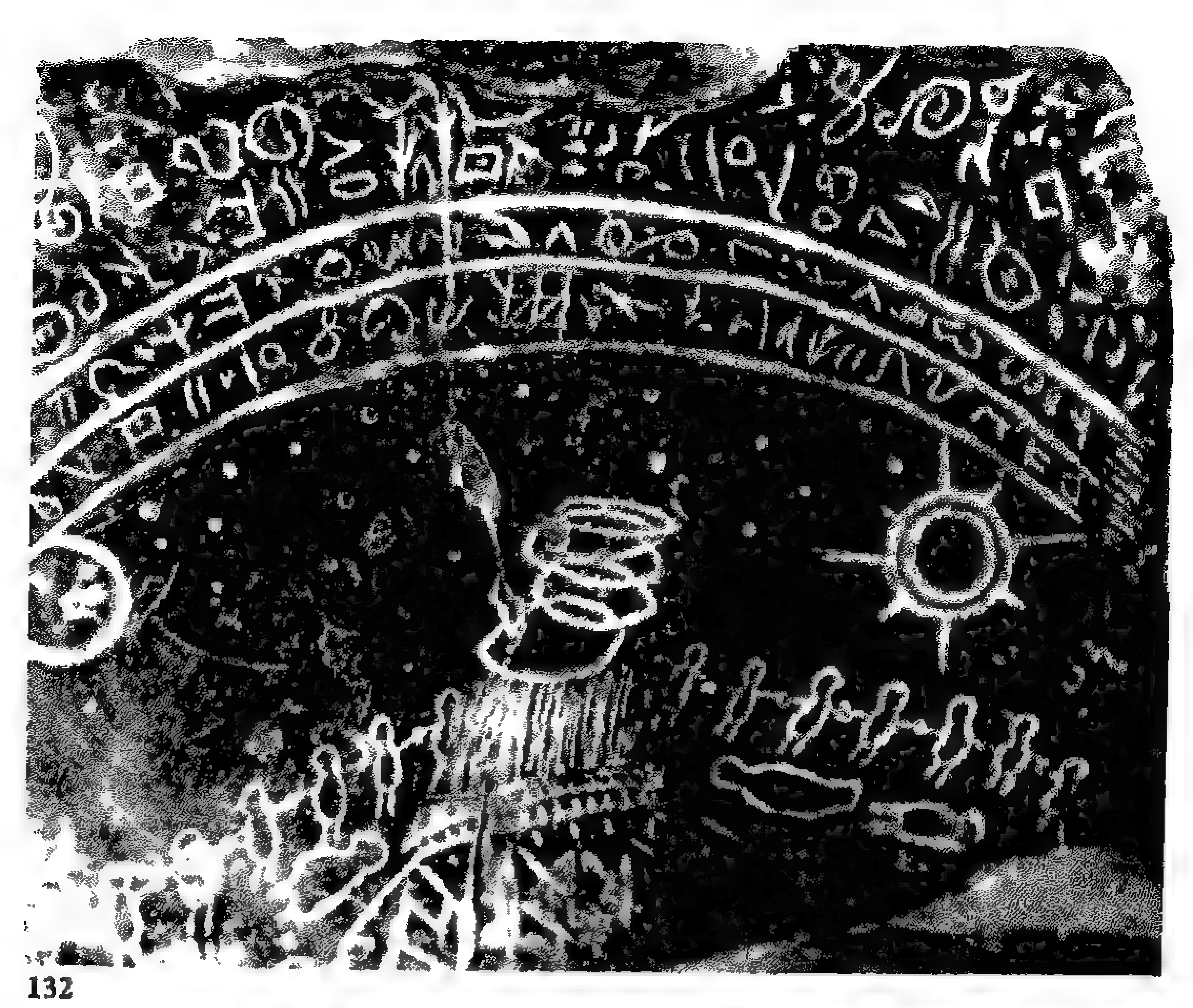


131

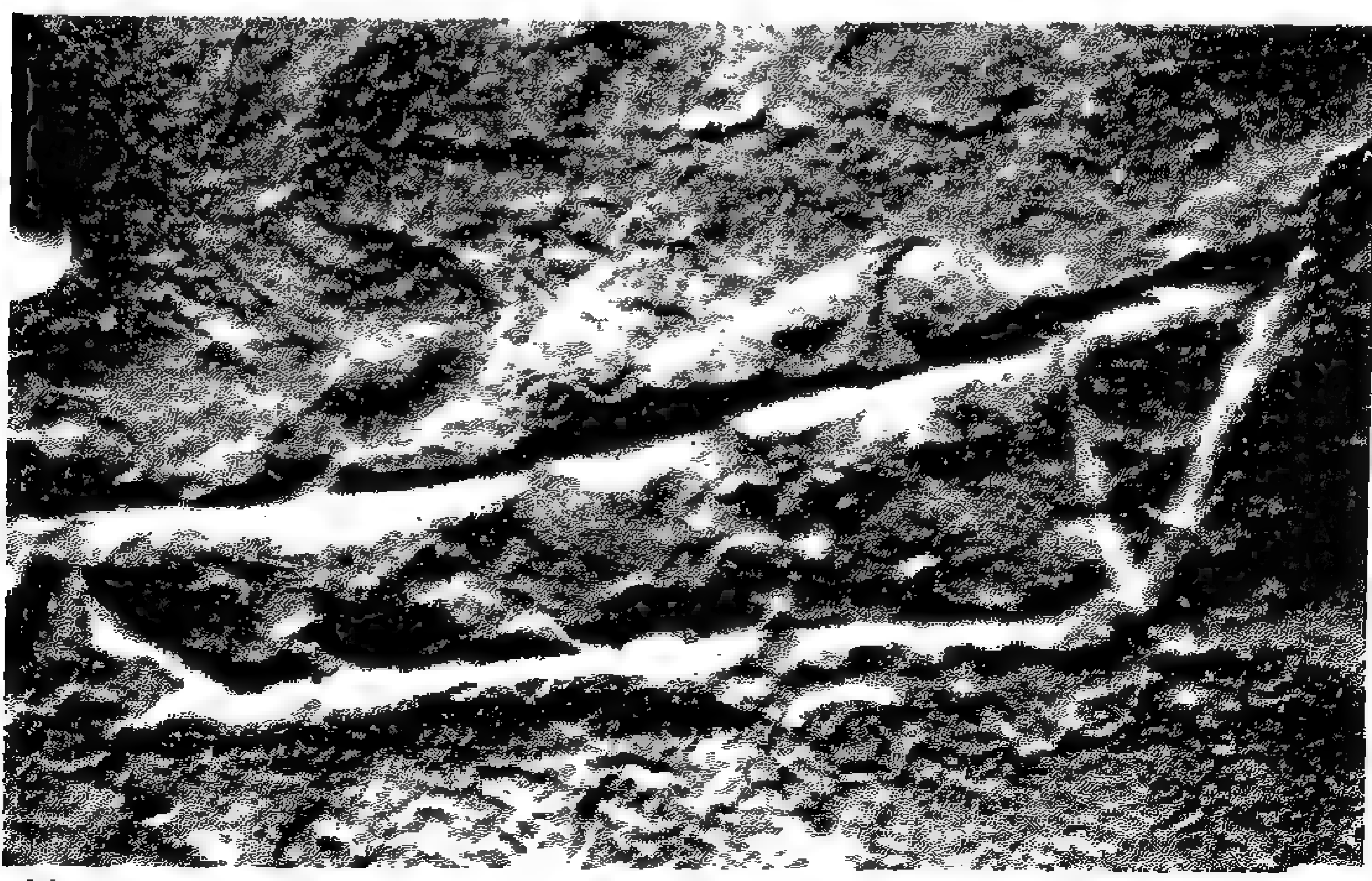
132. شاهدة التقديم (دافن بورت إيوفا/الولايات المتحدة).

133. نقش للغة الأغمية الكلتية (فرمونت/الولايات المتحدة).

134. نقش حجري إيبيري (رودي/إيسلاند/ الولايات المتحدة).


132


133


134

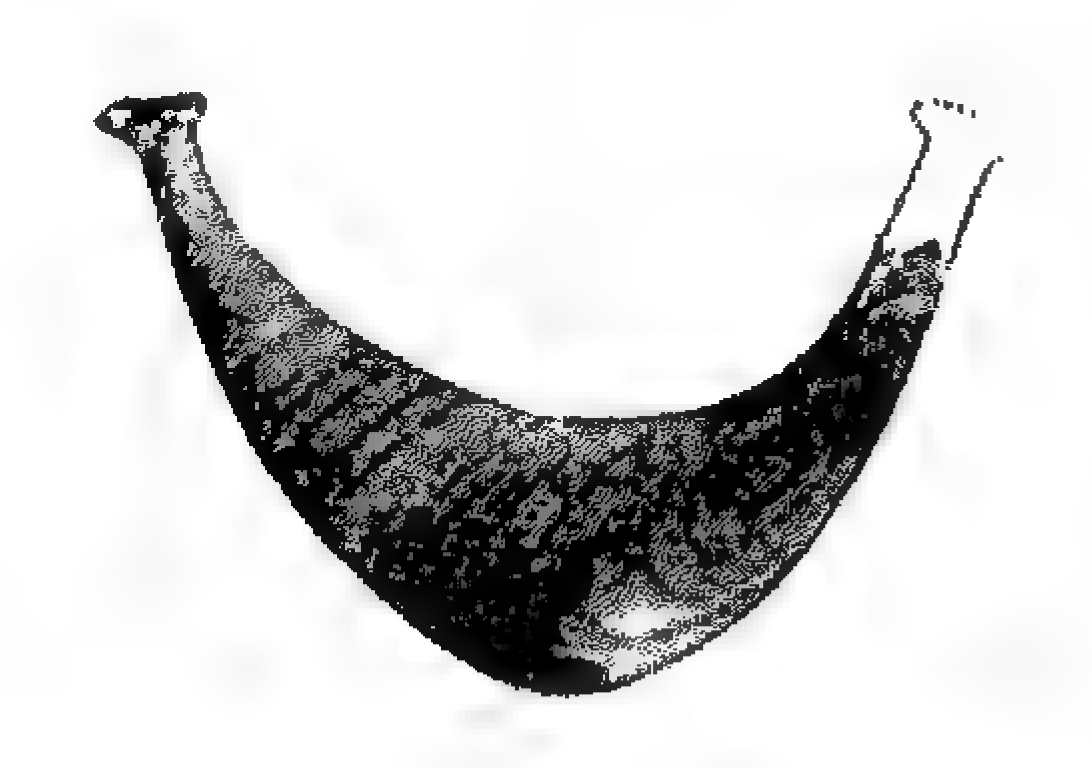
135. الرموز اللغوية من شمال إفريقية وشمال أمريكة.

الحرف	نقوش تونسية وليبية	نقوش من ليبيا وجدت في أيوا الأمريكية	نقوش من ليبيا أخذها بحارة المحيط الهادي إلى الماوريون
b	⊙, ⊡	⊡	⊡
g	V, Λ	V	Γ
d	⊏	⊧	⊏
w	ǁ	ǁ	ǁ
z	⊓⊓, —	ı⊓⊓	—
ṭ	⊓⊓, ≻—	ᘏ	⊓
k	↿↾		↓, ↓↓, ↿↾
l	=, ǁ		=, ǁ
m	⊔	U	U
n	ǀ	ǀ	ǀ
r	O, D, □, ◖	O	O, □
š	⋀⋀	⋀⋀	
ʌ, '	•, ◁	•	•,)
t	X, +	X	X, +

135



136



137



138

136. مصاغ صدر من جزر الأوسترن.

137. مصاغ صدر من شمال أمريكة.

138. مصاغ صدر من مصر مع رأس الإله رع.

139. الهيروغليفية المصرية ولغة الميك ـ ماك.

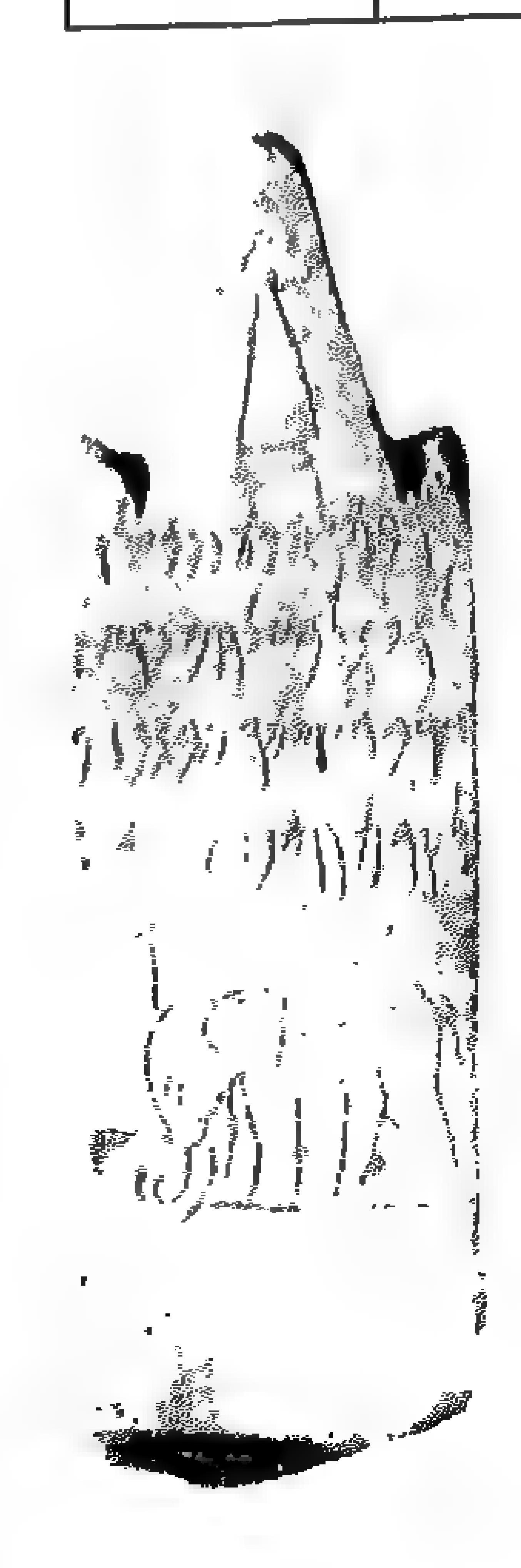
المعنى	ميماك	مصري قديم
رجال		
تيس غنم		
فم		
ذَهَب حركة		
ساري		
سوف		
وأيضاً		
خارج		
هم، أنتم		
أنا خاصتي		
أنت خاصتك		

المعنى	ميماك	مصري قديم
اسم		
جبال		
معدن		
فضّة		
ذهب		
حجر		
رمل غبار		
بحر		
نهر		
يشابه		
رموز		

139



140



141

140. لوح حجري وعليه خط ليبي (اكوادور) وصورة فيل.

141. رمز اليد وفي وسطها العين (الشرق الادنى).

المعنى	ميماك	مصري قديم
غنيمة الآن		
ماء مطر		
منزل مقدس		
الأرض الدنيا السفلية		
السماء		
يحرق حتى يصبح رماداً		
نار		
يقفز		
يخطئ		
ثمار		

المعنى	ميماك	مصري قديم
عشب		
يحفظ		
تحية		
بهاء شهرة		
شق صخرة		
كله		
تقديم الأضحية		
يرجف		
يحضر		
كامل		



143

143. رمز اليد وفي وسطها العين (الشرق الأدنى).

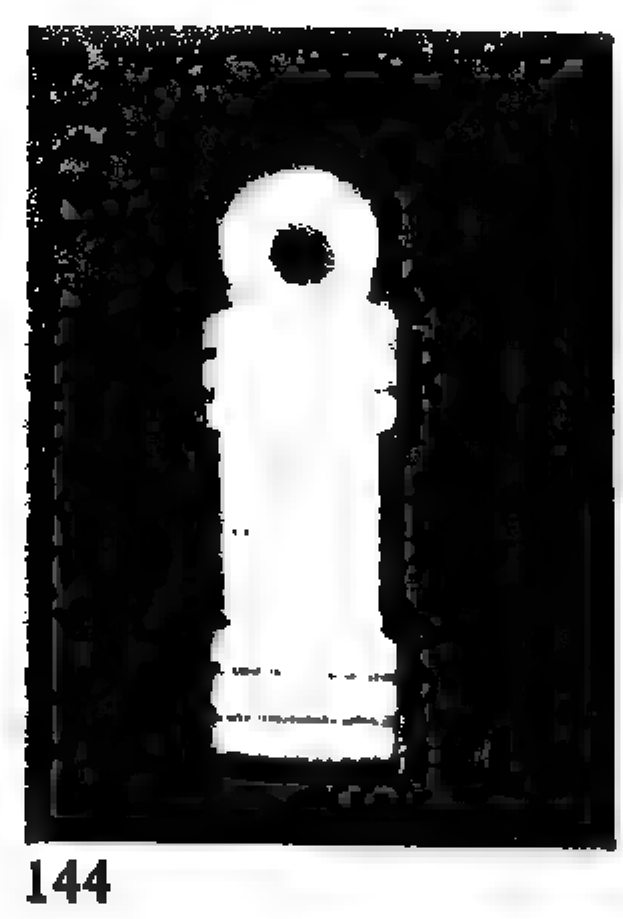


142

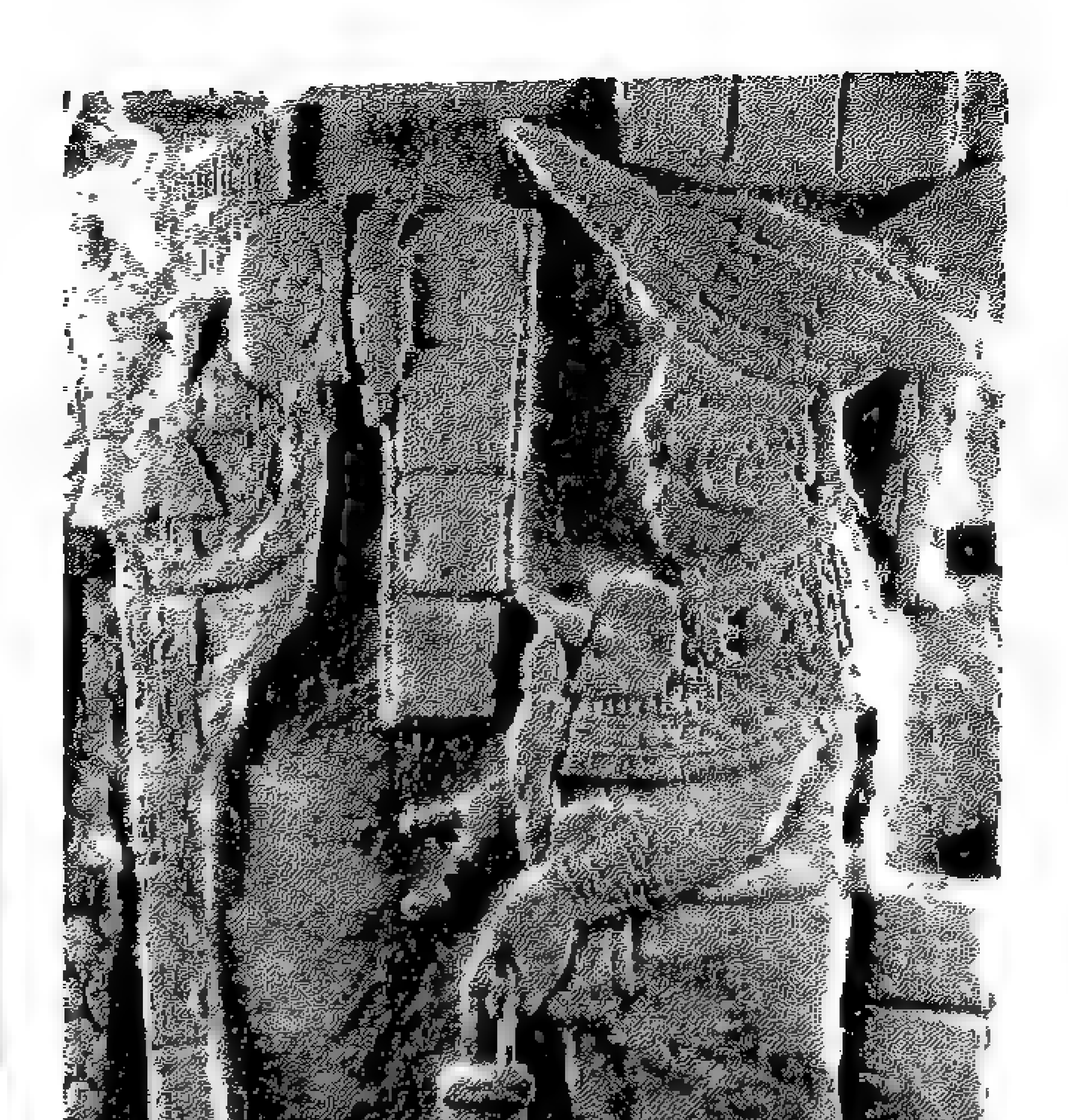
142. رمز اليد مع العين على مزهرية أمريكية قديمة.

144. مذبح نقّال (تميمة) «منطقة البحر المتوسط».

145. «بخّارة» مع مذبح نقّال (كابيشي/المكسيك).

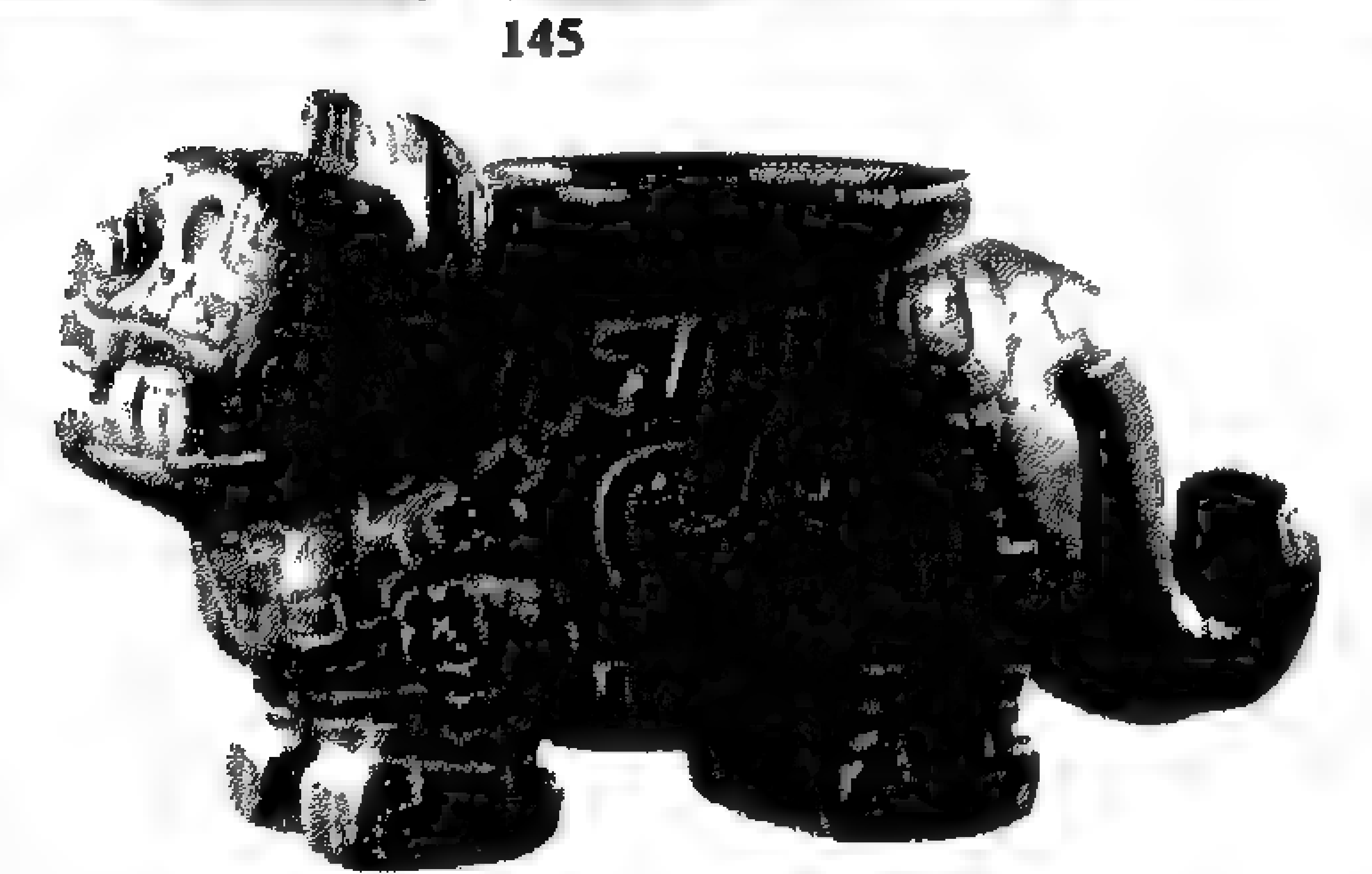


144



145

146. صورة مقدّسة لقطة متوحشة (شينان/البيرو).



146



147

147. صورة مقدّسة لقطة متوحشة (سورية/فينيقية).

حكمه التسعة عشرة في عام 532 ق.م. توصَّل إلى هذه المقولة عالم اللغة الأمريكي سيروس جوردون من جامعة براندلي وعليها يجري الاعتماد في هذا النص.

المرفأ المذكور ازيون جيبر في خليج العقبة كانت تجوبه السفن الفينيقية آنذاك بانتظام. وكان الملك سليمان الحكيم قد سمح للفينيقيين باستخدام هذا المرفأ في منطقته لأنه كان يأمل من خلاله التوصل إلى منافع سياسية وتجارية. ومن ازيون جيبر أبحر الفينيقيون باتجاه الهند وإلى البلدان الشرقية الأخرى.

لكن منذ عام 450 ق.م، بدأ المرفأ في اكتساب أهميته الكبيرة لخط أمريكة؛ إذ إنه في هذا الوقت أغلقت قرطاجة مضيق جبل طارق أمام أعدائها ومنافسيها. ومن ضمن المنافسين كانت تعد المدينتان الأم لقرطاجة، «صيدا وصور» اللتان لم تعودا تملكان القوة لكبح جماح المدينة، نظراً لنزاعاتها الحربية الحادة مع أعدائها الأقوياء في تلك السنين. وإذا أراد الصيداويون القيام بسفراتهم التجارية المعتادة الهامة لحياتهم إلى «الجزر النائية»، فهكذا لم يبق أمامهم سوى الطريق من خليج العقبة حول الرأس الجنوبي لإفريقية. ووقعت النقطة النهائية لعبور الأطلسي في هذا الخط بطبيعة الحال إلى الجنوب أكثر من الخط: جبل طارق ـ أمريكة الوسطى. ولم يكن هناك مناص من رسو السفن على الشاطىء المتعرِّج الممتد إلى الغرب باتجاه البرازيل (مثل بارايبا، حيث عثر على

المنقوشة الحجرية) بسبب الرياح والتيارات السائدة في جنوبي الأطلسي، أو أن رسو السفن كان محتملاً على الأقل.

وكما أن معطيات فترة الرحلة البحرية تبدو منسجمة ومتطابقة مع الواقع، نعلم من المؤرِّخين القدماء أن الرحلة إلى الهند ذهاباً وإياباً كانت تستغرق ثلاث سنوات[197]. وعندما كلف الفرعون نيشو، في فترة الانتقال من القرن السابع إلى السادس قبل الميلاد، الفينيقيين بالإبحار حول إفريقية لكي يستقصوا هذا الخط، عاد البحارة الظافرون بعد مضي سنتين إلى نقطة انطلاقهم[198].

تذكر التوراة: «بعث حيرام عبيده في السفينة، البحارة الجيديين، الجنيرين في البحر، مع عبيد الملك سليمان. وصلوا قبالة أوفير وأحضروا معهم أربعمائة وعشرين قنطاراً من الذهب، جلبوه للملك سليمان[199]. وعادت سفينة البحر التابعة للملك التي انطلقت مع سفينة حيرام بعد ثلاث سنوات وجلبت الذهب»[200].

إذاً، يمكن القول إن فترة سنتين لقطع المسافة بين أزيون جيبر إلى البرازيل يمكن أن تتطابق مع واقع الفترات الزمنية تلك. ثم إن ذكر التضحية بشاب من طاقم السفينة ليس شأناً غير عادي، فالتضحية البشرية كانت مألوفة جداً آنئذ. ويشير سايروس جوردون في هذا الخصوص إلى أن يونس المذكور في التوراة قد ألقى به زملاؤه من سطح السفينة لكي يخففوا من

حدة العاصفة بواسطة هذه التضحية. لكن يونس نجا في بطن الحوت[201]. هكذا علمنا عن مصيره. كما أن شريكه في الألم من صيدا لم ينس ذلك، لأن المنقوشة الصخرية بارايبا تقدم دليلاً على وجوده.

وتبرز المقارنة مع مصير يونس في التوراة في معنى آخر له يمكن استخدامه استثنائياً وبأهمية خاصة. الحديث هنا عن رسالة شيفرة. ويطلق هذا التعبير على تحليل فني لنص أو خبر أو تقرير ضمن نص عادي واضح. اعتبرت الكتابة بالشيفرة أو «التشفير» نموذجية لمناداة الآلهة وللنصوص ذات المحتوى الديني الهام.

وكانت رسائل الشيفرة أيضاً تحظى بحماس المثقفين في الشرق الأدنى. وقبل أن نعرج على ذلك بالتفصيل ينبغي تقديم الرسالة المشفرة ل: منقوشة «بارايابا» التي حل رموزها سيروس جوردون: «لقد أنقذنا من الموت ـ لا تثق إلاَّ بياهوا!»[202].

بهذا يفصح الكاتب عن نفسه بأنه يهودي وتابع ليهوا، وأن الإله بعل وكل آلهة وإلآهات الفينيقيين التي أوردها في المنقوشة لم تتجاوز إيمانه اللفظي فقط.

ويونس كان الوحيد بين زملائه الوثنيين الذي تعلق بيهوا على ظهر السفينة التي كان طاقمها عادة يتألف من مجموعات عرقية ودينية مختلفة، يصف هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد أسطول الأخمينيين، الذي كان يتألف من فينيقيين

ويهود[203]. ومنذ بناء المعبد اليهودي في القرن العاشر (ق.م) ثبت التعاون التجاري، أو الودي بين الفينيقيين واليهود، كما تؤكده الفقرة المذكورة في التوراة. ويبدو مفهوماً لماذا فضل الكاتب اليهودي «منقوشة باريابا» أن لا يشهر إيمانه بيهوا، بل أراد المحافظة على سريته. غير أن الكاتب لم يشأ إبقاء اسم إلهه غير مذكور. لهذا استغل معرفته بكتابة الرسائل المشفرة الفنية لكي يُعبِّر عن معتقده الحقيقي في نص مشفر. ثم إن تعرف الرسالة المشفرة كنص فني مشفر يعني أنه لم يَفِ هذا الشكل الفني المعقد حقه. وكانت هي غالباً ألغازاً ذهنية فائقة التعقيد، معدة من قبل النخبة الفكرية عبر آلاف السنين قبل الميلاد. ولقد قاس الملك سليمان والملك حيرا قواهما الفكرية بمنافسة لحلّ أمثال هذه الأحاجي والألغاز. وحاول المؤرخ الروماني جوسيفوس أن يخبر بشكل حيادي مقدماً حُكمه في النهاية أن الملك سليمان الحكيم لم يكن الرابح دائماً[204]. وفي حكم سليمان في التوراة توجد قاعدة للتقديم تُقاس على أساسها ثقافة المرء: «ينبغي عليه فهم كلمات وألغاز العلماء»[205]. في مقاطع عدة من التوراة يَرد بإسهاب مختلف أنواع التلاعب بالكلمات وفيها معنى (تقي) عن مواضيع العمل «التقي». مثلاً، يطرح شمشون الجبار على الفلستنر السرال المعتمد «يخرج الطعام من المفترس والحلاوة من القوي»[206]. وعن طريق الحيلة يستطيع الفلستنر إيجاد الحل،

ومن ثم يطرحون من طرفهم الجواب بشكل مرمّز، ما هو الشيء الذي أحلى من العسل؟ وما هو أقوى من الأسد؟ حتى ولو لم يبدو هذا قابلاً للتصديق، إلا أنه حقيقة: ففي القرن العشرين تمكن الساميون من حلّ هذا اللغز مجدداً[207]. وهناك في أنشودة جلجامش لعبة مشابهة تحمل معنى ضمنياً مزدوجاً. يخبر البطل أوتنابشتيم الناس، أن عليهم توقع طوفان من الكيباتي، مما نتج عنه فرح غامر، لأن الكيباتي تعني «القمح» لكن الفرحة لم تدم طويلاً حين انصبت على الشعب مصائب كالطوفان. ذلك أن كيباتي تعني مصائب أيضاً[208].

وكمثال آخر عن السعي من أجل المعالجة الفنية للنصوص يأتي ذكر من المزامير الرقم 119 الذي رتبت مقاطعه بطريقة تورد الأحرف الأولى لتسلسل المقطع الشعري في تسلسل أبجدي[209].

وفي الوقت الذي كانت فيه الكتابة حكراً على قليل من النخبة، فإنها كانت تمثل شيئاً مقدساً. وكان التلاعب بالأحرف والجمل علماً يمارس بجديّة وبإجلال، تقوم بتدريسه للشباب المشرقيين مدارس خاصة، كما تؤكده رقم الكتب التي عليها التمارين الرمزية البسيطة من تلك الأيام[210]. ومن المفروض أن تكون مادة الدرس واسعة جداً، لأن إمكانيات تدوين نص صريح برسالة مشفرة كانت دائماً كثيرة. أمّا أسهل الطرق وأكثرها شيوعاً وتحقيقاً فكانت تلك المسماة التشفير

آ ـ ت ـ ب آ ـ اس وفيها يبدل المرء الحرف آ، الأول في الأبجدية بالحرف ت، الأخير في الأبجدية و(ب) الحرف الثاني بالحرف (س) أو (ش) الحرف ما قبل الأخير وهكذا[211].

والطريقة المعول بها الأخرى في تشفير النص كانت ما يدعى الطريقة المتعامدة. وهي سلسلة كلمات مرتبة تكون قراءة نهاية أحرفها عمودياً مطابقة لقراءتها أفقياً. وكان التعامل مع الحروف ينطلق من قوة سحرية. فالكلمة الشمالية «روني» تحمل معنى «راونين ـ أو الهمس سراً وتوضح المعنى السحري والسري لإشارات الكتابة بكل جلاء. وما تزال في كابالا»، «وهي تعاليم سرية» لسحر الأحرف والأعداد صلاحياتها إلى يومنا هذا. فالكاباليون يرفقون بكل حرف رقماً يحسب بواسطة النظام الإلهي المنضوي في قدسية الكتابة[212].

وإلى جانب السرية كان للرمزية مجال استخدام واسع على الغالب أيضاً. فمثلاً كانت «السكيتالي» القديمة طريقة أصلية وفعالة في ترميز النصوص يتبادل مضمونها شخصان فقط. فالمرسل والمستقبل كان لهما عصا لها نفس السماكة يلف عليها شريط ورقي طويل فيه الرسالة السرية. وبعد الحل، أي دون السكيتالي لا يحوي النص على الشريط الورقي إلاَّ مجموعة من الأحرف غير منتظمة[213].

وثمة طريقة أكثر تعقيداً اعتمدها الكتبة المطلعون في شكل

«منيمونيك» إلاّ أن دعامة الذاكرة هذه كانت مرمزة وغير مفهومة إلاّ إلى دائرة نخبوية من المتعلمين. وتمثل في الحقيقة شبكة معقدة من الدقة والذكاء والتفكير المميز.

أما تشفير «منقوشة بارايابا» فلقد أنجزها كاتب متعلم بالطريقة التالية: قسم النص إلى ثمانية أسطر لها أطوال مختلفة بحيث لا يتحدد نهاية السطر من معنى النص (وإنما من خلال بناء الشيفرة). ويرمز لكل حرف أولي في السطر إلى رقم وبمساعدة هذا الحرف يعد المرء من بداية السطر وكذلك من نهايته حرفين (لكل سطر) (مثلاً الحرف الأول هو نون في السطر يرمز للرقم 14؛ والحرف 14 من بداية السطر والحرف الرابع عشر انطلاقاً من نهاية السطر سيكونان الحرفان (م) و(ب). هذه الأحرف لا يستطيع المرء ــ في حالة منقوشة بارييابا ــ أن يقرأها ببساطة حسب التسلسل لأنها مرمزة مجدداً: فبدلاً من الترتيب 1 ــ 2 ــ 3 ــ 4 ــ 5 ــ 6 ــ 7 ــ 8 اختار الكاتب للأحرف الثمانية المتعامدة والمتقاطعة الترتيب 1 ــ 2 ــ 8 ــ 3 ــ 7 ــ 5 ــ 4 ــ 6. وبهذه الطريقة من القراءة ينتج الستة عشر حرفاً ساكناً (لم تكن تكتب الحروف الصوتية كما هو معلوم): أنقذنا من الموت ــ ثق فقط بيهوا.

لا يخدم التفصيل الذي عولجت به الرسالة المشفرة واستخدامها، تقريظ براعة أسلافنا العلماء. وسيوضح النص التالي أكثر إلى أي مدى يمكن أن تكون هذه الرسالة المشفرة

خيطاً يقودنا للخروج من متاهة ما قيل من آراء عن التطور الذاتي لأمريكة قبل كولومبوس ويوصلنا إلى معرفة واضحة عن تأثيرات العالم القديم.

لقد كان فن التشفير على مدى قرون طويلة، مطموراً تحت التراب[214]. كما أن النسيان طرأ على قسم من الصيغ اللغوية والمفردات «المنقوشة باريابا» منذ نشوئها لحين إعادة اكتشافها في القرن التاسع عشر وإعلان المختصين عنها. ومن أجل الاستسهال، قيل عنها إنها مزورة، خيم عليها الغموض لمدة تفوق التسعين عاماً كشيء مزور حتى وصل النص إلى يد سيروس جوردون 1968، وقام بتحليله مجدداً مكتشفاً بذلك، أن النص الواضح فيه تشفير ضمني. وشكل هذا الاكتشاف حدثاً بارزاً، لأنه يثبت نشوء التشفير في زمن كان معروفاً ومعمولاً به.

كما أن النقد الموجه إليها لم يعد قادراً على الثبات من جراء الأبحاث في مجال اللغات الشرقية القديمة. ففي عام 1928، أمكن حل رموز اللغة الأوغاريتية ونشرت القواعد الأولى لهذه اللغة عام 1942[215]. والآن غدت كل الأشكال القواعدية وكل مفردات نص «باراايابا» معروفة وكذلك كل النصوص القديمة من القرن السادس قبل الميلاد التي نشأت عنها منقوشة «باراايابا». وحين يتم حل رموز نص قديم بعد عدة قرون من اكتشافه فإن هذا إشارة على أصالته. وإذا ما حوى النص

الواضح تشفيراً إضافياً، كان إنجازه قد طرأ عليه النسيان حتى في الدوائر المختصة نفسها، يكون التزوير عندئذ منفياً تماماً. ولو كانت «منقوشة بارايابا» بأشكالها اللغوية التي عرفت حديثاً قد زورت فعلاً في القرن الماضي، لكان على المزور أن يكتسب العلم عن تاريخ الساميات القديمة وقواعدها وكذلك معرفة الترميز بشكل سري وبنفسه قبل أن يتوصل العلماء المختصون لهذه المعارف بزمن طويل. ثم كان عليه أن ينقش على الحجر في بارايبا البرازيلية هذا النقش الفني دون أن يراه أحد، ثم ينتظر تسعين عاماً بعدها حتى يكتشف المختصون عمله أو بالأحرى يفهمونه. إن مثل هذه الرواية عن نشوء «منقوشة بارايابا» لا يمكن أن يتقبلها أحد.

ولا أحد؟ ليس بهذه السهولة يتخلى عالم الاختصاص عن مواقعه المحببة القديمة. فحين اختتمت أعمال ندوة جمعية الآثار الأمريكية حول موضوع عبورات الأطلسي قبل كولومبوس، لم يستطع العلماء حينها إثبات أصالة «منقوشة بارايابا» ويعترفوا بوجود أسلاف محتملين لكولومبوس، لأن ظروف هذه المنقوشة بدت لهم غير أهل للثقة.

بيد أن الشك في هذه النقطة كان يمكن فهمه: ففي عام 1872، أرسلت إلى معهد التاريخ في ريوديجانيرو صورة عن «منقوشة بارايابا». كان المرسل يواخيم ألفيس دي كوستا، قال إنه نسخ النص هذا عن حجر وجده في أرضه في باوسا التو في

بارايابا. لحد هذا القدر تبدو الأمور جيدة. لكن لم يجد المرء للأسف لا مرسل الرسالة ولا عنوان سكنه أبداً، ناهيك عن الحجر المقصود! لهذه الظروف الداعية للاستغراب لم يتشجع المختصون أن يصوتوا بإيجابية لمضمون المنقوشة. وتدارسها علماء اللغة والمختصون وبالساميات وعلم المنقوشات من أمريكة وأوروبا، لكن كان الحكم يأتي دائماً «تزوير»[216].

وحين أعاد سايروس جوردون وأولاف مونجة «منقوشة بارايابا» في الستينات إلى اهتمام الرأي العام مجدداً، بعد أن حللوا النسخة على ضوء آخر المستجدات البحثية اللغوية بدقة بالغة، وعلى الرغم من ظروف اللقية، لم يجدوا إمكانية أخرى من أن يعلنوا أنها أصلية، مما أثار غضب الرأي العام. وبالذات في عام 1968، كان لهذا أن يحصل؟ ففي هذا العام بالتحديد قدم جوردون البرهان على أن البرازيل اكتشفت قبل ألفي عام على الأقل، مما كان يعتقد لحينه. واتهم جوردون بأنه أراد التشويش على الاحتفالات بمناسبة الذكرى الخمسمائة لميلاد بيدرو الفارس كابرال[217] مكتشف البرازيل. وأسوأ من ذلك، أراد أن يسلبهم مبرر وجودهم. وخشي على شرف البطل كابرال.

ثمة ملاحظة هامشية على رحلة كابرال الاستكشافية: لم يكن يخطط كابرال ـ كما كتب ـ لرحلته إطلاقاً، وإنما وصل صدفة إلى شواطىء البرازيل. فلقد انحرفت سفينته أمام ساحل

إفريقية عن مسارها ورست ـ دون قصد أو معرفة سابقة ـ بالقرب من المكان، الذي كان نزل فيه مؤلف «منقوشة بارايابا» على ساحل البرازيل. وهكذا ساهم كابرال بإعطاء تقرير الصيداويين عن نزولهم في «بارايابا» قبل 2000 عام مصداقية إضافية.

إنه لمن المدهش أن تعلو أصوات الشك والريبة والرفض تجاه آثار المنقوشات قبل كولومبوس فوق الأرض الأمريكية، في حين تعتبر الظروف من وجهة نظر علمية لا غبار عليها إطلاقاً، ويجدر تقديم مثال من مجال ذي صلة هو ما يسمى «منقوشة بات كريك» الأمريكية الشمالية. اكتشفت في عام 1880، في سيتو في منطقة حفريات في لاودون كاونتي، في تينيسي واكتشفها معهد سيمثونيان في واشنطن الذائع الصيت[218].

ولا بد من التنويه هنا مرة أخرى، أن آثار العالم القديم لم توجد فقط في وسط أمريكة، مكان التلاقي بين الشرق والغرب، وإنما في أمريكة الجنوبية التي أقامت معها أمريكة الوسطى تبادلاً ثقافياً نشطاً. غير أنه وجدت في أمريكة الشمالية أيضاً، آثار العالم القديم ـ كما تبرهن عليه «منقوشة بات ـ كريك»[219].

129

وحقيقة اكتشاف هذا الحجر في سيتو، الذي يحمل نقشاً ذا معنى، يمكن من تحديد تاريخ نموذج كتابته في القرن الأول

بعد الميلاد، لا تدع مجالاً للشك بصحة هذا الاكتشاف الكتابي. وعلى الرغم من هذا أبدى البعض شكاً في أصالته. فما زال الشكاكون والنقاد أوفياء لقناعتهم بصلابة عن عدم وجود عبورات للأطلسي قبل كولومبوس. وكل البراهين يعتبرونها انطلاقاً من ذلك خداعات بصرية. غير أنه حري بكل شخص أن يقرأ، بصورة استثنائية على الأقل وحباً في التجربة، التقارير التالية عن اللقى الكتابية دون تحيز، وبموضوعية، ذلك أن كل واحدة من هذه اللقى تحمل الجملة «أكذوبة» «لا يمكن أن يكون ما لا يسمح أن يكون». لقد عثر المرء على العديد من النقوش وكان مضمونها منطقياً للغاية، وكانت علاقاتها صحيحة جداً، وحالة أحجار النقوش الجغرافية مقنعة كثيراً، ثم يقال إن كل هذه الآثار لا تعدو كونها تزويراً. لقد عثر على عدة نقوش أخرى على الصخور في أمريكة الجنوبية، ومن بين من قام بفحصها «باري فل» الأستاذ في جامعة هارفارد[220]. وسنشير إلى عمله العلمي البحثي مرات. كما يوجد مختص آخر بالآثار الأمريكية القديمة يدعى إريك راينرت، وهو بدوره أستاذ لغة في جامعة هارفارد. حيث تجول قبل بضع سنوات في أجزاء واسعة من الباراغواي، لكي يكمل معارفه عن لغات الهنود الحمر القديمة[221]. وجد على الجدران الصخرية نقوشاً لم يستطع تفسيرها رغم معلوماته اللغوية الواسعة. ولقد أدرك العالم باري فل، وكذلك زميله راينرت المشتركان في تقصي

آثار النقوش الحديثة في شمال أمريكة، أن النقوش من الباراغواي تحمل رموز اللغة الإيبرية أثناء الفترة الزمنية ما بين 500 ـ 300 سنة (ق .م)[222].

130

كانت شبه الجزيرة الإيبرية في حوالي تلك الفترة مكاناً تجارياً عالمياً يعمل فيه سوية الفينيقيون والبونيون القرطاجيون والكلتيون والإبريون[223]. وكان التجار من المدن الفينيقية ومن مدينة قرطاجة يسافرون إلى إسبانيا لكي يشتروا بضاعة من مدن قادش وطرطيسوس على ساحل الأطلسي أو يقومون بتحميلها انطلاقاً منها. هكذا جلبوا معهم لغتهم السامية إلى إسبانيا، حيث أخذها عنهم سكان شبه الجزيرة الإيبرية عبر القرون. على هذا النحو نشأت اللغة الإيبرية ـ البونية التي تكتب بالأحرف الإيبرية على الغالب، وهي شكل من الخط الفينيقي. والنقش الموجود في الباراغواي معمول باللغة الإيبرية ـ البونية. غير أن النقش لا يحتوي على حروف إيبرية فقط وإنما لحد ما الأغمية*، خط الكلتيين[224].

وبسبب هذا الاكتشاف المثير لا بدّ من التعريج قليلاً على الكلتيين. كانوا كما هو معلوم، إحدى القبائل الهندية ـ الأوروبية وتتمتع بديناميكية كبيرة، وقد جالت في القرن ما قبل الميلاد كلّ أوروبا حتى الشرق الأوسط واستقرت هنا، حيث

(*) ألفباء استعملها الإيرلنديون القدماء تتألف من عشرين حرفاً.

لم يكن يجابهها السكان المحليون بمقاومة فاعلة. ومنذ القرن السادس قبل الميلاد، استقر الكلتيون أيضاً في إسبانية، وبرعوا هناك من خلال إنجازاتهم في صناعة المعادن[225]. لكنهم اشتهروا بالإضافة إلى ذلك بصفتهم بحارة. يتحدث سيزار في كتابه «دي بللو كاليكو»[226] بإسهاب عن مصاعب الرومان في التغلب على السفن المتفوقة جداً: وفي وقت لم يعد فيه الكلتيون في أوج قوتهم[227].

لم يكن الخط الكلتي: الأغمي وحتى عام 1712، معروفاً إلاَّ في إيرلندة. بعدها اكتشف العالِم بورتيبانر كوتون ماثر[228] في ولاية ماساشاوستيس الأمريكية نقوش الأغمية الأولى. ثم قام بإرسالها إلى الجمعية الملكية في لندن لكي يستفسر من الدولة الأم عن هذا الأثر الأمريكي الهام. لكن، كل ما قام به علماء النقوش اللندنيون في هذا الخصوص هو أنهم دونوه في سجل الجمعية على أنه «معاملة» من عام 1712[229]. وفي عام 1784، أي بعد سبعين عاماً من العثور على أثر الأغمية في نيو إنجلند، تمكن عقيدٌ إيرلندي يدعى تشارلز فالنساي من حل رموز الخط. ومنها يتوضّح أن أولى آثار الأغمية في أمريكة لم تكن مزورة؛ لأن النصوص ذات المضمون ـ هكذا تبين في أثناء ذلك ـ كان ينبغي أن يجري تزويرها في خط واحد، سبق وأن أصبح معروفاً أو بالأصح كانت رموزه قد حُلَّت.

حين تم العثور على نقش باراغواي كانت قد حلت رموز

الخط الأغمي منذ مدة طويلة. وعلى الرغم من هذا قدم هذا النقش مفاجأة للعلماء: لم يكن يحوي على أحرف صوتية، تكتب عادة في الخط الأغمي. ولم يكن التوقع لمعرفة السبب غائباً، فثمة تأثير من السامية التي لا تكتب فيها الأحرف الصوتية قطعياً. هذا التفسير له ما يبرره لأن نقش باراغواي يظهر بجانب الأحرف الأغمية أحرفاً إيبرية أيضاً، ترسخ الاعتقاد بأن أصل الأثر الثنائي يعود إلى شبه الجزيرة الإيبرية. وبما أن المرء لم يصادف حتى ذلك الحين خطاً أغمياً دون أحرف صوتية، بدأ باحثو اللغة في جامعة هارفارد بالبحث بشكل هادف ومبرمج عن مثل هذا الخط «الأغمي» في الأرض الإسبانية، وتمكنوا خلال عام 1975، من إيجاده. ثم وجدت على إثرها في أمريكة الشمالية نقوش: أغمية مختلفة، حذفت منها الأحرف الصوتية: أي آثار الكلتيين من شبه الجزيرة الإيبرية المتأثرين بالفينيقيين. وبهذا امتد جسر جديد بين العالم القديم والعالم الجديد، وامتدت دائرة البحارة القدماء إلى البحارة الكلتيين[230].

بعد هذا الإطار التاريخي عن «نقش: باراغواي» نتعرض الآن إلى النص: كتب هذا النص بحّارة من قادش، كانوا في رحلة استكشافية[231] ولا يقصد بالرحلة الاستكشافية عبور الأطلسي. لأن هذا الأخير كان مسألة روتينية ما بين عام 500: 300 (ق .م). الراجح أن الكاتب كان في رحلة داخل البلاد

في الباراغواي: فالنقش وجد على مسافة ألف كيلومتر من شاطىء الأطلسي. وللوصول إلى هذا المكان لم يتوجب على الزوار من العالم القديم التجول على أقدامهم. إذ أن الأنهار العريضة الصحالة للسفن مكنتهم من الإبحار أو التجذيف إلى داخل البلاد[232]، وللضرورة في سفنهم التي عبروا بواسطتها الأطلسي. واعتبر ما أنجزوه بسفنهم أو حتى على أقدامهم من التقدم إلى داخل البلاد كان على شتى الأحوال عملاً رائداً. وإذا أراد البحارة تخليد إنجازهم العظيم بنقشه على الصخر فليس في ذلك أكثر من رد فعل إنساني.

وتوجد على العديد من الجدران الصخرية في أمريكة الجنوبية من الزمن ما قبل كولومبوس علامة فردية كبيرة، بحثها جاك دي ماشيو، الذي يركز عمله العلمي بصورة خاصة على عبورات الأطلسي قبل الفايكنغ: والتي يصفها بأنها «الثلاثية الرأس النبتونية» لكن دون القبضة[233]. وفي الواقع فإن هذه الإشارة تتطابق شكلياً مع الحرف شين، أو بالأحرى سين، يستعمل من البعض في المشرق كدلالة على كلمة «الله»[234]. ومن المحتمل أن يكون في هذه الإشارة مناداة للإله ثم إن الكلتي كفاين كانت له حاجة بأن يورث اسمه للأجيال اللاحقة من خلال نقشه على الحجر، بَعد أن كان توغّل في داخل البلاد تتبعاً نهر أركاناساس. ولكي يخبر عن عمله البطولي لمن سيأتي بعده ويبدوا إعجابهم بعمله، كتب اسمه «كفاين» ليس

في اللغة الكلتية وبخط أغمي، وإنما في الخط الإيبري ـ البوني[235]. يمكن ترجمة «كفاين» بمعنى أبيض، وهكذا استخدم «كفاين» الكلمة البونية ـ الإيبرية ـ لمعنى أبيض «بايابا»[236].

131

تعطي ثنائية اللغة للنقش الصغير قيمة كبيرة من أجل بحث العلاقات التاريخية. إذ أنها توضح، بأن الكلتي «كفاين» كان له اتصال أثناء القرن الخامس (ق .م) مع شبه الجزيرة الإيبرية. وكان يتقن لغة الفينيقيين أو بالأحرى البونيين، كما كان مشاركاً بشكل أو بآخر في رحلاتهم التجارية عبر الأطلسي. ويوضح هذا النقش الصغير، ويلخص، وكذلك يصحح فصلاً كاملاً لتاريخ عالمين ولتاريخهما الغني.

تعتبر النقوش التي تستخدم فيها كتابات مختلفة ولغتان مختلفتان بالنسبة لعلماء النقوش هدية من السماء. فالعالم شامبليون توصل في عام 1822، عن طريق الحجر الثنائي اللغة من فك رموز الهيروغلوفية المصرية[237]. لم يكن علمه سهلاً على الإطلاق! أما الأصعب من ذلك كما يبدو لعلماء النقوش أن يتوصلوا إلى دمغ النقوش الأمريكية القديمة ـ حتى ولو أنها مُعدة في لغتين ووجدت في سيتو ـ بعلامة «أصلي».

عُثر في أوكلاهوما على نص ثنائي اللغة غير النقش الحجري للكلتي «كفاين»، وهو موجود على شاهدة قبر ويربط مجدداً خط الكلتيين «الأغمي» مع الإيبرية البونية. يتألف النص من

أحرف إيبرية «ها» «ل» وأحرف «هاجا» أو «آغا» وتعني الكلمة السامية هذه «قائد» أو «سيد»، ولا تزال تستخدم هذه الكلمة حتى الآن في اللغة العربية[238].

ولمن لا تزال هذه النقوش بسيطة وغير ذات معنى، عليه أن يوجه اهتمامه فيما سيأتي إلى شاهدة تقويم دافنبورت / لو، المكتوب جزءً منه في اللغة الإيبرية البونية، والجزء الآخر في الليبية وكذلك في المصرية[239]. ومن المهم بالنسبة لحجتنا أنه لا الليبية ولا الإيبرية ـ البونية[240] كانتا قد حُلت رموزهما، عندما عثر على شاهدة التقويم هذه في عام 1874. كما هو معروف اليوم، فإن أقسام هذه النقوش اللغوية المختلفة تأتي في سياق منطقي مع بعضها. فلا بد أن تكون إذاً قد أُلّفت في تزامن بينها ـ وفي وقت كانت اللغات الثلاث معروفة، وكان يجري التخاطب بواسطتها. ولأكثر من مائة عام كانت تعتبر شاهدة التقويم «مزورة». وبعد مرور الوقت، وفي العقد الأخير فقط، اعترف فيها بعض العلماء وأعطوها مكانة مميزة تستحقها ضمن الآثار الأمريكية القديمة، التي تنبىء عن الاتصالات عبر الأطلسي قبل كولومبوس.

تقدم شاهدة التقويم من حيث مضمونها خطاباً مهماً جداً لأنها وبتوافق بين هذه اللغات الثلاث يرتبط موضوعها بتقويم فلكي، وبالتحديد بعيد رأس السنة. مضمون النص في الترجمة المقدمة من قبل باري فل، يقول: ثبت الحكيم المرآة على

العمود، بحيث ينعكس ضوء الشمس منها على حجر المراقبة. يحتفل بعيد رأس السنة عندما تصل الشمس إلى برج الحمل. في وقت الاعتدال* أقيموا عيد رأس السنة الجديدة والطقوس الدينية لعيد رأس السنة الجديدة[241]. تتفق هذه الإشارات عن عيد رأس السنة مع عرض الصور في منتصف النقوش المرتبة بشكل حلقي. وفيه مشهد لعيد رأس السنة الجديدة يبين مجموعة من الناس يتحلقون على شكل دائرة يرقصون حول حزمة عالية من نبات الحلفاء، يربطها مع بعضها عدة حلقات[242]. 132

ويبقى تفسير هذا المشهد على الرغم من تعقيده وعدم وضوحه بسبب قدمه وتنفيذه غير المتقن ليس أمراً عسيراً: ذلك أن ثمة الكثير من المشاهد المعروفة الشبيهة به من عرض الطقوس المصرية. وجد أدولف إرمان في قبر من العائلة الثامنة عشرة في طيبة مشهداً مشابهاً تقريباً لطقوس أوزيريس[243]. لا تعطي شاهدة التقويم من دافنبورت من خلال ثلاثيتها اللغوية صورة عن تعددية لغة بحارة، وكهنة وفلكيي الشرق القديم وإنما أيضاً عن طريق عرض مشهد ثقافي مصري محدد ـ وفي هذا دليل على عالمية الطواقم في خط الأطلسي.

يُعَدُّ تقديس إله الفينيقيين الكبير بعل، أكثر انتشاراً من تقديس أوزيريس في العالم القديم. إذ يعثر المرء على اسم

(*) يقصد بها الاعتدال الربيعي أو الخريفي (المترجم).

بعل محفوراً بعمق في صخور المغليت* في نيو أنجلند، وفي أماكن عبادة عدة على ساحل أمريكة الشمالية الشرقية. لقد حقق باري فل، من جراء حل رموز هذه النقوش إنجازات عظيمة. إلاّ أن توقعه عن أحجار المغليت بأنها بنيت من قبل الكلتيين نظراً للنقوش الأغمية عليها، يبقى غير مقنع. ليس الكلتيون هم من بنى ذلك.

في كل مكان ترتكز العبادة على علم فلكي راق يدعو للدهشة. ويجري اختباره من خلال النوع الخاص بتنفيذ هذه الشواهد والهدف من استخدامها[244]. وبما أن الهنود الحمر لا يدَّعون أنهم بناة المغليت بل يعزى بناؤها إلى شعب «وردة مايس» في القرن السابع عشر الميلادي. لكن المعارف الفلكية غير العادية التي بنيت عليها خطط بناء المغليت تقود اليوم إلى إعادة التفكير بهذه المقولة: إذ أن المستوطنين الأوروبيين الأوائل لم يظهر لديهم قبل استيطانهم في أمريكة شيء من الشغف بإشادة هذه الأبنية الحجرية العملاقة بأهميتها الفلكية.

وإذا لم يكن الكليتون، ولا الهنود الحمر ولا المستوطنين الأوروبيين في القرن السابع عشر بناة المغليت ـ من هو إذاً، من الذي بناها يا ترى؟ الإجابات عن هذا السؤال ـ مثلاً من خلال تدوين الإشعاع الكربوني ـ ما تزال متناقضة. غير أن فيها

(*) المغليت: أحجار ضخمة مستخدمة في الآثار الراقية القديمة (المترجم).

ما يكفي لكي يثبت، أن بناة المغليت والآباء الروحيين لعلم الكون وتقديسات الفلك أكثر قدماً من كل أسلافنا التاريخيين.

لا بد من تسخير المتشابهات في مجال المغليت والفلك دون تردد لدعم فكرة الكتاب هذا: لأنه من غير المستبعد أنها تعود إلى زمن الهجرة ما قبل التاريخ عبر طريق البيرنغ. ولا يزال المرء في بعض الحالات يميل إلى تفسير المتطابقات بزيارات بحارة العالم القديم إلى العالم الجديد، وبشكل خاص حين تكون المسألة تتعلق بتفاصيل الفلك، التي كانت إحدى أسس الرحلات البحرية القديمة. ويتعلق الحديث بالأبراج السماوية للدب الأكبر والدب الأصغر، التي تحمل نفس التسمية عند اللاتينيين (أورسا مايور وأورسا مينور). وأطلق الألجون ـ من الهنود الحمر على هذه الأبراج السماوية «باوكونافافا»، ويعني «الدب الأكبر»[245] هذا التطابق المدهش في تسمية الأبراج السماوية التي ليس لها أي تشابه مع الدب لا تكتسب عملياً قيمة ولا تدخل ضمن سلسلة حججنا.

الأمر يختلف في موضوع الإله بعل. إذ يسير اسمه كخيط أحمر عبر تاريخ أمريكة القديمة قبل كولومبوس. وعلى الرغم من أن جدران أبنية المغليت المنقوش عليها اسمه قد لا تكون بنيت بمباركته، إنما غدت في وقت لاحق أماكن يقدس فيه اسم بعل؛ ويظهر هذا التقديس في وقت مبكر كجزء مكون راسخ في العبادة الأمريكية القديمة.

وليس من قبيل الصدفة أن تحمل اسمه تلال مستري في نيو هامشاير: فهنا عثر المرء قبل بضع سنوات على جدران المغليت نقوشاً غامضة عديدة. وفي غضون ذلك تم فك رموزها لتظهر على أنها مكرسة للإله بعل. ولقد وجد جيمس ويتال الخبير المشهود له في آثار العصر البرونزي في شبه الجزيرة الإيبرية أول قطعة إثبات في غرفة حجرية على تلال مستري، كانت تستخدم سابقاً لمراقبة انقلاب الشمس الشتوي، تبرهن على تقديس بعل في نيو إنجلند. وجد على لوح حجري ثلاثي الزوايا مكتوباً بالأحرف الإيبرية ـ البونية، الكلمات التالية: هذا إهداء مخصص لإله الكنعانيين بعل[246]. ولا يظهر من هذا النقش أي دور لعبه بعل بالنسبة لمريديه. إلاَّ أن غالبية النقوش الأخرى التي تذكر اسمه تتحدث عن بعل «إله الشمس».

كما اكتشفت أحد أبواب معابد المغليت في فيرمونت (نيو ـ إنجلند) الأحرف الأغمية (د) ـ ج وكذلك (ب) ـ ل، وترجمها باري فل، ب: «دبجو بل» أي معبد بل[247]. من المهم معرفة أن الفينيقيين (ب) .ل قد حورا قليلاً بحيث يخيل للمشاهد ملامح العين منها. السبب في طريقة الكتابة هذه هو: إن من لا يستطيع القراءة والكتابة سيدرك من تحريف الحروف هذا أن المقصود من النقش إبراز العين، التي، كما يعرف كل إنسان، كانت رمزاً لآله الشمس بعل. وكان الشاعر الألماني

غوته قد استخدمها مادحاً أمبيدوقلس على أنه مشرق كالشمس[248]. وسيبقى تفسيرنا عن العين ضمن الواقع وليس التكهن: ففي داخل المعبد نفسه يوجد تأكيد لتفسيرنا هذا بأنه يفهم من العين رمزاً لبعل. النقش يوضح: «بجلوا بعل، إنه عين الشمس!»[249].

بهذا يصبح واضحاً الموقع الذي تبوأه إله الحماية الفينيقي بعل، في القارة الجديدة، كإله للشمس. غير أن هذا يظل بالنسبة لنا أقل أهمية، لأننا لا نتبع مهمته بقدر ما نقتفي آثاره.

ويلفت شيلدمان الانتباه إلى أن إله الشمس أبولو هو نفسه من وجهة نظر أصل الكلمة. فالكلمة السامية «بعل» يشتقها شيلدمان من أ ـ بعل (قوي جداً) أو بالأحرى من الكلمة الهندية الأوروبية «بلوس» وتحمل نفس المعنى «قوي للغاية»[250]. وبهذا لا يكون أبولو من أصل إغريقي، وإنما له نفس الوظيفة الإلهية مثل إله الشمس الأمريكي القديم، التي تزين عينه معبد المغليت.

ليست العين الرمز الوحيد لعبادة الشمس. ولشد ما يثير العجب المربع المقسم لأجزاء أربعة والعجلة الحجرية والأشكال السُّلَّمية والحقول الشبيهة برقعة الشطرنج التي كانت تستخدم في صلتها مع عبادة الشمس ـ في العالم القديم تماماً كما في العالم الجديد: فكل رمز على حدة لا يمكن مبادلته مع الآخر، وهو بذاته ليس مقنعاً أو مستنداً: لكن عندما تكون

الأشكال الرمزية مع بعضها في صلة ويجري ربطها في كلا المحيطين الثقافيين مع عبادة الشمس، فلا بد أن يكون في ذلك إشارة إلى الاتصالات بين العالمين كليهما اللذين أوجدا وبالتالي استخدما هذه الرموز في عبادتهما للشمس.

ونقدّم لكل هؤلاء الذين لا يستسيغون تصور وجود حركة سفن نشطة في الأطلسي قبل عام 1492، نقشاً لساحة تجارية فينيقية في شمال أمريكة، فلعل في ذلك خطوة تساعدهم. هنا عثر على نقش كلتي ـ إيبري بالأغمية يبيّن ساحة تفريغ للسفن الفينيقية[251]. ودون أن يكون في ذلك شيء من الجرأة في التفسير غير المنطقي، نورد الأحرف في النقش بتسلسلها: «ف ـ ن. ك» وتقرأ فينيقي[252] وهذا بحد ذاته فيه من القيمة ما يكفي.

لكن هل وجود ساحة لتفريغ البضائع الفينيقية غير جدير بالتصديق؟ ومن يشك بأن القدماء استطاعوا تنظيم تجارتهم البحرية بهذا الشكل، بحيث كانت توجد طرق محددة وأماكن رسو لسفنهم، عليه أن يعلم بأن ثمة وثائق محفوظة تعود إلى فترة ما قبل الميلاد تتحدث بالتفصيل عن عقود واتفاقيات تجارية، ومداولات لتحديد التسليم، وتسوية الأسعار. كتب جزء من الاتفاقيات على صفائح معدنية أو ألواح فخارية ويمكن استخدامها حتى اليوم كقاعدة لاتفاقيات تجارية معدة بكثير من التروي والدقة. لم يترك فيها نقطة للصدفة، ولم تكن فيها نقطة

غير ذات أهمية لم يرد لها ذكر في الاتفاق: كما كان يتفق مسبقاً على خط مسار السفينة التجارية، والمرافىء الأجنبية الإضافية التي تتوجه إليها كان يتقاضى عنها التاجر (صاحب السفينة) أجراً إضافياً. أما من يتحمل حالات الحوادث مثل فقدان البضاعة، فكان التاجر. ويعني هذا أن خطوط النقل البحرية القديمة كانت تعرف معنى «المجازفة»*. وعبور الأطلسي كان واحداً من مجازفات محتملة عديدة توجب على المرء أخذها بالاعتبار إذا أراد الكسب من التجارة. وبالتأكيد لم يكن الكسب قليلاً من البضائع في القارة الأمريكية. كما اعتبرت جلود الحيوانات والأخشاب والمعادن بعضاً من السلع التجارية التي لاقت رواجاً في أسواق العالم القديم. اشتهر الطرطيسيون الإيبريون بالمقام الأول في تصنيع المعادن[253]. والطرطيش المذكور في التوراة بخصوص تصنيع المعادن يمكن أن تكون نفسها المدينة الإسبانية طرطيسوس طبقاً للوصف الجغرافي والتطابق في تاريخ اللفظة. لذا كان من الصعب تصور أن تأخذ التجارة العالمية بين شبه الجزيرة الإيبرية والبلدان على الطرف الثاني من الأطلسي مجراها بدون الطرطيسيين.

إن البحث عن آثارهم في القارة الأمريكية سيؤدي إذاً إلى

(*) يقصد بها هنا العطل والضرر الناشىء عن القوة القاهرة في الحوادث البحرية (المترجم).

النجاح: ففي جزيرة رودي بالقرب من نيويورك يجد المرء ملامح لسفينة محفورة في الصخر وتحتها يلاحظ ـ لكن ليس بوضوح كبير ـ عدد من أحرف طرطيسوس، ترجمها باري فل على النحو التالي: «هذه الصخور تخبر عن البحارة من طرطيسوس»[254]. 134

اكتشف النقش في عام 1780، وجرى توثيقه. ثم طرأ النسيان على النقش والصخر معاً، حتى أعاد ويليام جي. ميللر اكتشافه وقام بنسخه للمرة الثانية. كان قد مضى قرابة مائة عام لم يجر خلالها حل رموز النقش، مما يؤكد صحتها. ذلك أن النقوش التي اكتشفها المرء ووثقها بشكل صحيح وظل طويلاً دون حل رموزها أو فهم مضمونها، لا يمكن أن تكون مزورة.

وتجدر الإشارة من المجموعة الأخيرة من الآثار الكتابية لبحارة العالم القديم في أمريكة إلى النقوش الليبية. تعتبر اللغة "الليبية لهجة خليطة شمال إفريقية توصل باري فل، إلى حل رموزها عام 1973، عن طريق لوح نقشي ثنائي اللغة (ليبي ـ مصري)[255]. وكان عثر على كل النصوص الليبية المعروفة اليوم قبل عام 1973، مما جعل قوى الشك لدى الخبراء بأن يطلقوا على هذه المجموعة من النقوش التي تظهر رموزاً غير ذات معنى صفة التزوير. ولكن وبعد حل رموز اللغة الليبية غدا ممكناً قراءة اللوح الثنائي اللغة بشكل معقول[256]. وجرى التأكد أن الجزء المصري من النقش يتطابق من ناحية المضمون

مع الجزء الليبي: «طاقم السفينة من مصر العليا أنجز هذه الشاهدة بمناسبة رحلته»، كان مضمون الجزء المصري. ويقول الجزء الليبي: «هذه السفينة تأتي من الأراضي المصرية». وعلى ضوء ذلك يمكن إرجاع النص إلى الفترة التي جلس فيها ملوك ليبيون على العرش المصري (945 ـ 715ق. م) وكانت سفنهم تقوم برحلات طويلة.

ولا بد هنا من ذكر إشارة هامشية إلى العديد من المقدرات الملاحية لليبيين ورحلات سفنهم الطويلة: يستدعي الانتباه هنا الزينة المنتشرة عالمياً التي لا تخطئها العين وهي الصدرة التي يزين بها الصدر ويكون منتصفها على شاكلة هلال رقيق بأطراف مدببة تعلق في نهايتها أشكال زينة صغيرة (مثلاً رأس بلحية وطاقية عالية). لا توجد هذه الزينة في شمال إفريقية فقط وإنما في منطقة البولينيز وعلى طول جزر الأوستر ـ ولم يكن من الصعب على من يصل إلى هذه المناطق أن يصل أيضاً إلى أمريكا! 138,136

قبل أن يحل شامبليون في عام 1822، رموز اليهروغليفية المصرية بمدة طويلة ظهرت في شمال أمريكة هيروغليفيات يمكن إيجاد الشبه بينها وبين الهيروغليفية المصرية من خلال جدول[257]. أخذت الهيروغليفية من النصوص المسيحية، التي 139 كان الأب مايلارد دونها عام 1738، للهنود الحمر الألغونيين في نيو إنجلند الذين اعتنقوا الدين المسيحي حديثاً، وأطلق

عليها هيروغليفية ميك ـ ماك. وأقصر نص فيها هو «أبانا الذي في السماء» وأطولها يحتوي على 450 صفحة. إن نظرية نشوء هذه النصوص المسهبة للهنود الحمر ـ الألغونيين لم تكن مقنعة في يوم من الأيام. غير أنها لا تزال إلى اليوم غير قابلة للطعن بها. فالأب مايلارد، كما قيل، اخترع هيروغليفية ميك ـ ماك لهنوده الحمر، لأن هؤلاء كانوا يتعلمون رموز الخط الصوري بسهولة أكبر من تعلمهم الأحرف اللاتينية. وقد يبدو هذا التفسير جلياً للبعض، إلاّ أنه خطأ. فكيف يمكن تفسير هيروغليفية ميك ـ ماك «التي فيها كثير من الحالات المشابهة لا بل المتطابقة مع اليهروغليفية المصرية؟» كلا، لم يكن الأب مايلارد يتقن الهيروغليفية ولا هو من أوجدها ـ ففي حياته لم يكن أحد يتقن الهيروغليفية المصرية التي حلت رموزها أصلاً في عام 1822. الهنود الحمر ـ الميك ماك هم قبيلة من عائلة الهنود الحمر الألغونيين الكبيرة. وثمة قبائل أخرى تدعى فاباتاكي وترجمتها «الرجال من الشرق» تظهر لغتهم صلة واضحة مع اللغة الكلتية (وليس كتابتهم). ينطبق هذا بشكل خاص على أسماء الأنهر والجبال في منطقتهم. استخدم الألغونيين هذه الأسماء ككلمات أجنبية لم يقدروا على إعطاء معناها إلاّ على نحو تقريبي.

وفهم الألغونيون اسم النهر الكبير «أموسكيج» كنهر فيه أسماك صغيرة «لأن هذه الترجمة ذكرها لهم حينئذ الكلتيون.

ولا يوجد تفسير لإعطاء هذا الاسم غير الهندي الأحمر نفس المعنى الذي له في الكلتية، إلاّ هذا التفسير. فكلمة «أموسكيج» يمكن إرجاعها بسهولة إلى الكلمة الكلتية «آمو إياسجاج»، وآمو تعني نهر وإياسجاج تعني أسماكاً صغيرة[258].

لقد جمع جي ألموس روسل في عام 1972، عدداً غير قليل من الأمثلة سنختار منها اثنين آخرين: بيسكاتاكوا (بالكلتي: نهر فيه حجارة بيضاء) و«سيمينل (بالكلتي: غبار الصخور) كل من هذين المثالين يبرهن بشكل ثابت على الحضور الكلتي في منطقة شمال أمريكة. ولقد تخطت أسماء الأنهار والجبال الكلتية القرون، لأن الجبال والأنهار ـ في كل مكان ـ تعد شيئاً مقدساً. إذ أن الهيبة والوعي بالتراث تجعل هذه الأسماء أمراً ذا أهمية بالغة، لا يتغير اسمه مع كل موجة هجرة جديدة.

ليس وحدها لغة الغاباناكي الخاصة بالألغونيين في نيو إنجلند وكندا الحاليتين تترك آثاراً لغوية من العالم القديم، بل ثمة لغة قبيلة الزوني في نيو مكسيكو التي تحتوي على عناصر من العالم القديم. وكما يؤكد باري فل فهي متجانسة من ناحية تاريخ اللفظة مع اللهجات في شمال إفريقية، التي لا تتبين إلاّ بصعوبة بالغة منذ استيطان المهاجرين المسيحيين. لأن عدد الزونيين تراجع للغاية بحيث لا يوجد اليوم إلاّ بضع مئات من أخلافهم. كما أن لغتهم تراجعت وانضوت. ويعد اللغويون

حوالي 1200 كلمة ما تزال موجودة إلى اليوم وإن كان جلها كلمات مقتبسة من اللغات الأوروبية. بيد أن الصلة الايتومولوجية بين مجموعة من الكلمات الزونية والمفردات الشمال إفريقية ما تزال قائمة ويمكن إثباتها[259].

بعد هذه اللمحة عن التشابه اللغوي يمكن التنويه إلى عرض صوري مدهش ونقصد به «صورة لفيل». فمن المعلوم أنه لا يوجد ولم يكن يوجد فيلة في القارة الأمريكية. فلا بد إذاً أن يكون كل نوع من ذِكْرٍ أو عَرْضٍ لهذا الحيوان في أمريكة قد استوحي من خارجها. وغالباً ما تحولت صور الفيلة إلى مادة لنقاشات حادة، توضح من خلالها أن موضوع النزاع لم يكن دائماً فيلاً. غير أن المسألة ستكون مغايرة في الحالة التالية، فعلى لوح قداسي ثلاثي الزوايا عثر عليه في السبعينات من هذا القرن في كونيكا الأكوادورية يظهر تحت صورة فيل اسمه في الخط الليبي ويحمل النص التالي «الفيل يحمل الأرض فوق المياه ويجعلها تهتز»[260].

140

والأحرف «ى» «ب» «ي» في المصرية كما في الليبية هي حروف الكلمة «فيل». الحيوان مصور بشكل مضحك وينقصه التعبير لكن المقصود به الفيل دون أدنى شك[261].

ومن الجائز أن يكون تاريخ لوح «الفيل» يعود للقرن الثالث قبل الميلاد. وفي نفس الفترة تقريباً نشأت شواهد في قرطاجة

تبين فيلاً إلى جانب نقش، ويذكر أن الفيل كان في البلد الأم جديراً دائماً بالتصوير.

141

لعبت الفيلة منذ عام 300 ق .م، تقريباً أي سنة نشوء صورتي الفيل المذكورتين، دوراً هاماً في الصراعات العسكرية في منطقة البحر المتوسط. ألكسندر الكبير استخدم الفيلة في إحدى حملاته في الهند كدعم لعربات القتال وللجنود وعرف دورها الفعال والمؤثر(262). وفي قرطاجة لعبت دوراً كبيراً كوسيلة لتقديم الإمدادات. وأصبح الفيل في أهميته يبز عربات القتال(263). كما زج القرطاجيون الفيل ليس في شمال إفريقية بل في جزيرة صقلية وفي إسبانية، وكما يعرف كل طلبة المدارس عن ظهر قلب، كيف أن فيلة هانيبال لم تستطع أن تنجو من جبال الألف المغطاة بالثلج دون صعوبة.

وعندما أملت روما شروط السلام على خصمها العسكري قرطاجة بعد الحروب البونية عام 146ق .م، كانت تعير أهمية لأن لا يكون في حوزة القرطاجيين هذا السلاح، ومنعتهم روما من الاحتفاظ أو الإمساك بهذه الحيوانات(264).

على أنه ليس من المستغرب بالنظر للأهمية الكبيرة التي كانت تحظى بها الفيلة، أنها أصبحت مادة للتصوير: «الفيل يجعل الأرض تهتز». ولربما لم تكن الأرض وحدها التي تهتز تحت أرجلها وإنما قلوب الناس التي يصيبها الهلع منها. وعلى أية حال كانت تخلد صور الفيلة على لوائح التقديس وعلى

شواهد القبور. وكما أوضحنا وصلت بعض من صور الفيلة هذه حتى إلى أمريكة الجنوبية على النقوش.

ولنعد مرة أخرى إلى المقارنات اللغوية بين لغات العالم القديم والعالم الجديد. في بداية القرن هذا أخذ المختص في الأتنولوجيا فرانك روسل على عاتقه وبتكليف من مكتب الأتنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية ـ البحث في لغة الهنود الحمر ـ البيما في أمريكة الشمالية. وكان النص الطويل للأغنية التي تتحدث عن «الخلق» سائرة على لسان «الماجير» (الحكيم) يحفظه غيباً ويمليه[265]. ويدعوه أفراد القبيلة بلفظ «ماكاي»، وهي الكلمة القريبة من الكلمة السابقة ماجي أو «المجير».

ثمة قائمة تبين متشابهات إضافية بين مفردات لغة البيما واللغة السامية، نذكر منها كأمثلة بينة:

سامي	بيما	المعنى
هاوا	هوا	فضاء ـ سماء
أمار	مار	قمر
رسوب	رسو	طوفان

يطلق باري فل على لغة البيما على أنها شكل من اللغة البونية المحورة، ويعزو السبب في ذلك إلى نوع من البساطة في البيما، إذ أن الهنود الحمر أخذوا هذه اللغة عن أناس تعلموا هم بدورهم اللغة السامية ـ البونية كلغة أجنبية[266].

ولربما كانت نوعاً من الإسبرانتو التي كانت تتم المعاملات التجارية العالمية بواسطتها؟ لكن حتى هذه البونية الساذجة، ينطقها هندي أحمر ـ من البيما لها جرس كالموسيقى يشنف آذان الباحثين عن الآثار. بيد أن البحث في اللغات الأمريكية القديمة يترك أسئلة عديدة بدون إجابة. فكثير من المساهمات العلمية عن هذا الموضوع العلمي المعقد تقدم مجرد نتائج أولية ولها أهمية في كونها دوافع فكرية بناءة لأبحاث إضافية. إحدى هذه المهام غير المنجزة من الأعمال البحثية يبقى تفسير «لوحة الآجر» في كومالكاكو في المكسيك وعليها مئات من الرموز والرسوم والعلامات، أو نقوش ـ ما تزال تنتظر حل رموزها. ولكن رغم العدد الكبير من الأسئلة المفتوحة ثمة تقدم في استقصاء تاريخ أمريكة القديم. ولم يعد التاريخ بهذا الغموض بحيث لا تطل منه آثار لزوار من العالم القديم قدموا إلى أمريكة.

6 ـ العبادة والكون

إن الافتتان الذي أحسَّ به الناس وما يزالون في كل الأوقات والحضارات لدى مشهد الكون هو جزءٌ من الطبيعة البشرية عمره بعمر أحاسيس الناس كالضحك والبكاء.

ولقد كان اهتمام أسلافنا في دراسة سماء النجوم مشابهاً للاهتمام الذي يقوم به أبناء عصرنا في دراستهم اليومية لحالة الطقس، والتقاويم الزمنية، وبرامج التلفزيون ونتائج اليانصيب وقراءة أبراج النجوم اليومية.

إيقاع «الفصول» حَدَّد منذ الأزل حياة الناس. والحركات التي تتكرر بشكل دوري في قبة السماء شكَّلت مساعدة لتحديد الاتجاه ــ بدايةً للصيادين والحطابين في تجوالهم ــ وبعدها للفلاحين المستقرين مع الإيقاع السنوي للزراعة. في تلك الأزمنة كانت النجوم بمثابة ساعة الجيب التي نافسَ من خلالها ذات يوم المخترع هنلاين ساعة السماء. ولم يكن هناك داعٍ لشحذ الاهتمام بسماء النجوم لأن يجري تبادل علماء عبر الأطلسي لكي يكتسب النزاع حول الحديث الكوني صفةً عالميةً. إلاَّ أنه من الأهمية بمكان أن يُصار، وفي إطار المقارنة

الحضارية التاريخية، إلى التأكيد بأن المعارف الفلكية والدقة في حساب التقويم في الحضارات الراقية الأولية للشرق الأدنى ووسط أمريكة كانت تحتل مستوىً رفيعاً مشابهاً لبعضه البعض. وليس بالإمكان المعرفة بدقة متى بدأ الإنسان إدراك إمكانية حساب حركة الكواكب والنجوم. المؤكد هو معرفة إمكانية حساب مسارات الكواكب وحركاتها التي تتكرّر برتابةٍ أزلية، قد ملأ الناس بشعور العجز والهيبة أمام هذا النظام الكوني أكثر من شعور الرضى والفخر.

وفي نفس القدر الذي كان فيه الفكر الإنساني يسجل انتصاراته في مجال حساب القوانين الفلكية، فرحاً بهذا الإنجاز، إلاّ أنه كان يقرُّ في الوقت ذاته بعدم أهميته. فلا حساباته العبقرية عن سماء النجوم جعلته في موقع يخوّله من أن يتمكن من حساب قدره الخاص به. وجد نفسه مشدوداً إلى العلاقات الكونية ونواميسها، التي لم يفهمها ولم يقدر على تغييرها. لذا كانت الهيبة والخوف، وهما متلازمتان للدِّين، تتوضعان في مهد الحضارات، حين اكتسب الفلك قدسيته الدينية.

وليس من السهل التفريق فيما إذا كان التطابق الموجود دون أدنى ريب في العبادات الكونية وفي حساب التقويم بين الشرق والغرب مرده الاتصال أو بالأحرى التبادل الفكري بينهما أو أنه متأصل في الطبيعة البشرية. إن العبادات الكونية وكما هو نزوع

الإنسان إلى النجوم، إلى الآلهة منتشرة على الصعيد العالمي. لكن هل لمجرد هذا السبب سنشيح بوجهنا عن التطابق في العبادات وأهميتها في بحثنا عن الآثار؟ بالتأكيد كلا، لأن ثمة شواهد محددة لا يمكن إيجاد تفسير لها من غير أن تكون حدثت اتصالات بين المنطقتين.

ورغم كل التطابقات التي تمليها الطبيعة في الحسابات الفلكية، فإن تطبيق هذه المعارف في المجال الحسي هو صياغة خاصة على الدوام قد تختلف حسب المحيط الثقافي، وفي هذا تبرز اختلافات بين الشعوب. وينبغي أن يكون التطبيق مختلفاً إذ أن صورة العبادة تشكل بصمات الشعب ومظهراً لعالم تصوراته وخبراته. وحين تتأكد التطابقات بشكل جلي، فلا بد عندئذ إلاّ أن تكون نتيجة للتبادل وليس لمجرد التشابه.

صورة المسيح المصلوب تعتبر مثلاً على ذلك في وقت لاحق. فصورة المسيح في أمريكة اللاتينية تختلف في القرن العشرين في كثير من النواحي عن صورة المسيح خلال العصور الوسطى في وسط أوروبا. إلاّ أن رمز الصليب المسيحي يبقى نفسه في كل البلدان وعلى مدى القرون. حيث يستقرأ من الصليب المجال الثقافي كمجال ثقافي مسيحي.

نفس الشيء يسري على عبادة الشمس التي يمكن معرفته من خلال رموزها. من هذه الرموز الشمسية الهالة المحيطة بها. ومن عربة الشمس هذه يستدل على مكان للعبادة مكوس

لآلهة الشمس. وفي كثير من البلدان تستأثر الهالة الشمسية بأهميتها كعلامة مقدسة ـ أيضاً في أمريكة القديمة.

ولا يمكن جعل قوة الإثبات الرائعة للتطابق الشكلي مجرد أمر نسبي، ليستدل من العجلة الشمسية على عدم إمكانية إخطائها. فالواقع هو أن موضوع رمز العجلة ليس شكلاً غير عادي، إنما قوة دلالته ضمن موضوعنا تأخذ مدى أوسع لأنها ترد دائماً مع رموز الشمس الأخرى. ومرة ثانية نقول إن كل الرموز بحد ذاتها لا يمكن إخطاؤها، لكن نظراً لمحصلة ارتباطها مع بعضها في موضوع عبادة الشمس وهياكلها، فإنها تستحق كل اهتمام. يعد من ضمن رموز الشمس هذه التي ترد مع الهالة في جزءي الكرة الأرضية، المربع ذو الأجزاء الأربعة، والمستطيل ذو الشكل الشبكي والسلالم[266].

لم يكن بالإمكان المحافظة على الأعياد المقدَّسة على شرف آلهة الكواكب من دون التقويم الفلكي. وقد يجر الاستهتار بأجواء التبجيل للآلهة آثاراً مدمرة للبشرية. هذا ما كان يعتقد به على الأقل عَبَدَةُ الشمس والقمر ونجمة الزهراء (فينوس) وآلهة الكواكب الأخرى. إن هذه الخشية المرتكزة على الخوف من آلهة السماء قادت إلى جهود ومساع خارقة كي يصار إلى حساب دقيق لدورة الكواكب ـ فكلما كان الحساب دقيقاً وبشكل مسبق لظهور كوكب معين وفي نقطة معينة في قبة السماء، كان القيام بواجب التقديس لآلهة النجوم أكثر قدسية

وجلالاً. وكانت نتيجة المساعي الورعة هذه بروز تقويم دقيق للغاية وغدا بذلك في الشرق كما في الغرب عنصراً للاهتداء على الوجهة، وتحديد الاتجاه وكذلك لهيكلة الجماعة ثم من أجل تحد فكري للعلماء. وفي مقارنة صيغ التقويمات، ثمة دليل على الاتصالات عبر الأطلسي يكتسب صفة الصحة، ولكن ليس بالضرورة الإلزامية.

توجد متوازيات في التفاصيل في الحسابات الكونية تتطابق مع بعضها لدرجة مذهلة. من ضمن هذه التطابقات حساب الزمن عند المايا و«اليهود». فكل شعب قرر في فترة من تاريخه أن يحسب ويعيش على حسب تقويمه. ولزم الأمر اتخاذ قرار حول نظامه التقويمي وقرار لتاريخ بدايته. فلدى المسيحيين يعتبر ميلاد المسيح النقطة صفر في التقويم، ولدى الإغريق أول ألعاب أولمبية جرت عام (776 ق.م.) ولدى الرومان تأسيس روما عام (753 ق.م.) وعند المسلمين هجرة النبي ﷺ من مَكَّةَ إلى المدينة عام (722 ب.م.) وعند اليهود «خلق الأرض» في الألف الرابعة قبل الميلاد (3761 ق.م.) ينطلق المايا في تقويمهم من بداية خلق الأرض أي حوالي الألف الرابعة «قبل الميلاد»[267].

يكتسب هذا التطابق أهمية خاصة بشأن الفترة التي استخدم فيها المايا نظام التقويم لأول مرة، أو بالأحرى متى بدأ المايا في استخدام الحساب لأول مرة. يجيب عن هذه التساؤلات

عالما الرياضيات اللذان بحثا في حضارة المايا، سبندن ومولاري: حيث يرجع شسبندن بداية هذه المعلومات إلى العلاقة الخاصة المذكورة في كتاباتهم عن الشهور والسنين ما بين 850 ـ 613 (ق.م.)[268] . ويعود مولاري بالتاريخ هذا، انطلاقاً من دورات نظام التقويم المتسلسلة لدى المايا إلى عام «الباكتون» (7 ـ 70000) أي ما يوازي عام (353 ق.م.)[269]. وبهذا يكون الاثنان قد حددا بداية حساب الوقت لدى المايا وبشكل متشابه تقريباً بالفترة التي تشير إلى وجود اتصالات مكثفة بين الهنود الحمر والساميين.

يتساءل المختصون في الأمريكيات عن سبب وجود التقويم الزمني المفاجىء والدقيق والمعتمد في وسط أمريكة، مع العلم أنه لا يعرف شيء عن خطوات تمهيدية سبقته. من أين جاء هذا التقويم؟ فمن ناحية هو يعتبر شيئاً عبقرياً؟ كما يؤكد حتى «مخالفو نظرية الاتصالات قبل كولومبوس» لكن الحسابات والمراقبات الفلكية التي انطلق منها المايا في حساب تقويمهم، لا يمكن أن تكون أنجزت دون خطوات تمهيدية على مدى قرون. كيف قيض للألميك والمايا إنجاز قوائمهم الفلكية التي تبعث على الدهشة والحيرة من غير وسائل فنية أو من دون نماذج فكرية أو معلمين وكيف توصلوا إلى عملهم الفلكي هذا؟

أليس من الجائز أنهم دوَّنوا خطواتهم التمهيدية وقاموا

بإعدادها في السابق على مواد قابلة للتآكل، كالخشب، لم تصمد لعوامل الزمن. أليس من الممكن أن يكون التدوين قد جرى في مرحلته النهائية على رقم فخارية وشواهد حجرية[270]. لا نستطيع بطبيعة الحال إثبات العكس عن نظرية فناء الملاحظات الفلكية الأولية. ولا مناص من الاعتقاد بوجود حسابات تقويمية أخذها الأمريكيون القدماء في مرحلتهم الأولى من خارج القارة الأمريكية، وهذا يبدو أكثر إقناعاً.

وليس ثمة شك أن القسم الأعظم من حسابات التقويم الأمريكية القديمة تكتسب صفة مستقلة وتظهر صفة خاصة بها. وهذا يتجلى في التفسير المغاير عن مفهوم الزمن الذي سنقدم له دليلاً فيما سيأتي.

ظاهرة تشخيص الأيام ووحدات الزمن الأخرى في تقويم المايا غير معروفة في الشرق الأدنى. فعلى سبيل المثال تحمل وحدات اليوم المميزة في تصور المايا حزمة وقتهم عبر الفترة الزمنية، التي تقاس عليهم ومن ثم يقومون بتسليمها إلى اليوم التالي[271]. وكل يوم تشخيص له معنى إضافي ذي دلالة إيجابية أو سلبية يقوم الكهنة الفلكيون في دمجه ضمن النبوءة. كانت مهمة الكهنة الفلكيين عند المايا أصعب من مهمة أمثالهم لدى الحضارات الأخرى، لأنه توجب عليهم مراعاة ثلاث دورات فلكية في نبوءتهم بدلاً من واحدة عند غيرهم. تطابق الدورة الأولى تقريباً سنتنا الشمسية، إلا أنها مقسمة إلى 18 مرة

لعشرين يوماً. وللمقارنة: قسم البابليون السنة إلى ثلاث مرات مضروبة بـ 120 يوماً. أما الأيام الخمسة الباقية: فاعتبرت في الحضارتين كوحدة خاصة: الدورة الثانية فيها 260 يوماً مقسمة على 13 مرة مضروبة بـ عشرين يوماً واعتبرته التقويم المقدس. والدورة الثالثة الأخيرة سارت في إيقاع زمني مكون من 584 يوماً.

كانت هذه الدورات تدور على شكل مسننات عظيمة وبسرعة مختلفة على عكس بعضها البعض. وقبل أن يصادف مرور اليوم الأول في السنة الشمسية مثلاً مع اليوم الأول في سنة العبادة مجدداً، تمر فترة زمنية من 52 عاماً لها عند المايا أهمية الدورة التقويمية لقرن من الزمن.

وعلى الرغم من اختلاف المعايير ثمة تشابه عبر الأطلسي في التفاصيل وخاصة في العرض الرمزي للعبادة الفلكية، كما ذكر سابقاً رمز اليد والرقم 4,5 الرقم الرمزي لكوكب المشتري[272]. وتظهر الكف المبسوطة بأصابعها الأربعة والإصبع الإبهام كرمز مناسب لهذا الرقم الرمزي أي للكوكب والإله المشتري: وظيفة المشتري كإله يحمي التجار والباعة نشأ عن السرعة التي يدور فيها هذا الكوكب حول الشمس المواجهة له. وعلى نفس المنوال يسهل المشتري عمل التجار في رحلاتهم التجارية.

كما يعتبر رمز اليد في هذه الأيام في بعض دول الشرق

الأدنى والدول العربية الأخرى كجالب للحظ فيما يسمى «يد فاطمة».

أشرنا فيما سبق.في الفصل الخاص بالآلهة والأبطال عن رمز الكف المبسوطة للأعلى وعليها سوار. أصل الرمز موجود في الحسابات الفلكية عن صورة كوكب المشتري، التي جرت فيما مضى في بابل القديمة. لكن كيف وصل رمز اليد الممتدة إلى أمريكة القديمة يبقى أمراً غير معروف. الحسابات التي وضعها البابليون عن مسار المشتري هي كذلك معروفة من العالم الجديد. لذا من الحق التكهن أن أفكار ودافع يد المشتري وصلت إلى أمريكة القديمة من خلال البحارة القدماء الذين كانوا يقدسون المشتري غاية التقديس. وعلى أي حال يشير البُعد والموقع لرمز اليد في بعض الحالات، كما هو في مثال الجدار الصخري العالي في كالكاتسينجو المكسيكية، إلى الوظيفة العظيمة لرمز اليد وليس إلى مجرد شكل تزييني. صورة أخرى تدل على رمز اليد وتشكل بينة مذهلة لعبور الأطلسي قبل كولومبوس، وفيها تكون العين موجودة على باطن الكف. هذه الصورة توجد في بعض البلدان العربية، وهي صورة مألوفة في أمريكة القديمة. لكن فيلي يعلق بشكل مقتضب عليها قائلاً: «صورة تزيينية ليد وعليها عين»[273] كما لو أن أمر هذه الزينة أمر يومي مألوف.

143,142

بيد أن شيلدمان ينوه إلى هذا المرمز المزدوج على أنه ليس

مجرد مطابقة لرمزين مختلفين، وإنما يمثل رمزاً للسنة ضارباً في القدم. فالعين تمثل الشمس ـ ذكر هذا في علاقته مع تقديس بعل[274] ـ والشمس مترادفة ـ ما يزال هذا سارياً حتى اليوم ـ للسنة التي يبلغ عدد أيامها في كلتا الثقافتين 360 يوماً. أما الخمسة أيام المتبقية فلقد اعتبرت في كلتا الثقافتين كمجموعة خاصة أُتبعت إلى الـ: 360 يوماً. وإذا أريد الإشارة إلى كامل السنة المؤلفة من 365 يوماً، عندئذ يشير البابليون إلى رمز «اليد مع العين» ويعني سنة مضافاً إليها خمسة أيام[275].

وبما أنه يمكن إيجاد الدليل عن الرمز هذا، في أمريكة القديمة يكون التطابق الباهر حينئذ من قبيل الصدفة أبداً. تتحدث عن ذلك العناصر المكونة للتطابق ذات المنشأ الغريب. ليست اليد المفتوحة وفي وسط كفها عين دافعاً يخطر على بال الفنان تلقائياً. ومن المؤكد الاعتقاد، أن الفنان الأمريكي القديم قد ألف المعنى الحسي للتقاليد الفلكية لشعبه ـ أو أنه تلقى نماذج من تاريخ العالم القديم عنها.

كما تعتبر النجمة التي فيها ست زوايا من الرموز التي انتشرت عبر الأطلسي. ويعتقد أنها ظهرت مرة في بلاد بابل، وكانت تعتبر رمزاً للملك سليمان[276].

إن صورة الشاهدة المعروضة في هذا الكتاب من عصر المايا الكلاسيكي من مدينة كامبيش المكسيكية تقدم بوضوح صورة بحار من العالم القديم. ولا بد أن يكون موضوع

145 الصورة بحاراً، ذلك أن غطاء الرأس له شكل سفينة، وتبدو مقدمتها بوضوح وكذلك مؤخرتها والمجاذيف الجانبية والصواري. ثم إن مقدمة السفينة على حافة الشاهدة هي تأكيد إضافي لهذا التفسير.

والإثبات على أن الصورة هي لبحار قديم لا يأتي من ملامح الوجه بقدر ما يمكن إدراكه من آلة التقديس التي يمسكها البحار بيده. ينسجم الشكل بصورة مذهلة مع أنموذج هيكل المذبح المتنقل الواسع الانتشار في الشرق الأدنى. ويدل عليه شكله الممدود وأجزاؤه المتعاكسة في أطرافه العلوية والوسطى والسفلية (لم يعد الشكل موجوداً) وله في قسمه الأعلى مقبض يحمل به. جهاز التقديس هذا كان في الشرق الأدنى ذا أهمية بالغة القصوى ويحظى بشعبية، بحيث أن نماذج صغيرة عنه لا تزال موجودة وتستخدم كتعويذة «للمؤمنين». مثل هيكل المذبح هذا من الشرق الأدنى موجود منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وهو بطول 3 سم فقط، ويشابه لحد كبير جهاز التقديس المحمول من البحار المنقوش على شاهدة المايا.

صورة هيكل المذبح في يد بحار مشرقي يقدم شكره للآلهة بالبخور لأنها وقفت إلى جانبه في عبوره الناجح للمحيط تعتبر حجر موازييك تنسجم دون أدنى عناء مع الصورة الثقافية التاريخية الشاملة التي نحن بصدد معالجتها.

ومن ناحية أخرى نجد في زينة البحار المنقوشة على شاهدة

كامبيشي براهين واضحة تثبت أنها كانت من الشرق الأدنى. مثال على ذلك الشعار الذي يضعه أحد الفينيقيين كزينة على أُذُنه[277].

كثيرة إذن هي الإشارات على رحلات البحر. ومما يجدر ذكره هو أن رمز نجمة الزهرة يدل على بداية سنة. ويقترن الكوكب نجمة الصبح الذي يظهر في الميثولوجيا الأمريكية القديمة «بالإله الأبيض» الذي جاء أيضاً من الشرق[278].

ويلح بشكل فائق التوقع بأن موضوع البحر المعروض على شاهدة كامبيشي يتعلق ببطل هام ولربما بإله يحظى بتبجيل البحّارة من الشرق. لأنه من غير الممكن ذكر بحّار عادي على شاهدة إذا لم يكن يحظى بمثل هذا القدر من الأهمية لا يتمتع بها بحّار عادي.

ثمة إشارة ملموسة إلى تمثال بحّار معروض: والمهم فيها الإهداء الهام الموضوع عند قدمي الشكل. يبدو الرمز الثلاثي الانحناءات تحت رأس إله على شاهدة من سانتا لوتسيا كوتسو ماهوابا (غواتيمالا). وعلى حافة معبد في مونتي ألبان ـ وهنا ليس إلى جانب بحار، بل بالقرب من سبّاح[279]. وليس من المستبعد أن يكون في ذلك إشارة إلى الوصول التاريخي لبحّار من العالم القديم، وصل لاحقاً إلى موقع التبجيل في مملكة الهنود الحمر، أي إلى مرتبة «الإله الأبيض». نعود مرة أخرى إلى رموز الأرقام: نذكر أولاً الرقم 20 الذي شكّل حجر

الأساس في كل حساب. وكان المايا يستخدمون النظام العشريني في حسابهم بينما نحسب نحن بالنظام العشري. ومن أجل فهم أفضل وللتوضيح نذكر مثلاً الرقم المتسلسل في النظام العشري «1 ـ 10 ـ 100 ـ 1000» الذي يطابق عند المايا التتابع «1 ـ 20 ـ 400 ـ 8000». وقد يبدو هذا غريباً بعض الشيء وأمريكياً قديماً نموذجياً، لكنه كان النظام المعمول به في العالم القديم. السومريون والفينيقيون على سبيل المثال، استخدموا النظام الحسابي ذاته. وليس عجيباً معرفة أن هذا النظام الحسابي متعارف عليه في الفرنسية، في الرقم ثمانين 4×20 (كاتر فانت)[280].

عدا عن ذلك كان الرقم 20 عند المايا قاعدة لتقسيم التقويم في السنة العبادية التي انقسمت إلى 20× 13. فمن الأهمية الخاصة للرقم 20 ينتج أهمية خاصة للرقم 400 (20× 20). وكان يكتب الرقم 400 بنقطة بسيطة ومحارة. علامة نهاية العد العشريني. في الشرق كان يحظى الرقم بأهمية مميَّزة. إذ تعتبر الأحرف ذات مدلولات رقمية ألف، باء، تاء، ج . 1. 2. 3. 4. وفي الأعداد العشرية والمئوية يصل قيمة الرقم للحرف الأخير القيمة 400، وهنا تشابه مدهش مع نظام العد عند المايا. ألا يدعو ذلك صراحة للدهشة، أن يرد نفس الشيء وبنفس المعاني. ولنبدأ بالرقم (13) الذي يستأثر اليوم باهتمام خاص. ثمة بعض الفنادق تذكر أن بها 13 طابقاً أو أن فيها رقم

الغرفة (13)، هذه الغرفة تبقى دائماً غير مشغولة. يعتقد أن أهمية الرقم (13) تعود إلى الحساب الفلكي القديم إذا كان الرقم 12 الوحدة التقليدية والرقم (13) خارج هذه الوحدة[281].

وخلافاً لما يعتقد به البعض في هذه الأيام أن الرقم (13) يجلب الحظ السيِّىء، هناك حضارات تعتقد أن الرقم (13) له مفعول مغاير تماماً؛ إنه يجلب الحظ الجيِّد. من ضمن هذه الشعوب التي تعتقد بذلك المايا والشعب السامي. السنة العبادية تتألف من 20 يوماً × 13. إذ شكَّل الرقم الأخير قاعدة للحسابات التنجيمية مثل التنبؤ وكشف الطالع. ومن ناحية أخرى تخيَّل المايا، أن السماء مقسَّمة إلى 13 طبقة مختلفة. هذا بعض من النماذج الجيِّدة عن موقع الرقم 13.

وفي التوراة يقرأ المرء 13 صفةً للإله و(13) نبعاً سماوياً، و(13) باباً للرحمة و(13) جدولاً من البلسم الشافي التي تنتظر المؤمنين في الجنة[282].

ولنبق قليلاً عند مقارنة النصوص السابقة: عن خلق الأرض كما يذكر الأمريكيون القدامى، المايا، أكان ذلك للمرة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة. وكما يقال، كانت الأرض تتدمَّر بفعل الطوفان، بعد كل خلق[283]. ويرد في تاريخ «بوبول فوه» الرصين، أنه لم يكن موجوداً سوى الماء في البدء، ثم خلقت الحيوانات والنباتات وبعدها خلق الإنسان من طين. وهذا يبدو

معروفاً بالنسبة لنا! بيد أن الفرحة بالمتطابقات في القضايا الجوهرية عن أصل الإنسان لن تدوم طويلاً، فما يلبث أن تطل علينا إضافة في «بوبول فوة»، إذ لم ترق صورة الطين لآلهة أمريكة القدماء، الذين بادروا إلى محاولة جديدة بمادة جديدة هي الخشب[284]. ولماذا أوقف الآلهة بعدها محاولاتهم، عن هذا لم يصل إلينا شيء.

توضح الأحاديث الأسطورية من العالمين متشابهات تبعث على الانبهار. يبدأ تاريخ الخلق في أمريكة القديمة بالإشارة إلى أن البداية كانت ماء على الأرض[285]. وكما الحديث أيضاً في أمريكة القديمة عن الحيرة والارتباك اللغوي يحدث هذا كما يذكر في (التوراة) أثناء بناء مشروع طموح قام به أسلافنا: أرادوا تشييد برج يصل إلى السماء. وفي القرن السابع عشر دوَّن الأب الكاثوليكي نونتس دي لافيجا هذه المقولة الأمريكية القديمة عن بناء برج بابل طبقاً لروايات الهنود الحمر. وسوف نغمطه حقه إذا سلَّمنا أن هذه الروايات جرى تغريبها عن قصد وعلم كي يوجد تشابه مع روايات التوراة، حتى ولو أكدها خصوم فكرة الانتقال عبر الأطلسي.

والأفعى التي كانت شريكة في المسؤولية عن خروجنا من جنة عدن، (ولذلك بقيت في ذكريات الإنسان عن الجنة في العالم القديم)، لعبت دوراً مهماً في أمريكة القديمة، إذ اكتسبت صفة ألوهية أو أن اسمها أصبح مقترناً بالآلهة

«كويتسال كوتل، كوكولكان، وكوكوماتس»[286]، فآلهة «الأفعى ذات الريش» لذلك الإله الأبيض من الشرق، جلبت للهنود الحمر المعارف عن الطب أيضاً. وفي العالم الجديد كانت توجد صلة وما تزال بين مفاهيم «الأفعى» ـ «الإله» ـ و«فن الشفاء». فالعصا التي تلتف حولها أفعى تعتبر رمز الطب، وعلامة تدل على الصيدليات. وأخيراً فإن الشفاء في كل مستوياته (الإيتومولوجية، والثيولوجية، والموثيولوجية) ترتبط كلها بالألوهية. ولا يخفى على أحد مفاهيم «الشافي»، والأرض المقدَّسة، والمقدس* كوحدات متصلة فيما بينها. وعندما يكون الربط بين «الإله» و«الشافي» و«الأفعى» في نفس الشكل في أمريكة القديمة كذلك، فلا بد أن يكون هذا جديراً بالتنويه عنه.

تحتل في عبادات العالم القديم والعالم الحديث حيوانات أخرى موقعاً أسطورياً بالإضافة إلى الأفعى. ويلعب النمر دوراً هاماً في عبادة الشرق الأدنى. والدور الأهم له كان أمريكة القديمة. ويمكن التحدث عن عبادة القطاط المتوحشة عند الألميك الأوائل بكل معنى الكلمة، إذ تركزت طقوسهم الدينية كلها على الفهد. وفي حضارة الشافين (من القرن التاسع ـ الرابع ق.م.) في أمريكة الجنوبية لعبت القطاط البرية دوراً هاماً في العبادة.

(*) تشتق كلمة مقدس من يشفي في الألمانية «هايلن وهايليش» (المترجم).

يؤتى على ذكر القطاط البرية في العصر البابلي القديم في صلتها مع العبادة وتعتبر في كلتا الحضارتين حيوانات مقدَّسة. وفي مجال الحضارة الكريتية ـ الميسينية ثمة صور عن القطاط المقدَّسة مرسومة حتى على شواهد القبور. وتعكس صورة قطة متوحشة فينيقية من القرن السادس قبل الميلاد أهمية عبادة القطاط كحيوانات محبَّبة عند الفينيقيين.

147,146

اختار العلماء في الشرق والغرب وبتوافق ملفت للنظر الخفاش من عالم الحيوان الكبير كحيوان رمزي. كثيرة هي الصفات التي أطلقتها شعوب الشرق الأدنى الحضارية عليه كحيوان رائع ومدهش وذي قوة خارقة. ولا يزال الاعتقاد الشعبي لدى الأوروبيين سائداً إلى يومنا هذا بالقوة السحرية للخفاش، إذ يسخِّرون هذه «القوة»، كما يعتقدون، فيسمِّرون على أبواب اسطبلاتهم خفافيش تحميهم من الأرواح الشريرة.

ويمكن معرفة الاعتقاد بالخفافيش في العالم الجديد في فترة المايا الكلاسيكية من أنهم عبدوا إله الخفاش الذي كان يطلق عليه في لغتهم «تسوتسيل» وتعني حرفياً «الخفاش»(287). لكن لماذا رفع الخفاش في جانبي الأطلسي إلى هذه المرتبة الخاصة؟ هل كان ذلك محض صدفة نظراً للعدد الهائل من الحيوانات في كلا المحيطين الحضاريين، وبمعزل عن الآخر. يبدو هذا التوقع غير مؤهَّل للاستمرار. ولا يبقى سوى التفسير الوحيد: تبادل الحضارات عبر الأطلسي كان السبب في ذلك.

ولنذكر مجدداً متشابهين آخرين من عالم الحيوانات الخرافية ـ أبو الهول، والإنسان الطائر . .

بعد هذا العرض المسهب عن رموز الحيوانات في عبادات العالم القديم وأمريكة القديمة نوجه عنايتنا إلى العبادة ذاتها والأفعال التعبدية.

لقد حرص الناس في القدم على القيام بشعائرهم الدينية بتسليم وانهماك من الصعب علينا تصوره. ومارس الأمريكيون القدماء هذه الشعائر العبادية بطريقة مفرطة للغاية: حيث كان يجري نزع القلوب من الأجساد الحية، وفرض الأمريكيون القدماء على أنفسهم صوماً استغرق أشهراً طويلة وأخضعوا أنفسهم لشعائر غاية في المبالغة، لمجرد أن ديانتهم كانت تطلب منهم ذلك. هذا يطرح دون أدنى شك التساؤل عن احتمال أنهم كانوا يستخدمون في طقوسهم المدمِّرة للذات مواد مخدرة جعلتهم إما يقدمون على هذا أو أنها هوَّنت عليهم فعله.

نعلم أنه استخدم مواد «هلوسة» في الشرق الأدنى وفي مصر كما في وسط أمريكة قبل كولومبوس أثناء ممارسة طقوس العبادة، بحيث أصبح تناول «فُطْر النشوة» في مجال الحضارتين شعبياً أو أنه أصبح بحد ذاته صنفاً مستقلاً من العبادة[288]. ارتفعت مكانة «الفُطْر» نفسه ليصبح موضوعاً للعبادة ويجري إعادة «صنعه» وعرضه في أماكن بارزة. 148,149

كما وجدت في القبور حجارة على شكل القرص اعتبرت أعطيات وهدايا بلغ ارتفاعها في وسط أمريكة 40 سم تقريباً وكانت تنتصب على ثلاث أرجل.

منها ما هو معروض في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك، تدعو لإجراء مقارنة مع المتشابه معها من مواد العالم القديم.

لم يأت الفُطْر الحجري في الشرق والغرب مصادفة على شكل «العضو»[289]. ففي كلتا الحضارتين تتشابه صور «العضو» في تفاصيلها الإضافية: فهي وبشكل متطابق تتصف بالزخرفة الموضوعة عليها أو الوجوه المزينة أو المصاغة بشكل مغاير. إن التشابه في عبادة الفُطْر هو في حقيقة الأمر نتاج التأثير الثقافي القادم من العالم الجديد.

غير أن المدونات الكتابية عن ممارسات العبادة المقرونة بفصول من «الهلوسة» نادرة للغاية، لأن الكهنة لم يعهدوا بعلمهم السري لأحد. وهذا يسري على كهنة العالم القديم وعلى كهنة الأضاحي لدى المايا الذين يعتقد أنهم كانوا يقعون تحت تأثير مواد مخدرة أثناء البوح بتكهناتهم.

ألّف جون اليجرو مقالة عن عبادة الشرق تحت تأثير الفطور التي تؤدي للهلوسة (أمانيتا موسكاريا). وقد قادته مداولاته عن الممارسات والخلفيات لهذه العبادة إلى أن الديانة المسيحية انطلقت من «عبادة الفطر»[290]. ولا ريب أن مثل هذه

التصريحات تسبَّبت بعد الإفصاح عنها في السبعينات إلى موجة من الاستنكار والاستهجان. ولحسن الحظ لا يلعب الجانب المسيحي «من عبادة الفطر» أهمية في دراستنا هذه، إلاّ أنه من المفيد التنويه إلى أن المواد المخدرة في العبادة الدينية لعبت دوراً في كلا العالمين لا ينبغي التقليل من شأنه.

من ضمن الممارسات التي تبدو غير مألوفة خلال ممارسة العبادة الدينية يأتي دون ريب الطهور. وتخبرنا المدونات اليهودية أن الطهور جرى لأول مرة في فينيقية، وبالتحديد من الإله «ايل» الذي نفَّذ الطهور على نفسه شخصياً[291].

وإن تتم ممارسة الطهور (قطع جلدة الحشفة) في العالمين وباستقلال تام ففي هذا الأمر ما يؤكد لنا أنه لم يكن مصادفة. وفي الحقيقة فلقد كان الطهور يجري في أمريكة القديمة. ومن ضمن الحضارات التي عرفته كانت حضارة الموكي حيث عرف عن بعض الهنود الحمر في أمريكة الشمالية أنهم قاموا بالطهور[292].

لقد اشتغل كثير من المؤلفين بظاهرة التشابه في عادات الساميين والأمريكيين القدماء. وثمة من يمثل الرأي بأن تفسير «ضياع» القبائل الإسرائيلية بعد المنفى عام 722 ق.م. لا يزال مجهولاً وعليه يمكن أن يبحث عنها في أمريكة؟![293].

أول من نبَّه إلى الازدواجية في عادات الساميين والهنود الحمر في نيو إنجلند كان العالم البوريتاني كوتان ماذر الذي

كان يعمل في الجمعية الملكية في لندن في القرن السابع عشر. وبعد ذلك أصبح مؤكداً للكثير: أن الهنود الحمر في شمال أمريكة هم أسلاف القبائل المفقودة «لإسرائيل». وعلى الرغم من ذلك فما يزال النقاش عن هذه الآراء حامي الوطيس ولم يؤدِّ إلى نتيجة ليومنا هذا(294).

ومن العادات التي تدخل في إطار بحثنا، ولها من هذا المنحى أهمية خاصة «تشويه الجمجمة الاصطناعي» الذي كنا عرجنا عليه في الفصل الخاص عن «الفسيولوجيا والفسيوغنوميا». ففكرة مد جمجمة الوليد حديثاً بطريقة غير طبيعية تبقى فكرة شاذة، قد يعتقد البعض أنها فكرة مختلقة. لكن «تشويه الجمجمة» مورس في كلتا المنطقتين. وكما أنه من غير المستبعد أن تكون المايا أخذت العادة عن الألميك، لا بد من التفكير جدياً أن هناك صلة بين أتباع هذه العادة في أمريكة وباقي العالم.

كانت الطقوس الدينية في كل الحضارات مرتبطة أيضاً بالأشكال الخارجية. ويمكن أن تكون هذه الأمور الشكلية الخارجية لا تفصح الكثير عن جوهر الديانة، إلاّ أنها حظيت كشكل ظهور طقوسي بأهمية كبيرة. فيما إذا كان رأس الكاهن حليقاً أو أنه كان عليه غطاء، أو إذا كان الثوب طويلاً أو قصيراً، أبيض أو أسود ـ كل هذه لم تكن في نظر أتباع أية

عبادة مسألة جانبية. وعليه يلاحظ أنها لا تتغيَّر حتى لو مرَّ عليها قرن من الزمن.

لقد أخذ الفينيقيون عبادتهم معهم في سفراتهم ومارسوها في المناطق البعيدة. ولا يفاجئنا معرفة أنهم حافظوا على الأشكال الخارجية لها بالنظر لأهمية هذه «المسائل الجانبية» في العبادة. إذاً يبقى البحث عن دلالات الكهنة من وسط أمريكة التي أخذوها عن كهنة العالم القديم.

مثلاً الرأس الحليق الذي كان معروفاً عند الفينيقيين والبونيين (في قادش) 295، كما كان عند الألميك الأوائل في أمريكة القديمة[296].

كانت حلاقة الرأس تحظى عند بعض شعوب البحر الأبيض المتوسط قبل الميلاد بأهمية طقوسية. كما يحدثنا هوميروس في الإلياذة. وعليه كانت تهيئة موسى الحلاقة يتم بطريقة فنية خالصة. وأيضاً عند الألميك والمايا اعتبرت الحلاقة فيما يعتقد على أنها عمل مقدَّس طقوسي. ويجدر التذكير مرة أخرى بالإجراء الذي اتخذته أمهات المايا بأبنائهن اليافعين. كن يقمن بإزالة شعر وجوه أبنائهن بالملقط بكل تؤدة.. ولا يتحمل الإنسان مثل هذا العذاب إذا لم تكن له أسبابه الطقوسية. 150

المثال الثاني المقنع، الذي لم يجد له مخالفو نظرية عبور الأطلسي قبل كولومبوس أي تفسير وأوقعهم في حيرة، هي «أحزمة الصلاة»[297]، التي يضعها «اليهودي» التقي على

ذراعه. فهي توضع بطريقة دقيقة ومحسوبة. فالذي يستخدم ذراعه الشمال في حياته العادية يضع الأحزمة على ذراعه الأَيْمن والعكس بالعكس. ومن ثم يلفها سبع مرَّات على الساعد وينتهي بالكف. 152

هذه الطريقة نفسها نلاحظها على شاهدة فيراكروز عند المايا. إذ يحمل أحدهم حزاماً على ذراعه العلوي، ويلتف سبع مرَّات على ساعده ثم يصل إلى كفّه.. لقد عولجت هذه الظاهرة وعلّق عليها على أنها لأحد لاعبي الكرة، ولأن المشتركين في لعبة الكرة توجَّب عليهم إجراء نوع من الطقوس في أمريكة الوسطى وكانوا يلفُّون أذرعتهم بهذه الأحزمة وبطريقة مشابهة. وقد يتساءل البعض، لماذا وبنفس الأسلوب كما في أحزمة الصلاة اليهودية؟. 151

كما ترك استخدام البخور، المذكور في التوراة، الذي يعود إلى فترات قديمة جداً، آثاره في أمريكة القديمة. وشكّل البخور جزءاً هاماً في العبادة الشرقية القديمة. ولم يكن يستغنى عنه في تقديم الأضاحي والقرابين ولدى الوفاة، وكان البخور ينقل عبر ما سُمّي «طرق البخور» القديمة من بلاد البخور في شبه الجزيرة العربية إلى دول الساحل المشرقي، حيث كانت تلعب طرق التجارة دوراً في السلطة السياسية. ولأن البخور حظي بأهمية عند الناس، كانوا على استعداد لتقديم كثير من التنازلات حتى ذات الطابع السياسي كي يحوزوا عليه.

ويتفق ذلك مع عادة البحَّارة الأوائل في تقديم البخور لأربابهم على الشاطىء الجديد بعد قيامهم بعبور ناجح للأطلسي، ولم يكن من العسير عليهم نقل مواد ووسائل ممارستهم لعباداتهم. حتى ولو لم يكن سهلاً نقلها معهم، لكانت الآلهة طلبت إلى مريديها تنفيذها. تحدِّد التوراة بوضوح وجوب توفر وعاء بخور لكل صباح وآخر لكل مساء[298]. ولهذا ليس مفاجئاً، وجود هذا العدد الهائل من أوعية البخور الصغيرة المنتشرة في كل مكان وطئت فيه أقدام المسافرين من المشرق القادمين بسفنهم إلى أمريكة، على سبيل المثال!

عثر في منطقة المايا، في غواتيمالا الحالية، على أداة للعبادة لها شكل وعاء البخور تماماً. وكنا ذكرنا في معرض حديثنا في فصل «الفسيولوجيا والفسيوغنوميا» وعاء بخور أمريكي قديم مرسوم على حافته العليا رؤوس عليها لحى ولا تدل على ملامح مونغوليدية. وهنا لا يتطابق في أداة العبادة هذا الشكل والغرض من الاستعمال، وإنما العلامات الأسلوبية والملامحية لأوعية البخور مع مثيلاتها من العالم القديم. ويقودنا تكوين وعاء البخور إلى القول إن هذا الوعاء الصغير لم ينجز من قبل الهنود الحمر وإنما من البحَّارة الفينيقيين على ظهر سفنهم وجرى جلبه معهم إلى العالم الجديد.

153,154

بعد الشرح عن أجهزة العبادة نكرِّس كلمات أخرى عن مضمون العبادة قبل كولومبوس. وتقدِّم التواريخ القديمة فكرة

مفصّلة عن التصورات الأخلاقية ـ الفلسفية والدينية والأخروية (خاصة بيوم القيامة) لشعب أمريكة القديم. فالتعابير كالندم، والغفران، والاعتراف، والتعميد، وحب الآخرين، كانت كلها معروفة للهنود الحمر كما لدى أناس العالم القديم. وبكلمة أدق، المسيحيين منه[299]. وثمة صدى للتعاليم المسيحية في «الإله الأبيض» من تولا، التي تأسست حوالى عام (960 ب.م). ففي ذلك الوقت انتشرت المسيحية في البلاد، التي كان يطلق عليها الهنود الحمر «الشرقية»، تقريباً مثل انتشارها الحالي ـ وكما بشر في أماكن أكثر بعداً منها ـ من المفيد الإشارة في هذا الخصوص إلى برندان المقدّس الذي يقدّس اليوم كحامٍ للبحّارة. يتحدّث برندان في القرن السادس (ب.م.) عن رحلة استكشافية قام بها في سفينته الصغيرة حتى «شواطىء البلد الثاني على ساحل البحر الغربي»، ويعتقد البعض أن المقصود هو «أمريكة». بينما يحاول الآخرون فصل الأسطورة التقية في أحاديث برندان عن الجانب المختلق من أقاصيص البحّارة، وهكذا يحافظ على النقاط الأكثر دقة للرحلات البحرية التي قام بها كرشمان المحب للأسفار. لكن هذه مسألة معقّدة، أكثر تعقيداً على أي حال من تقصي مصداقية روايات الرحلات الاستكشافية للفايكنغ إلى شواطىء أمريكة الشمالية، لأنه يمكن إثبات، وبأشكال عدة، وصول الفايكنغ بين القرنين التاسع والحادي عشر إلى معظم شواطىء

أوروبا الشمالية، وإلى شاطئ أمريكة الشمالية أيضاً[300].

كان الفايكنغ في واقع الأمر من أواخر الأوروبيين الذين اعتنقوا المسيحية، لكن وحوالى العام 1000، يمكن اعتبارهم كناقلي التعاليم المسيحية إلى أرض الهنود الحمر. لم يكن الوصول إلى وسط أمريكة مشكلة بالنسبة لهؤلاء الناس، حيث كانت سفنهم ذات كفاءة عالية وجيدة تقريباً كما كانت سفن الفينيقيين سابقاً. يقال، إنه في عام 1000، غادر «الإله الأبيض» «كوينسالكوتل» ومعه قسم من الشعب التولتيكي - مدينة تولا. في غضون ذلك وصلت حضارة المايا التي ازدهرت في الماضي على بعد ألف كيلومتر في يوكوتان إلى الدرك الأسفل. وبعدئذ ظهرت هناك مجموعة كبيرة من المهاجرين الذين هم من التولتيكيين بشكل عام، لتعيش بعدها حضارة المايا فترة نهضة جديدة[301]. سُمّي إله هذه الفترة الجديدة عند المايا في لغة الأوكاتيكشن «كوكولكان» - وهي ترجمة حرفية للكلمة التولكية كويتسالكوتل (الأفعى ذات الريش).

ومن هذه الفترة من تاريخ أمريكة القديم نشأت التواريخ التي تسمح نصوصها باستنتاج الخلفيات الفكرية والثقافية التاريخية لعصر المايا. ومن اللافت ليست كتب التولكيين في تولا وحدها وإنما أيضاً كتب المايا المتأخرين في يوكوتان تظهر تشابهاً في التعاليم المسيحية. وليس من السهل معرفة وجود تأثير فعلي من جانب المهاجرين المسيحيين، لأن تصورات

الذنب، والمغفرة، والاعتراف والتوبة ليست حكراً على الفكر المسيحي. ولن تخدم المفاهيم الأخلاقية اللاهوتية والدينية كأدلة واقعية. وهكذا لن نتابع تقفي أثر هذا الشكل من التطابق عبر الأطلسي، حتى ولو كان ذكره جديراً بالملاحظة.

وسيلجأ إلى نفس التحفظ لدى الحديث عن الموضوع المعقد الذي يدور عن مساعي الإنسان للإيفاء بواجباته تجاه الآلهة.

فالصوم، والصلاة، والقرابين، والعفّة، والوضوء، والحج والتقشف ـ كلها تلتقي في نهاية المطاف مع توق المخلوق في كل مكان من الأرض كي يحظى على رضا الخالق. ولكي يتجنَّب عقاب السماء ويبتعد عن غضب الآلهة أو يخفِّفه التجأ الإنسان ملزماً دائماً إلى نفس الوسائل، لأن الشروط الإنسانية متشابهة في كل مكان، وتوق الإنسان للمصالحة مع السماء هو جزء من الطبيعة البشرية كما يبدو. لكن، في الوقت ذاته فإن إمكانيات الإنسان لإرضاء السماء محدودة ـ وهي لهذا نفسها في كل مكان. وسوف لن يدهش أحد، إذا برزت هنا المتشابهات في هذا الخصوص.

حتى ولو كان شغف الشعوب بعبادتها الخاصة ظاهراً بقوة، فإنه لحسن الحظ لم «يكن لدى» كل الشعوب فكرة تقديم الأضاحي البشرية والأطفال في إطار ممارستها لشعائرها الدينية. فالقرابين البشرية أو الأضاحي البشرية تظل الاستثناء.

بينما عرف الفينيقيون وسكان أمريكة الوسطى طقوس تقديم البشر ـ وخاصة الأطفال ـ كأضاحي. ولعل ذلك يبدو مصادفة، إلى أن نلقي بنظرة على عملية تقديم الأضحية وكيف كانت تمارس: فكلا الشعبين كانا يقدمان أضحيتهما البشرية، بأن ترمى من أعلى المعبد، أو بالأحرى من الهرم المرتفع إلى الأرض[302].

بعد هذا التوافق في «فكرة الموت» سيجري الحديث في نهاية الفصل الخاص «بالعبادة والفلك» عن «الدفن»: فكل الطقوس والممارسات لتقديس الميت في العالم الجديد تبدو وكأنها نفسها في العالم القديم. وهنا تتوضح المتشابهات بين العالمين بشكل أكثر جلاء ووضوحاً من كل مجالات الحياة الأخرى. فمن المعروف كم كانت طقوس الدفن بالغة الأهمية عند أسلافنا. لقد دفنت أنتيجون أخاها الميت بولينايكس على الرغم من تهديد الملك كريون بأن لا يدفن. وجازفت بتحمل العقوبة، لأن الخيار الثاني أكثر فظاعة من الموت نفسه. فعدم دفن الميت بطريقة صحيحة كان عقاباً مريعاً للمتوفي، لا يمكن أن يكون أقسى عقاب في الحياة أصعب منه.

ستغدو أهمية الاحتفال الجنائزي أبقى أثراً وأكثر هيبة إذا شيّد فوق قبور بعض الموتى المميَّزين علامة على قيمتهم. وإذا كان يعتقد بالحياة الأخرى بعد الموت فلم يدخر أهل المتوفي

جهداً ولا كلفة لكي يزوِّدوه بما يحتاجه من ضروريات في حياته الأخرى. كما لن تعترينا الدهشة إذا علمنا أن هذه الضروريات في الشرق كما في الغرب متشابه مع بعضها بدقة متناهية، لأن في نهاية المطاف كانت حاجيات الموتى المتخيلة نفسها في كل مكان: فتيات جميلات، عبيد مخلصون، طعام شهي، ومصاغ قيِّم وغيرها من النفائس. نعم، لقد كانت قائمة الإضافات التي توضع في قبور أمريكة القديمة مكوَّنة بتشابه عجيب مع مثيلاتها في العالم القديم.

هذا لوحده لا يبرهن عن شيء إنما الذي ينطق بوجود استيراد ثقافي، أقنعة الموتى المذهبة، التي عُثر عليها في فينيقية كما في أمريكة الجنوبية. وكانت توضع هذه الأقنعة الثمينة المصنوعة من صفائح الذهب الخالص على وجه الميّت الذي يتمتَّع بقيمة كبيرة. ويظهر من نوع صناعة وتكوين أقنعة الموتى تشابه معبِّرٌ: ففي جزءي الكرة الأرضية كانت محاجر العيون في القناع مغلقةً، وملامح الوجه أوربيدية ـ والأنف دقيق والشفتان دقيقتان وشكل الوجه ضيِّق. وفي القناع البيرواني يكون نموذج الميت «أجنبياً». كما يمكن ملاحظة متشابهات إضافية في أقنعة الموتى المصنوعة من مواد أخرى. 156,155

وبهذا يبدو جلياً أن الغرباء من الشرق الأوسط حافظوا على تقاليدهم وأعرافهم الجنائزية في الطرف الآخر من الأطلسي

ودفنوا موتاهم بنفس الطريقة كما في وطنهم. كان قناع الذهب للميت أمراً إلزامياً للأموات العريقين والأشراف في كلتا المنطقتين.

ويبرز من نفس التصوُّر الذي نشأ عنه استخدام قناع الميت، عرفٌ آخر وهو تحنيط الميت، كشكل يعبِّر عن التصوُّر عن الآخرة، والتوقعات الدينية للحياة فيما بعد الموت. ويُعتبر التحنيط اختراع أصيل يناسب تماماً موضوع التبادل الثقافي.

كان التحنيط فكرة مثيرة لحفظ الميت بطريقة مكلفة وتستغرق زمناً لكي يُدفن بعدها كمومياء ـ منذ القديم كان قانوناً صارماً في الشرق الأدنى يقضي بتحنيط الأموات الأشراف ـ وكذلك في أمريكة القديمة.

إجراءات التحنيط تستحق التوقف عندها لأن التشابه فيها على جانبي الأطلسي كبير للغاية: كانت تستخرج من الميت في مصر أحشاؤه ودماغه ليصار إلى معالجتها كيمائياً في أوعية كبيرة وتدفن بعدها بشكل خاص. ثم تغسل الجمجمة الفارغة والبطن المجوَّف بالتوابل والخمور، «وعندئذٍ يملأ الجسد بالمرّ وغيره من التوابل الفوَّاحة، ما عدا البخور». كما يصف هيرودوت[303].

وبعدها يوضع الجسم لمدة سبعين يوماً في ملح النترون ثم يُجفَّف ويُلفّ في النهاية بالقماش بشكل كامل[304].

يقدِّم المؤرِّخ الإغريقي ديودوروس سيكولوس معطيات

تفصيلية عن طبقات الأسعار المختلفة للتحنيط[305]. وبالتأكيد كان تحنيط الملوك في مصر باهظاً جداً بالمقارنة مثلاً مع القليل من البحّارة الفينيقيين القادرين على طريقة الدفن هذه. إذاً، الاختلافات النوعية في الدفن ليست محصورة بأيامنا هذه ـ وليست موجودة فقط في العالم القديم، وفي البيرو نهبت القبور الملكية مع «المومياوات» المدفونة فيها، التي كلّف تحضيرها الكثير، منذ وقت بعيد، بحيث أصبح من العسير تقديم تفاصيل عن شكل التحنيط الراقي الذي كان قائماً في أمريكة الجنوبية. أما الاستثناء فهو قبر الحاكم لمدينة سيبان في البيرو، الذي وجد سليماً في عام 1988[306]. وعلى العكس من ذلك يبقى التحنيط الشائع في أمريكة القديمة للأناس العاديين، من الذين لم تنهب قبورهم الفقيرة فبقيت المومياوات على حالها محفوظة بفعل الطقس الجاف ثم لأنها لا تحتوي على نفائس.

وكان عثر على أكبر عدد من المومياوات في مكان أثري في أمريكة الجنوبية في شبه جزيرة باراكاس (في البيرو) تابعة لحضارة الباراكاس التي عاشت فترة ازدهارها ما بين 900، 200 (ق.م.)، تماماً مثل المدن الفينيقية صور وصيدا وقرطاجة. كثير من المومياوات لها شعر فاتح و«مظهر أجنبي». اعتبر ذلك الكشف كحبة الدواء ذات الطعم المر، توجب على الأشخاص الذين لا يقرُّون بفكرة عبور الأطلسي قبل كولومبوس، تماما

مثل الجوهرة التي كانت توضع في أفواه المتوفين في الشرق والغرب على حدٍّ سواء.

كانت المايا تضع جوهرة من اليشم الغالي الثمن كالذهب(307) كما كانت توضع قطع النقود الذهبية في أفواه الأموات من العالم القديم. ونعلم أن قطعة الذهب عند الإغريق اعتبرت كنقود يَعْبُر بواسطتها إلى مملكة الأموات. ولا يوجد عن المايا ما يشير إلى المغزى من وراء وضع الجوهرة في فِيْه الميت، لكن المعنى منها واضح ويتحدَّث عن نفسه.

7 ـ الفن وفن العمارة

لم يكن الفن قائماً في كل الحضارات القديمة بمعزل عن الديانة، لأنه كان يجسِّد التطبيق الحسي للتصورات الدينية والمفاهيم التي ترتبط بالطقوس. وبهذا يكون الفن مرتبطاً بموضوع الفصل السابق. أوَليس ما يبعث على الدهشة أن تكون أوجه الشبه المثبوتة عبر الأطلسي في مجال العبادة والديانة موجودة أيضاً في مجال الفن؟ كلاً. إن الإبداع الفني تعبير عن المواهب الخلاَّقة الذي يحدِّد طريقه الخاص، بشكل لا يمكن إخطاؤه. وحين تنتج الموهبة الإبداعية هذه على طرفي المحيط الكبير تشابهاً في الخلق الفني، عندئذٍ تتوفر دلائل مقنعة إضافية إلى الاتصالات ـ تتخطى المتوازيات الضمنية في العبادة والديانة ـ بين القارتين.

إن قائمة درجات التطور السابق هي بالتأكيد ذاتها في مختلف الحضارات: لقد خطا الإنسان خطوته الأولى في هذا الاتجاه مدفوعاً بالضرورة لكي يستمر على ظهر هذا الكوكب. وكان ملزماً للاهتداء إلى وسائل ومعدات تساعده، استطاع بها قنص الحيوانات، وزراعة الأرض وزيادة عطائها، وبعدها

توصل إلى التخطيط والتنظيم وبالتالي إلى الحساب.

إن الطرق تفترق عن بعضها بداية في نقطة التشكيل الإبداعي. ولأن هذا الأخير هو في الحقيقة نتاج التخيُّل والتصوُّر، اكتسب الفن مظاهر عدة انطلاقاً من الخيال الذي ينبثق عنه.

ولا يمكن تصوُّر التطابق في أشكاله الصورية المعقَّدة الفنية، إذا كانت نماذجه مقتبسة أو متبناة. إذاً، لا بد من مقارنة الأشكال الفنية للإبداع الفني من المنطقتين مع بعضهما وتحديد المنتحل منها.

ثمة بعض المتشابهات بالتأكيد متأصلة في طبيعة الأشياء ولا داعي لذكرها: فمثلاً، لكي ينجز عمل يلقى الاستحسان، اختار الفنانون في كل مكان من الحضارات السابقة استخدام مواد فخمة وتنفيذ بناء باهظ الثمن وبأبعاد عظيمة أو في بعض الأحيان أبنية صغيرة لكنها مميَّزة. وليس بالضرورة أن يستدل في تطابق المتوازيات هذه على اقتباس. إنما النوع والطريقة، مثل الدعائم الدينية، والمضمون الروحي والشعور الجمالي مدموجة كلها في العمل الفني لها في العالمين كليهما. ورغم الاحتمالات العديدة الواردة في التطابق الظاهر لا يمكن إطلاق صفة المصادفة عليه، ولا يمكن تفسيره بالحل الجاهز والسهل، وهز محير. و«تشابه» هذا التطابق موجود بوفرة كبيرة، وسنوجِّه انتباهنا عليه.

لم تطأ أقدام البحّارة الغرباء وسط أمريكة ليجدوها خالية من السكان وليس فيها حضارة. فالهنود الحمر كانوا طوّروا فنهم الخاص حين وصول الغرباء الأوائل، بحيث أدّى الإرث الحضاري المستقدم إلى إعادة صياغة الفن الموجود. هذا التحوُّل أثر على الشكل أكثر من تأثيره على المضمون، لأن الغرباء استطاعوا أن يجلبوا معهم فنهم كزاد روحي أكثر من كونه ممتلكات مادية لرحلتهم إلى العالم الجديد.

لذا لم يكن لدى الهنود الحمر نماذج شرقية من العالم القديم ليعتمدوا عليها في «إبداعاتهم الفنية». لأنها كانت بالتأكيد نادرة جداً. هذا يسري أيضاً على الفترة بعد غزو أمريكة من قبل الإسبان. فبعد أن أنجز الهنود الحمر أول الأعمال الفنية المسيحية في أمريكة حسب التعليمات الشفهية للمهاجرين الجدد المسيحيين، تطابقت النتائج من ناحية المحتوى تماماً مع النماذج الفكرية من العالم القديم، لكنها من ناحية الأسلوب بدت غريبة جداً وليس لها صلة بالإبداع المماثل من العالم القديم[308].

لم يكن معروفاً عن الفينيقيين قدرتهم الإبداعية الفنية، و[illegible] كانوا يوصفون «بالانتقائيين» الكبار الذين جلبوا أفكار ودوافع أعمالهم الفنية من خارج حدودهم. وكانت مصر تمدهم بنماذج عديدة، كما كانوا يأخذون دوافعهم من دول أخرى متوسطية. ويلخّص العالم جورج كونتناو، الخبير في الحضارة

الفينيقية ذلك قائلاً: «لم يكن الفينيقيون يملكون «الابتكار» لقد كانوا مجرَّد وسطاء»[309]. فإذا كان الفينيقيون، الذين عرف عنهم مهارتهم في الرحلات البحرية، لم يكن لديهم كفنانين مقدرة ابتكارية وانحصر دورهم «بالوسيط» أو بالمتلقي فقط، إذا لم يكن سعيهم في أمريكة القديمة منصباً على تنفيذ الأفكار الفنية للعالم القديم. فقط في الموقع، حيث لزم تداخل التشكيل الفني وظيفياً ومنطقياً مع عباداتهم، يمكن توقع وجود آثار للفن الفينيقي لليوم. هكذا ينبغي للمرء أن يعتقد! ويفاجئنا الفن عند المايا بعنصر زينة ليس له قيمة وظيفة يمكن أن تطلق عليه بحق «انتحال» من العالم القديم: إنها زهرة اللوتس «نيمغايا ألبا». تعتبر زهرة اللوتس مرغوبة جداً ضمن المجموعة النباتية في كونها تقدم مادة إلهام لصناعة الزينة على شاكلتها - وذلك في كلتا المنطقتين، كما استخدمها الهنود في العالم الجديد لهذا الغرض. ولعبت دوراً في العالم القديم خاصة في مصر وبلاد آشور والهند[310].

يعرف المرء عن حضارات العالم القديم أن زهرة اللوتس كانت مقدَّسة وترمز للجمال، والصفاء والحياة الأبدية، ولا يعرف ماذا كانت تعني زهرة اللوتس بالنسبة للمايا. بيد أن السياق الذي تعرض فيه الزهرة في أمريكة القديمة يشير إلى تشابه محتمل في معناها هنا. فطريقة عرض زهرة اللوتس على رسوم جدران «بونا مباك» (في غواتيمالا)، متداخلة مع صورة

الآلهة والحكَّام توضح أهمية زهرة اللوتس في هذا المجال الحضاري أيضاً.

158

نشر معهد سميثونيان في واشنطن عام 1953، وهو آخر مكان مختص في قضايا «الأنتولوجيا والأنترويولوجيا» الأمريكية، دراسة مستفيضة أعدها الباحث روبرت راندز حول «كناية ومعنى زهرة اللوتس»، ويتطرَّق فيها إلى مقارنة موقع زهرة اللوتس في العالمين[311]، إذ يقول: «حقاً يجب الاعترف بتشابه مذهل». هكذا كانت الفكرة الرئيسية لبحثه، ويمكن التعرُّف على أن المقصود من زهرة المايا هي زهرة اللوتس بالفعل وليست زهرة بحيرة أو زهرة «شاي» من تكوين الصورة، التي تُعرض دائماً مع زهرة اللوتس: وهي زهرة مائية، كما يتضح من صورها ويؤكِّد عليه راندز[312].

ومن ناحية أخرى لم يُدرج فنانو المايا كل النباتات التي تخطر على البال في أمريكة الوسطى في رسوماتهم. ولو كان تم ذلك، لما أبدينا تعجبنا من ظهور زهرة البحيرة. كلاًّ، إنها زهرة اللوتس وحدها التي لعبت دوراً في فن المايا ـ انطلاقاً من مستوى العلم الراهن الذي يسمح بمثل هذا التأكيد الجازم[313].

يتفق العلماء الذين اهتموا بزهرة المايا على أنها «نيمفايا ألبا». مع أن صور الزهرة قد لا تكون واقعية[314] إذ شكَّل الفنانون الأمريكيون القدماء هذه الزهرة بطريقة فيها شيء من

التشويه والتحوير وعرضوها بمختلف أشكال الزينة. كما أن فناني العالم القديم قدَّموا زهرة اللوتس بتشكيلات تخيّلية محوَّرة. لكن، حتى في الشكل المحوَّر ثمة تشابه بين زهرات اللوتس في كلتا المنطقتين.

لماذا ألهبت زهرة اللوتس خيال الفنانين في الشرق والغرب؟ لماذا لم تأخذ شجرة النخيل في الشرق وشجرة جوز الهند في الغرب هذا الدور؟ وكيف نشأ هذا التنافس في الدوافع؟ لا يخطر في بال حتى دعاة «نظرية التشابه» أنفسهم أن الموضوع هنا لا يتعدَّى كونه مصادفة[315]. ويجد هاينه ـ جلدرن وإيكهورن التفسير في الاتصال المثير للجدل لكن، لا يجري إنكاره عبر الأطلسي بين آسية وأمريكة القديمة ولا يقع هذا التأكيد على سمعنا بصورة غير قابلة للتصديق، إذ أن زهرة البحيرة كانت ذات شعبية كبيرة في آسية. ويوجد دليل على المنشأ المصري الفينيقي لزهرة المايا. ونعني به «التمساح». فغالباً ما يعرض الحيوان هذا في الصورة الأمريكية القديمة سوية مع «زهرة البحيرة». وكما هو معروف، اعتبر التمساح في مصر حيواناً مقدَّساً، ولكن ليس في آسية. وفي أمريكة القديمة يشارك التمساح آلهة متعددة. مثلاً «إيمكس» إله الأرض عند المايا يظهر «كإنسان تمساح» تحيط به زهرة اللوتس[316]. وهنا نلمس وجود إلهين مصريين في صورة إله واحد من المايا.

بعد صورة زهرة اللوتس اللطيفة نقدِّم دليلاً آخر هو حبال السفينة. وقد تكون مادة الاستعمال هذه بالمقارنة مع غيرها من مواد نجري عليها مقارنة بين الشرق والغرب بسيطة جداً لأنها تستخدم في الزينة فحسب. إلاَّ أنه، ومنذ عصر الحثيين، استخدم الحبل المجدول كمادة للتزيين على السلع الفخارية، والنقود المعدنية، والتوابيت والنُصُب[317]. وجاء بهذه الفكرة الهكسوس في الألف الثانية (ق.م.) إلى مصر. كذلك اقتبس الفينيقيون الفكرة، وأفردوا لها مكاناً في فنهم، ذلك أنهم كبحَّارة تربطهم مع هذه المادة «الحبال في السفينة» صلة خاصة. وكان قد نوّه فيما مضى إلى أحد الأمثلة الدالّة على استعراض زهرة اللوتس، وهو التابوت الحجري في أهرام من القرن الثالث عشر (ق.م.) وفيه تشكُّل الزهرة المقدَّسة سويةً مع الحبل طرفاً لصورة نقش بارزة. ويظهر في فن المايا حبل سفينة مثلاً على شاهدة البحَّار المذكور في كامبيشي كإطار لقرط الأُذُن الكبير، وعلى جانبه حلية منقوشة تدعى «الخشخشان»[318]. وبما أن ذكر الحبل يرد في سياق التوراة والبحار من العالم القديم يؤكد حقيقة أن المايا أخذوا فكرة الزينة هذه من الغرباء بالتأكيد.

ويلاحظ من خلال البطل المنقوش على إفريز صخري ارتفاعه متران والموجود في غواتيمالا، وهو يحمل حبلاً ثقيلاً

161 مدى تركيز فناني المايا عليه ـ فيما يتعدّى مهمته الوظيفية الصرفة ـ وعلى الدلالة الرمزية للماء والسفينة التي تشير إلى وصول البحّارة العظام من الشرق.

وهناك صورة أخرى تبيّن مكسيكياً عجوزاً بملامح أوروبيدية وقد وضع الحبل زينة على طاقيته. وبما أنه لا يتوفر لدينا هنا موروثات كتابية كما هو الأمر في العديد من الحالات، لن نستطيع معرفة خطاب هذه الصورة، لذلك نقارن ملزمين التشابه الشكلي في الصورة وليس التشابه في المحتوى كما ينبغي، ومع ذلك فيها من اللغة المعبرة ما يكفي لما نريد قوله.

ثمة تشابه آخر في حِلْيَةٍ أخرى، كان الوجهاء وعليّة «القوم يزدانون بها». كما يقول هانس بريم[319] إنها حلية لها شكل حرف (T)، وهي صورة معدَّلة لصليب أنطونيوس «كروسي أنستاتا». الصور 160 و162 تظهران تشابهاً في شكل الحلية من الشرق والغرب. 160,162

ويبدو شكل الصفائح النحاسية الصغيرة ـ كما كتب باري فل ـ التي وجدت في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط كما في أمريكة الشمالية غير مألوف[320]. ومن الجائز مقارنتها 163,164 بملامح جلد حيوان من ناحية الشكل. يمكن الأخذ بهذه المقارنة، لأنه من الممكن حقاً أن توجد صلة بجلود الحيوانات، التي كانت تعد بالنسبة للبحّارة التجار آنذاك من

أهم السلع التجارية. وتكفي هنا المقارنة الشكلية التي تظهر تشابهاً غير عادي.

نتحدث الآن عن فكرة شجرة الحياة. منذ القديم نظر البابليون والآشوريون وبعدهم الفرس والهنود إلى الشجرة رمزاً للحياة، ولقوة العيش واستمرار الإنسانية. وتقترن الشجرة رمزاً أسطورياً لحياة الإنسان مع «شجرة العالم» وفي المسيحية مع شجرة الصليب.

لكن، ماذا عن الأمريكيين القدماء؟ هل كانوا على دراية بالمعنى الرمزي للشجرة؟ الجواب، نعم، فالكلمة المكسيكية «للصليب» هي «توناكاكو اهوتيل» بمعنى «شجرة الحياة». وهنا يوجد تشابه واضح مع التصور في العالم القديم عن الصليب كرمز للحياة والاستمرار[321] الألميك والمايا والطولطوكيون وليس آخراً الأزديك استخدموا الصليب كرمز لآلهتهم. وبما أن رمز الصليب لا يمكن إخطاؤه مطلقاً، نكتفي بالحديث عن هذه الناحية لدلالتها.

بيد أن الأمريكيين القدماء عرفوا الرمز الخاص لشجرة الحياة. ويظهر نقش من المايا مشهداً واضح المعنى. إذ تشكّل إطاره صورة لشجرة الحياة، وفيها اثنا عشر غصناً، السبعة على الطرف الأيسر نضرة وحية، دون شك، إشارة هامة على التعايش بين مجموعتين عرقيتين مختلفتين. فعلى الناحية اليسرى من جذع الشجرة يتعرَّف المرء على كاهن وهو ينحني

166,165

أمام وعاء بخور له شكل شرقي. والكاهن ذو اللحية، يضع على رأسه طاقية عالية مدبَّبة الرأس تشابه طاقية كاهن من الشرق الأدنى[322].

يجلس في مواجهة الكاهن «السامي» إلى يمين شجرة الحياة (على الجذور الأمامية) شخص آخر أمام وعاء بخور يختلف في ملامح الوجه، واللباس وغطاء الرأس: إنه هندي أحمر. وهكذا نرى في المشهد أنموذجين مختلفين من الكهنة أمام وعاء من البخور له أسلوب شرقي لكنهما يمارسان طقوسهما سوية.

ولا يُفتقد الماء هنا، لأنه يمثل الإشارة الحسية والعنصر الرابط بين الشرق والغرب في هذا المشهد الهام. وتتضح في طرف الصورة السفلى وتحت شجرة الحياة الأمواج التي وصل عليها الغرباء إلى أرض الهنود الحمر.

لقد أخذ الأمريكيون القدماء بفن الأيقونات في العالم القديم بوضوح يستدل عليه من الموجودات المتبقية ومن التفاصيل الأصلية لأشكال الإبداع ومنها فكرة الأيقونة الخاصة التي تبيِّن كيف كان الطفل «يُحمل على الظهر».

وتشير فكرة «الحمل» تلك في فن العالم القديم إلى مضمون مغاير. إذ حمل أينياس، أب الرومان، أباه العجوز على كتفيه من التروبا المشتعلة ليغدو بهذه الصورة تجسيداً لحب الابن

لأبيه. كما حمل كريستوفروس ولداً مسيحياً على كتفيه عابراً به النهر مجسِّداً تقديم المساعدة وقت الحاجة. ويحمل رجلٌ ضرير رجلاً مقعداً على كتفيه معبِّراً بذلك عن مفهوم المساعدة المتبادلة. ومن ناحية أخرى يحمل نبي العهد القديم «بشارة» العهد الجديد على كتفيه دالاً على استمرارية الإنجيل.

يعرف الفن في غرب إفريقية الفكرة هذه أيضاً: إذ تحكي الأسطورة الدالة عليها على أخوين يبحثان عن بلد يستقرّان فيه. الأخ الجالس على كتفي أخيه يستطيع أن ينظر بعيداً وهكذا نرى البلد أولاً[323]. يا له من تشابه غريب مع الفن الأمريكي 167 القديم الذي يعرف هذه الفكرة «الحمل على الكتفين». ويتضح من تمثال ضخم، يجدر التنويه إليه هنا، أن فناني العالم الجديد كان يعنيهم جداً أن يعبِّروا عن شيء هام بهذا الشكل غير العادي، حيث يرتفع تمثال رجلين لمترين ونصف المتر. ويعطي الرجل الحامل الانطباع أنه قصير القامة بينما المحمول 168 ممشوق ذو وقار وهيبة. ويا حبذا لو أعطى المختصون بالأمريكيات تفسيراً مقنعاً لهذه الفكرة. تقدم السينافرانش تفسيراً ممكناً وهو «المنتصر والخاسر»[324].

لا يبقى أمامنا سوى التأكيد المبهم والهام بآن واحد وهو أن إنشاء التمثال كان له ما يشابهه في العالم القديم، على الأقل شكلياً. وليس مستغرباً أن ملامح وجه الرجلين هي ملامح أوروبيدية ويتكوَّن غطاء رأسيهما من طاقية صغيرة رفيعة

الرأس، جرى تبيانها في مواضع مختلفة كعلامة مميِّزة للأنموذج السامي.

لكن، هل كان عرض رجلٍ برأسين مألوفاً أم لا؟ يانوس ذو الوجهين معروف لدينا، حتى إنه يدخل في استخدامنا اللغوي. إلاّ أن الاستئناس بالوجه الثنائي لا ينبغي أن يعكر رؤيتنا بأصالته وعدم إخطائه. ومهم لنا أن نعرف عن ظهور الوجه المزدوج طالما أن «يانوس»[325] المثير نشأ في مرحلة انتقالية بين عصر الألميك والمايا، وهو العصر الذي أثبت عن تشابهات جمَّة بين الشرق والغرب. وكان الرأس المزدوج قد ذُكر في فصل «الفسيوغنوميا» تعبيراً بادياً للعيان عن تباين النماذج في أمريكة القديمة. ومن الممكن القول إضافة لذلك إنه يجوز مقارنة نصفي الرأس مع موضوع رأس يانوس في العالم القديم. 169,170

ولنوجِّه اهتمامنا نحو مسكات مواد الاستعمال بعد هذه اللمحة عن موضوع بذل المرء في الشرق والغرب في الماضي جهداً كبيراً في تشكيل قبضات الفوانيس، والأواني والمرايا. وكان ينظر للإنجاز المكلف لها كتعبير عن النظرة الخاصة التي أولاها أسلافنا لهذه القبضات المستخدمة في الاستعمال اليومي والتي تحمل في طياتها قدسية خاصة، أفضت إلى تروٍّ ودقة متناهيتين في تنفيذها، وكذلك في استخدامها اليومي.

إلاّ أن ثمة طرقاً عدة تؤدي إلى التكوين المميَّز. فإذا كان الفنانون على طرفي الأطلسي استخدموا الطرائق نفسها، فلا بد

من القول بشيء من الارتياح إن هذا الموضوع في أمريكة القديمة إن هو إلاً تقليد لنماذج شرقية. التشابه واضح في مقابض المقالي وليس مجرد مصادفة. وليس شكل المقلاة الطويلة فقط يدل على تشابه بيِّن، بل مسكتها التي عملت على شكل بشري. ونتعرَّف على تشابه كبير آخر في مسكات القناديل، حيث يتم تكوين المسكة في كلا الجزءين من العالم بأن يكون قسم من قبضة القنديل المغلقة يشير إلى شكل بشري أيضاً. هذا المزج بين الناحية الوظيفية والزينة الشكلية دليل كاف يخدم غرض سعينا للكشف عن التشابه الواضح. 171,172

وينطبق نفس الشيء على الأواني الكثيرة التي على شكل إنسان أو حيوان. وتوجد الأوعية التي على شكل بشري أو حيواني في عدة أشكال مختلفة، بحيث يرد حسب قانون الاحتمالية تطابق أحياناً في الشكل أو في المضمون.

ورغم هذا يعرف المرء أيضاً أشكالاً من آنية على هيئة مجسمات بشرية أو حيوانية شُكِّلت بطريقة دقيقة ومعقَّدة للغاية، تقود إلى الاعتقاد بأن ثمة محاكاة بالتأكيد أحدهما للآخر. ونذكر من باب «الجزء بمقام الكل» وعاء على شكل حيوان، كان أُنجز في «طاروس» على البحر المتوسط وكذلك في حضارة الموخي في البيرو. هنا يكون جسم الحيوان بمثابة الوعاء ذاته؛ ويتفرَّع عن الرأس عظم الركاب وفيه ثقب السِّداد في ظهر الحيوان، يسمح بانسياب المشروب بانتظام. ومن

173,174 المؤكد طبعاً أن يحصل المرء على ذلك بطريقة أكثر بساطة؛ لكن الشرقيين والأمريكيين الجنوبيين توفر عندهم تصوُّر مشابه تماماً لوعاء مشروب مثالي.

ومما يبعث على التأمُّل كذلك عالمية التصميم في بعض الأوعية المزدوجة الأصلية، وفيها يوزع السائل في آنيتين تتصلان ببعضهما بقوس كما لو أنه بذلك لم تأخذ المتشابهات حقها بما فيه الكفاية، حيث يجلس على كل آنية منها شكل حيوان.

وتتردَّد المقارنة بين صناعة الفخار في العالم القديم والحديث موضوعاً لدراسات جادة رصينة أكثر شيوعاً من الظواهر القابلة للمقارنة في مجالات أخرى. وهكذا كتب الكثير عن صناعة الفخار اليابانية الجومون وصناعة الفخار الأمريكية الجنوبية. وتعتبر المتشابهات هذه بالنسبة لمجموعة من علماء الآثار لافتة للنظر، بحيث يعترفون في غضون ذلك بالاتصالات عبر الأطلسي حقيقة واقعة[326].

وتعد الأشكال النسائية الفخارية الأولى من ضمن التراكوتا العديدة الدالة على التشابه عبر الأطلسي من حيث المكانة التي تبوَّأتها النساء كعلامات الخصب. كان أنموذج حبها عالمياً كالتصور عن امرأة مثالية خصبة. وكان علماء الآثار في أمريكة الوسطى أطلقوا تسمية غير علمية إطلاقاً على هذه «الآلهات» «كفتيات جميلات» نظراً لأشكالهن الممتلئة والمدوَّرة، مما

يثبت اللامحدودية الزمنية لهذا الأنموذج المثالي عن المرأة[327].

176,175 وهل يرجع تشابه النساء الجميلات في كلا العالمين إلى أن الفنانين الأمريكيين القدماء رسموا صور نسائهن بناءً على نماذج استقوها من العالم القديم؟ بالتأكيد لا!

غير أن الأمر يبدو مغايراً في التماثل الظاهر في طريقة عرض الجسم البشري. وتشير المقارنات بين الأشكال في بداية الألف الأولى التي يظهر فيها كيف اختار الفينيقيون (والمصريون) تماماً كالفنانين الأمريكيين القدماء عرضاً خاصاً لإبراز المنظر الجانبي بما لا يمكن أن تخطئه العين، وهو يدخل ضمن البراهين التي نسوقها: فالأقدام والأرجل تعرض من منظور الطرف والقسم العلوي من الجسم كمقطع أمامي بينما الرأس 178,177 بمنظر جانبي. كانت هذه الطريقة هي السائدة في عرض الجسم البشري منذ بداية الفن المصري حتى وقت متأخر. وتمشياً مع هذه الطريقة قرَّر الأمريكيون القدماء تبني نفس الشيء بتقديم صورهم بشكل معكوس وغير «طبيعي».

ويتضح من المقارنة في مجال البناء بين العالم القديم والعالم الجديد أنه كلما كان البناء أكثر قِدَماً كلما كان التشابه أكثر وضوحاً. فمنذ الأوقات التي ارتبط فيها العالم القديم بالعالم الجديد «بحبل سري» نشأت في أمريكة أعمال هندسية لا تظهر فقط تشابهاً أكبر بكل الأعمال اللاحقة وإنما بنيت بدقة

أكبر منها. وهكذا لم يشتهر خلال المرحلة الشكلية في أمريكة القديمة الأكواخ البدائية فحسب، بل أعمال إنسانية غاية في الدقة والتعقيد. ويتألف قصر شافان دي هاونتار (في البيرو) وهو المعبد الرئيسي لنفس اسم المكان الذي وجد فيه القصر، من ثلاثة طوابق وتمتد على جدرانه الحجرية مساقط هوائية أفقياً وشاقولياً[328].

ومن المستحيل أن يكون بناة القصر متعلمين بأنفسهم أو مبتدئين، ولا بد أن تكون معرفتهم الفنية قد اكتسبت من مصدر معين، قبل أن تترجم إلى واقع عملي في بناء قصر حجري في البيرو اتسم بالكمال والدقة. وليست البدايات في جنوب أمريكة بأقل غموضاً من مثيلاتها في وسط أمريكة.

سوف تكرس بعض الكلمات للمرحلة الشكلية في الحضارة الأمريكية القديمة. فكما يشرح تومبسون وكذلك آخرون من المختصين في هذه الحقبة من التاريخ الأمريكي، تطورت الحضارة في أمريكة القديمة ما بين الأعوام 1200 ق .م، إلى ميلاد السيد المسيح[329].

وما يزال تأكيد هذه المقولة بحاجة لاتفاق المختصين عليها. إلاَّ أن المشاكل بدأت فيما بعد. فأي قيمة تنفرد بها هذه المقولة إذا كانت بداية التاريخ، التي يطلق عليها الخبراء تسمية «المرحلة الشكلية» أنتجت إنجازات حضارية مميزة. هل نشأت هذه الإنجازات من لا شيء؟ ثمة تناقضات صارخة تجعل أكثر

المختصين في التاريخ الأمريكي يتحاشون الخوض في فترة الألفية الأولى. كارل مابير، يجيد التعبير عن هذه الناحية حين يعلق على زملائه: إنهم يتعاملون مع هذه الفكرة كما لو أنهم يمسكون أفعى مجلجلة[330].

يقف المختصون إلى اليوم حيارى أمام ظاهرة ارتقاء حضارة الألميك ومعاصريهم في أمريكة الجنوبية دون مرحلة تطور واضحة للعالم. ويحس المرء بأخيلة الألميك تتجول خلسة كالجان في بدايات التاريخ الأمريكي القديم دون أن يستطيع تسميتهم عياناً. ويفرد المرء لهذا الشعب دور الرائد في كل الحضارات الأمريكية القديمة، ويمتدح عبقريته وانطلاقته الفذة وقواه الخلاقة، ثم يقف المرء في غاية الاحترام والتقدير لإنجازاته العظيمة. لكن لا يتجرأ على الحديث عن أصله ومنشأه وبداياته، وبالتالي عن الشرارة الأولى التي يمكن أن تكون أفرزت هذه الإبداعية المفاجئة، ثم يجري تجنب الإجابة شيئاً فشيئاً ليحل صمت مطبق بدلاً عن ذلك[331].

ومن الممكن إيجاد تفسير للبداية المحيرة و«الكاملة» قبل ثلاثة آلاف عام من خلال مقارنة معبِّرة من عالم الخرافة: إنها الصحوة من نوم زهرة الشوك. «بعد أن طبع الملك الفينيقي على الجميلة الألميكية قبلة الاستيقاظ». لقد صحت الحضارة في أمريكة الوسطى لكي تعيش حياة أميرة رائعة، غير أنها لم تنس أبداً قبلة أميرها الذي جعلها تعيش. فما زالت الفنون

والمهارات التي أراها إياها تبهرها بحيث لم تشأ أن تتخلى عنها على مدى قرون عدة. وهذا ما حصل إذاً، أن الإرث الحضاري في العالم القديم بعد أن اعتراه النسيان استمر في العالم الجديد[332].

وهكذا يقدم القباء المقلد (أو القباء على شكل الياقة) إثباتاً مثالياً لهذا الموضوع. ففي العالم القديم كان هو شكلاً سالفاً للإنشاء «القوسي» الذي استغني من خلاله، ولأول مرة، عن البناء بالدعائم. وبالمقارنة مع الأقواس المدورة والأقواس المدببة والأقبية المتشابكة اللاحقة إلخ. . . فهذا لم يكن سوى نصف الخطوة باتجاه بناء الأقبية، طورت واستعملت طريقة التشييد هذه في مصر سابقاً كما جرى استخدامها في الحضارة الإيجية، وبشكل أدق في الحضارة الكريتية المسينية[333] التي ما لبثت أن استكملت بأبنية ذات أشكال أكثر جمالاً وجرأة.

بيد أن الأمريكيين القدماء لم يتخلوا أبداً عن هذا البناء، بعد أن تعلموه على أيدي أسلافهم ـ الغرباء ـ وبهذا يكون القباء المقلد كل شيء ما عدا كونه حلاً مثالياً، فهو غير ثابت ويظهر من ناحية الارتكاز بعض النواقص، كما أنه لا يصلح إلاّ للمساحات الصغيرة، إذ أن بروز الأحجار فوق الارتفاع المستخدم يضيق المساحة مع كل طبقة حجر جديدة، كما تقترب الجدران عملياً من بعضها مشكلة قوساً متعرجاً يتلقى الضغط عليه في الوسط حجر الخاتمة. بنى المرء على هذا

المبدأ كل قوس في حضارة المايا وعلى مدى قرون، نذكر هنا مثلاً عن القباء المقلد من لابنا (في يوكاتان) جرى فيه تقليد أقواس من مدينة أور، ورأس شمرا من الألف الثالثة، أو بالأحرى من الألف الثانية قبل الميلاد. 180,179

لماذا لم يتجه الأمريكيون القدماء أبداً نحو شكل القباء الجديد؟ هذا سؤال لن يكون الأخير الذي لم يجد إجابة عنه في فن البناء الأمريكي القديم. ثمة أسئلة عن الأهرامات، وبسبب ضخامة الأهرامات تحظى هذه الأسئلة غالباً بالاهتمام أكثر من غيرها من بقايا التاريخ الأمريكي الأقل روعة ـ اندلع نقاش حول السؤال التالي: هل يمكن إطلاقاً مقارنة الأهرامات الأمريكية القديمة مع الأهرامات في العالم القديم التي شيدت لتكون مدافن للملوك، بينما الأهرامات الأمريكية هي أماكن فارغة قصد منها مواقع معابد فحسب. عدا عن هذه الناحية، هناك فارق بين الأهرامات في المنطقتين من حيث عمرها، فالأهرام الأقدم وهو هرم درجي بني حوالى 2700 ق.م، ثم بنيت لاحقاً في المملكة الحديثة (1500 ـ 1070ق.م) مقابر أهرامات أخرى. بينما شيدت أقدم الأهرامات الأمريكية القديمة حوالي 1200 ق .م وتنسب إلى حضارة الألميك لافنيتا. وهنا نأتي على ضمان التطابق الزمني. لكن متى ستنطق الكلمة النهائية عن أقدم الأهرامات الأمريكية؟ هل اكتشفت ثم جرى حفرها أو أنها تتبع للعديد من الأهرامات

التي ما زالت تقبع تحت طبقة زراعية قديمة جداً ولم يظهر منها سوى رأسها؟ ففي عام 1925، اكتشف عالم الآثار الدانيماركي فرانس بلوم في خليج المكسيك «صرح» الألميك المدهش في لافنيتا التي تمت فيها الحفريات عن أقدم الأهرام في وسط أمريكة، وتبين من تاريخ الكربون المشع فترة نشوء تقدر فيما بين أعوام 800 ـ 400 ق.م.

وكان ميشيل كوي الأستاذ في جامعة ييل قد كشف ما بين 1966 ـ 1968 صرحاً آخر من حضارة الألميك يعود تاريخ إنشائه إلى الفترة الزمنية ما بين 1200 ـ 900 ق .م. وكما يُستدل من الدراسة العلمية التي وضعها هذا العالم أنه نفسه اندهش من الفترة الزمنية المحسوبة منه والتي من خلالها تصبح كل تواريخ الألميك السابقة لاغيةً.

حدثت كل هذه الاكتشافات عملياً «بالأمس». ويومياً يكتشف المرء جديداً، وما يزال علم الأمريكيات في طور البحث والتقصي. وينبغي على العلماء في هذا المجال من ضمن الأعمال التي يقومون بها إعادة النظر في كثير من الآراء العلمية، وسيلقى هذا قبولاً من الجميع. إلاَّ أنه فقط بالنسبة للبدايات الأولى لحضارة أمريكة الوسطى يبدو الأمرُ صعباً، إذ تعود مدينة الأهرامات المهجورة «تيوتيخواكان» إلى ماضٍ سحيق في القدم، كما أخبر الأستيك «الإسبان» وأنها كانت تسكنها الآلهة، لكنها هجرت منذ أمد بعيد. ولا يمكن القول

بشيء من الجزم عن الفترة التي شُيِّدت فيها أهراماتها.

يعود تاريخ هذه المنطقة إلى الفترة الكلاسيكية بشكل عام الشيء القابل لإعادة النظر فيه أيضاً. ويعرف المرء في أثناء ذلك أن المدينة كانت تأوي فيما مضى تقريباً من مائة إلى مائتي ألف نسمة تمتد على مساحة من الأرض تبلغ عشرين كيلو متراً مربعاً. وتثبت الصور الملتقطة من الجو كيف كانت رقعتها مقسمة إلى أربعة أقسام، ويصل ما بين الأهرامات الثلاثة الشهيرة في تيوتيخواكان شارع عرضه خمسون متراً، يبدو أنه كان شارع الموكب؟ وهو جزءٌ من نظام لا بدَّ من الحديث عنه ببضع كلمات: إن ما يطلق عليه تسمية أهرام الشمس في تيوتيخواكان هو أعظم من أهرام شيوب بالقرب من القاهرة، وتبلغ نسبة حجم الأهرامين الآخرين قياساً لأهرام الشمس واحد إلى اثنين[334]. لكن هذا ليس البرهان الوحيد أبداً عن التخطيط الرياضي الدقيق. وذكر العالمان الأمريكيان بيتر تومبكنس وهوغ كارلستون أن الموقع العملاق في تيوتيخواكان هو موديل حجري كبير لنظام الكواكب[335].

لقد اكتشفت علاقات رياضية بين موقع وحجم أبنية العبادة من جهة ومعطيات وتوافق الأجرام السماوية لنظامنا الشمسي من جهة أخرى. وإذا كان هذا يبدو غير معقولٍ أو لربما يبعث على الغيظ، فلننظر إذاً إلى المعطيات الأرضية: تبلغ حافة

الأساس الرئيسي لأصغر هرم بين الأهرامات الثلاثة «واحد بالمائة ألف من نصف الكرة الأرضية»! لكن ما يبعث على دهشة العديد الدقة الفريدة لمجمل الموقع، هذه الدقة تدعو إلى الاعتقاد أنها بنيت حسب نماذج أخرى كبيرة. وعلى أية حال ثمة تطابقات أخرى تتعدى الشكل في بناء الأهرامات في الشرق والغرب: لقد وجهت أساساتها الرئيسية حسب اتجاهات الشمس لكن جدرانها في الداخل مغطاة بالرموز الكتابية ـ كما أن الغرض منها أن تكون قبوراً: ثم إن لها أشكالاً غير عادية لم تخطر إلاً على بال المعماريين في مصر وفي وسط أمريكة.

كان يعتقد فيما مضى وإلى حد يومنا هذا أن الأهرامات الأمريكية لم تكن سوى قاعدة معبد في حين أن الأهرامات المصرية بنيت لتكون مقابر للملوك، إلى أن اكتشف عالم الآثار ألبرتو لوتس لوليبي في عام 1952، أول هرم في بالنك بني ليكون قبراً لأحد الحكام[336]. وكان الهرم ـ القبر من الروعة والفخامة ما يمكن أن يليق بكل فرعون. وبهذا الاكتشاف انفتحت آفاق جديدة أمام علماء الأمريكيات.

سيقول البعض، لا بأس، إلاً أن هرماً واحداً استخدم قبراً لن يصنع مصراً! لكن على المرء ألاً يستسهل الأمر، لأن الاكتشافات الأثرية عن أمريكة القديمة ما تزال في بدايتها.

والأهرامات التي فحصت بدقة حقيقية قليلة العدد، حتى يقال وبشيء من الجزم، إنه من الممكن وجود موقع سري في داخل الهرم يخفي قبراً بداخله. من المؤكد أن البحث عن القبر استغرق وقتاً وبالتالي حماسةً وجهداً بذلها ألبرتو روتس على مدى سنوات طويلة من العمل المنهجي حتى تكللت جهوده بالنجاح المطلوب. ومن المتوقع أن يكون ثمة مفاجآت منتظرة في الأهرامات التي كشف عنها، والتي ما تزال غير مكتشفة. وعلى المرء أن لا يتوقع المقارنة بين هذه الأعمال الهندسية العملاقة بين الشرق والغرب بشيء من اللامبالاة. ولا يبرر هذا الموقف على أية حال الاختلافات في المفاهيم التي لم يتم البرهان على صلاحيتها إلى الآن. فحين تكتشف كل أهرامات أمريكة ويتحدد نهائياً تواريخها من المختصين في التاريخ الأمريكي وباتفاق، عندئذ يمكن مناقشة مسألة مقارنة الأهرامات في الشرق والغرب بصورة جازمة.

سوف لن نكتفي هنا بالتنويه عن المتوازيات في هندسة الأهرامات ووظيفتها كمقابر للحاكم في إطار سيرورة القرائن الثقافية التاريخية، وإنما سنطرح شكل التوابيت الجنائزية في أهرام «معبد النقوش» «بالينك» حيث يتميز التابوت بوجود مثلثي له نحت بارز كحلية معمارية ولا يتطابق شكله مع شكل الغطاء: فالجزء الأعلى منه بالقرب من الرأس بيضاوي وفي

الثلث السفلي يضيق الشكل ثم يعود ليتسع مجدداً عند القدمين. ويمكن مقارنة الشكل هذا مع الحرف اليوناني «أوميغا».

تتصف التوابيت المجسمة عند الفينيقيين وعند قدواتهم العظماء، المصريين في الغالب بوجود نهايةٍ مدورةٍ عليا وجزء انسيابي للقدمين. وهذا الجزء له وظيفة عملية. فمن المعلوم أن صناديق المومياء المصرية صنعت من الخشب وكانت توضع بشكل قائم. وبهذا يعطي طرف الأقدام العريض لصندوق المومياء الثبات المطلوب. وأخذ الفينيقيون هذا الشكل تلقائياً، كما كانوا يفعلون، حتى ولو أن مومياواتهم المسجاة في توابيت حجرية لن توضع بشكل قائم إطلاقاً، إلاً أنهم كانوا يستخدمون جزء القدمين على هذا النحو. لقد أُعجب الفينيقيون بهذا، ولمَ لا، والمصريون سبقوهم إليه. وهكذا كان للتابوت الفينيقي إلى جانب الجزء الرأسي المدور والتصنيف في الثلث السفلي. - وبهذا يوجد تطابق منطقي في شكل المدفون - قسم سفلي انسيابي. وبالنظر إلى أن المايا كان لديهم نفس شكل التابوت هذا فإن ثمة ازدواجية تدعو للتأمل والنظر. تقدم الشاهدة في كل مكان على أنها شكل من أشكال التماثيل يقصد منها التبجيل والاستمرار. وكان هذا النوع من الحجر الذي ينصب قائماً يستعمل في الشرق والغرب لكي يكرم من خلاله إنسان، أو يحتفظ بذكرى حدث هام للأجيال اللاحقة[237].

181,18

استمرت شهرة الشاهدة كشكل مثالي لتخليد الذكرى بنحتها في الصخر إلى زمننا هذا كما هو معمول به في شواهد القبور. وشواهد قبور الهنود الحمر في وسط أمريكة، حيث يقيمون شواهد مرتفعة ومدهشة تغطيها الكتابات والنقوش. وفي الحقيقة لا يقدر المرء على فك رموز الشواهد إلى الآن إلاَّ جزئياً يتبين منها فقط تواريخها وأسماء من أُقيمت لهم. غير أن هذا يكفي للقول: «إن الشواهد كان لها في العالم القديم كما في العالم الجديد نفس الوظيفة. وهي أن تكون أحجاراً للذكرى». وهل عمل الأعمدة على شكل إنسان (ما يسمى كارياتيون أو أتلونتن) عنصر بناء أصيل لا يمكن إخطاؤه. وهل يمكن أن تكون فكرة تدعيم سقف أو خشبات بواسطة عواميد على هيئة قائم بشري قد اختلقت مرتين؟ بالتأكيد! لكن الجدير بالذكر أن استعمال الأشكال هذه في المنطقتين قد بدأ بتزامن مع بعضه. 184,183 185

وفي حضارة الاستحمام هناك العديد من المتشابهات، حيث نجد كثيراً من الحمامات هنا وهناك. ومما يلفت النظر حقاً هو التصور المتماثل عن الاستحمام المريح والتام في الشرق كما في الغرب. هل كانت الكتب التعليمية الهندسية المعمارية نفسها؟ 186

لقد بنت المايا في «تيكال» حمَّاماتها وفيها حمَّام بخاري وغرفة للاستحمام البارد. من المؤكد أن حمَّام المايا لم يرق

إلى ما وصل إليه الحمَّام الروماني بمراحله المتقدمة من فاتر، إلى ساخن إلى بارد إلخ... لا. إنه بالتأكيد كان يمنح راحةً يمكن مقارنتها مع غيرها.

كما كانت الحمَّامات تتصل بأحواض مائية مناسبة وبمجموعة من التوصيلات والمجارير[338]. حقاً كانت تلك مشاريع مذهلة خاصة عندما يخطر على بال المرء كم كان الحصول على الماء صعباً. إذ أنه بدون شبكة صحيَّة محكمة كان من العسير إقامة الحمَّامات هذه. لقد كانت رفاهية الحمَّام أمراً ضرورياً لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه لا في العالم القديم ولا في العالم الجديد على حدٍ سواء.

8 ـ الزراعة والحياة اليومية

تعتبر زراعة المدرجات على سفوح الجبال من أكبر الإنجازات في مجال الزراعة منذ القدم، لأنها تتحول إلى حقول مسطحة زراعية تسهل سقايتها وزراعتها. ولقد عرف الفينيقيون (وآخرون من الشعوب القديمة) وكذلك المايا (وغيرهم من أمريكة القديمة) واستغلوا إمكانية زراعة المدرجات. وما توصل إليه الفينيقيون بفعل الحاجة، التي هي أُمُّ الاختراع (كما يقال) جاء للأمريكيين القدماء هدية. فحسب ما تذكره موروثاتهم فإن الإله الأبيض من الشرق «هو من دلهم على زراعة المدرجات»[339] وقد لا يرى مؤيدو «نظرية التشابه» في ذلك ما يدعوهم لتصديقه، وحجتهم أن كل حضارة ذكية من الجائز أن تكون اهتدت بصورة حتمية إلى حل كهذا في مسائل الزراعة. غير أن الصواب يجافي هذا التبرير. كما لا يمكن اعتبار استخدام مدرجات السفوح الجبلية في الزراعة بهذه البساطة وكأنه أمر مفروغ منه بالشكل الذي يرغبون تقديمه. وهذا ما تشير إليه الحالة الراهنة في منطقة المايا. فالناطقون بلغة تسيلتال من المايا اليوم لم يعودوا يمارسون الزراعة في

المسطحات على السفوح الجبلية، ولا يعرفون شيئاً عن وظيفة وضع الأحجار بشكل متوازي في المدرجات[340].

ولا بد أن التقدير العالي الذي يحظى به «الأرز المقدس» أحضره البحارة الفينيقيون معهم إلى أمريكة القديمة. فالشجرة هذه هي من أهم المواد التجارية عند الفينيقيين وبقيت على مدى قرون طويلة مصدراً مربحاً لتجارتهم؛ إذ أن سفنهم الناجحة كانت أيضاً تبنى من خشب الأرز. لكن لم تكن النوعية والقيمة السلعية وحدها التي جعلت من خشب الأرز يحتل عند الفينيقيين مكانة خاصة بين الأخشاب. وإنما لعب الاستخدام الطقوسي للأرز دوراً هاماً. فعلى أبعد تقدير، ومنذ الألف الثانية قبل الميلاد، استخدم المصريون خشب الأرز لقضاياهم المقدسة مثل صناديق المومياء، وأوعية البخور وتحنيط الأموات. وكانت الزيوت العطرة ذات الرائحة الطيبة التي كانت تستخدم في الطقوس تعد من المنتجات الإضافية المستعملة في معالجة خشب الأرز. ويؤكد هومابابا «الجني» الذي لعب دوراً مهماً في ملحمة جلجامش كحام لغابات أشجار الأرز المقدسة، المكانة الخاصة التي حظيت بها هذه الشجرة. ومن ناحية أخرى كان الأرز مقدساً عند المايا. يشير إريك تومبسون إلى أن مخطوطة دريسدنر مثلاً التي تتحدث عن احتفال رأس السنة إنما تقرن رمز الخشب ـ على لحاء الشجرة ـ مع العلاقة بالإله. تشير المخطوطة أن مكانة خشب الأرز هي مكانة مقدسة ـ

«كوتشي»[341] وبنفس الطريقة التي يقدس فيها المرء شجرة السايبا «شجرة الإنسانية الأم» كانت تتم فيها حماية أشجار الأرز ووضعها تحت رعاية وعناية فائقة[342]. وهذه طريقة نجدها متشابهة تماماً على جانبي الأطلسي.

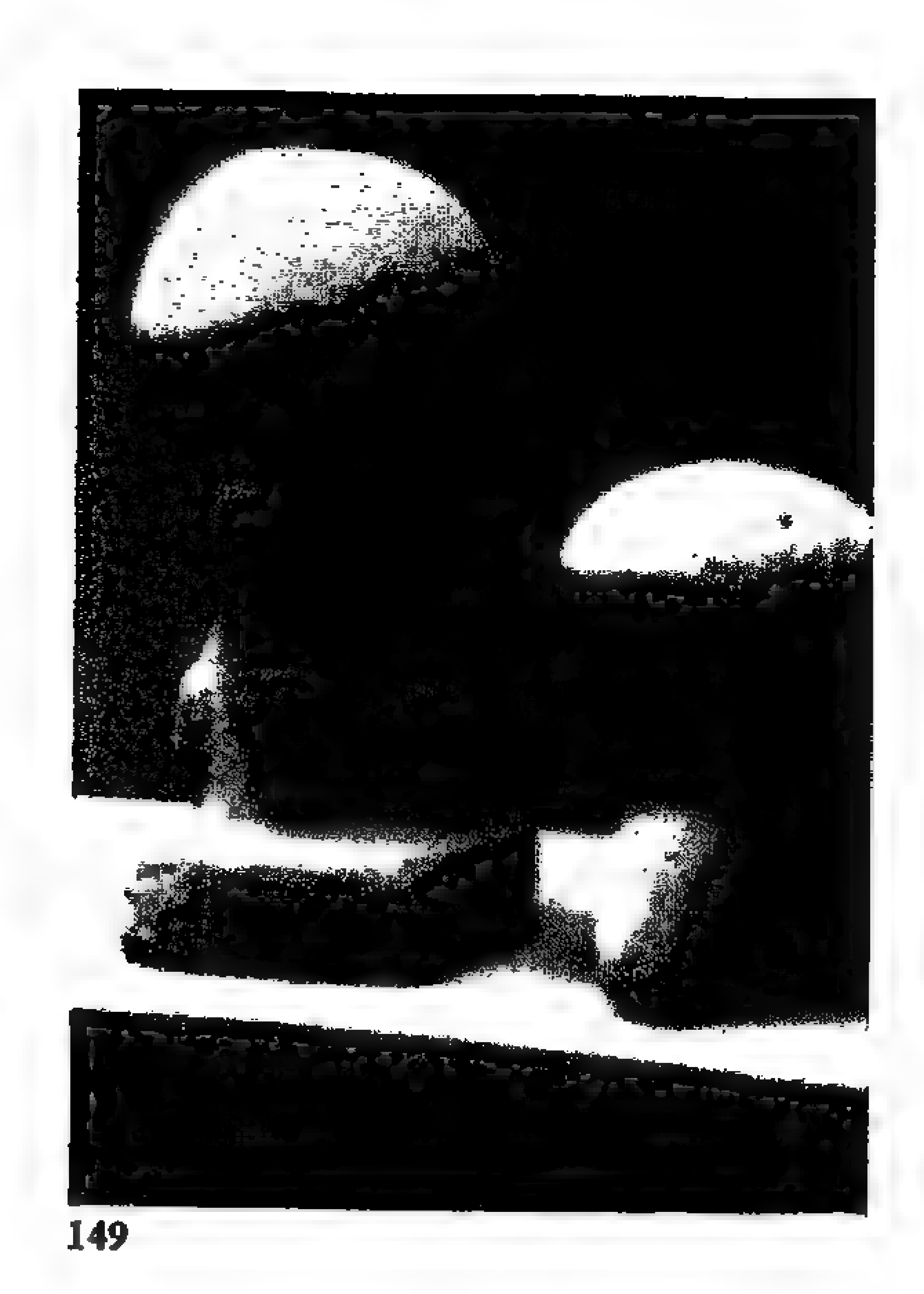
ولننتقل الآن من الأرز المقدس إلى البطاطا الحلوة الدنيوية. لقد قدمت هذه المادة الزراعية منذ سنوات موضوعاً لنزاعٍ حام بين مؤيدي ومعارضي نظرية عبور الأطلسي قبل كولومبوس لأنها كانت تعد لمدة طويلة البرهان الذي لا ينكر على الاتصالات «قبل كولومبوس» بين أمريكة والمحيطات! مما أدى إلى البون الشاسع بين الفريقين المتنازعين. كيف تم التواصل إلى أن «البطاطا الحلوة» وجدت في المنطقتين؟ لقد أثبت علماء النبات أن المزروعات الأخرى كانت إمّا موجودة في القارة الأمريكية أو في باقي العالم. فقط البطاطا الحلوة قُيض لها أن «تقفز» فوق العالم والبحار! لم يكنْ بالإمكان انتقال البطاطا الحلوة إلاً بالسفن، وهذه السفن جاءت بالتأكيد عبر الأطلسي تنطق بهذه الحقيقة ما أطلقه الهنود الحمر الكويتشوا في البيرو عليها «كومار» ونفس التسمية موجودة عند البولينزيين «كومار»[343]. وهل هناك تجانسٌ لفظي أكثر من ذلك؟ بيدَ أن موضوعنا في هذا الكتاب ليس الاتصالات عبر الأطلسي مع أمريكة بل معرفة أسلاف كولومبوس في طريق الأطلسي ويذكر القطن مثالاً على التشابه الزراعي عبر الأطلسي. فالقطن

أعطى العلماء المختصين بموضوع التاريخ واللغة الأمريكية سبباً أكبر للدهشة من البطاطا الحلوة لأنه في الواقع هجين. فمن المعلوم أن القطن عُرف في الهند منذ ثلاثة آلاف عام، ثم انتقلت زراعته إلى الشرق الأدنى عبر بلاد فارس، وبعد ذلك أدخل العرب زراعته إلى شمال إفريقية وجنوب إسبانية في القرن العاشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ولا يمكن الجزم فيما إذا انتقل بعدها إلى أمريكة عن طريق دول شرق آسية أو الساحات التجارية الأيبرية ـ البونية. الثابت أن الأنكا والإستيك قبل زمن كولومبوس كانوا يعرفون القطن. إلاّ أن هذا لا يمثل سوى جزءاً من المفاجأة التي أطلقها العلماء: هوتشينسون، وسيلو، وستنغر، في بحثهم عن نوع من القطن كانت تزرعه مستوطنة هواكا ـ بريتا في البيرو[344]. وطبقاً لطريقة الكربون ـ 14 يعود تاريخ هذه المستعمرة إلى الألف الثانية قبل الميلاد. ويمكن القول إنه عثر على مستوطنات أكثر قدماً من مستوطنة هواكا بريتا، غير أنها تعتبر بالتأكيد من أقدم المستوطنات. هنا عثر على آثار مختلفة تدل على إنجازات حضارية قديمة جداً، وهنا وجد العلماء، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، نوعاً هجيناً من القطن الأمريكي والقطن النموذجي في العالم القديم.

ومن غير المفهوم بقاء هذه الحقائق من غير اهتمام. مع إن الحقيقة البيولوجية هذه تحمل في طياتها ما يكفي لتقويض



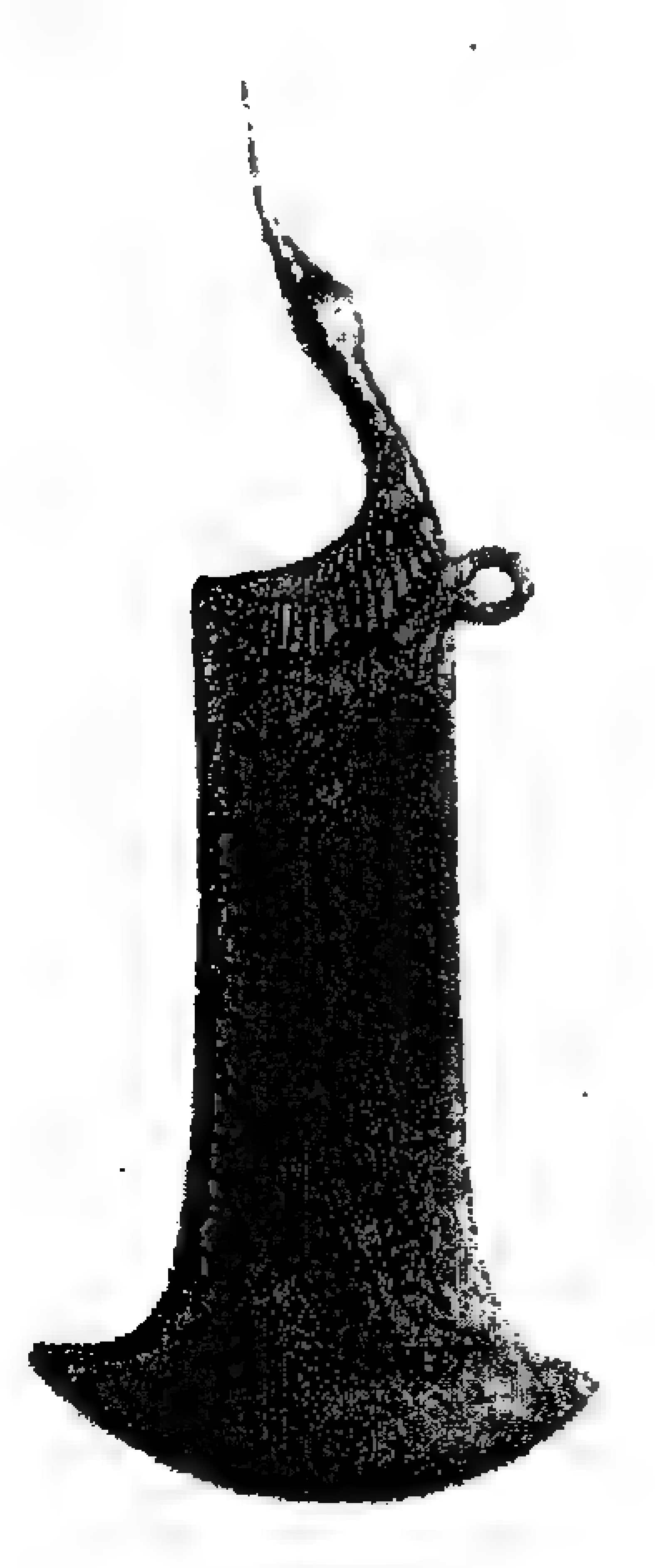
148



149

148. قطر حجري له شكل عضو وعليه زينة (منطقة البحر المتوسط).

149. قطر حجري له شكل عضو وعليه زينة (وسط أمريكة).



150

150. موسى حلاقة طقوسية (قرطاجة).

151. اليد والذراع عليهما لفائف وأقشطة (فيراكروز).

152. اليد والذراع بلفائف صلاة.

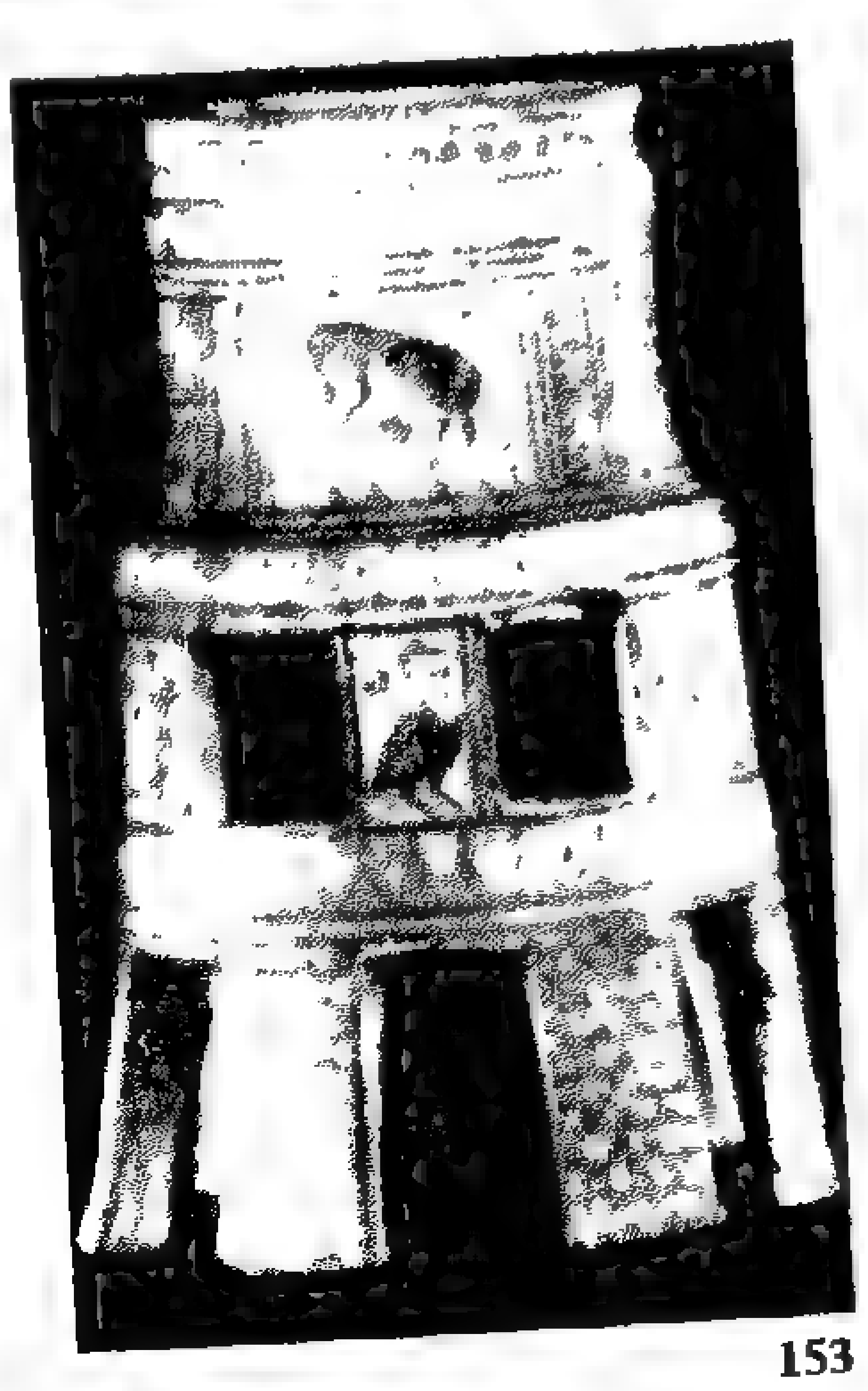
153. أوعية بخور من العالم القديم.



151



152



153

154. وعاء بخور أمريكي قديم (غواتيمالا).

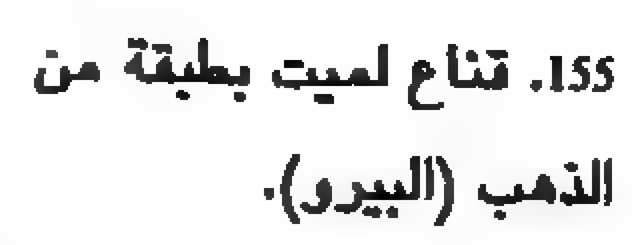


154



155

156



155. قناع لميت بطبقة من الذهب (البيرو).

156. قناع لميت بطبقة من الذهب (فينيقية).



157

157. زهرة اللوتس ـ نقش حجري على قبر حيرام (فينيقية).

158. زهرة اللوتس على رسم حائطي (بونامباك/ غواتيمالا).

159. زهرة اللوتس مع إله التمساح (المايا).



158



159

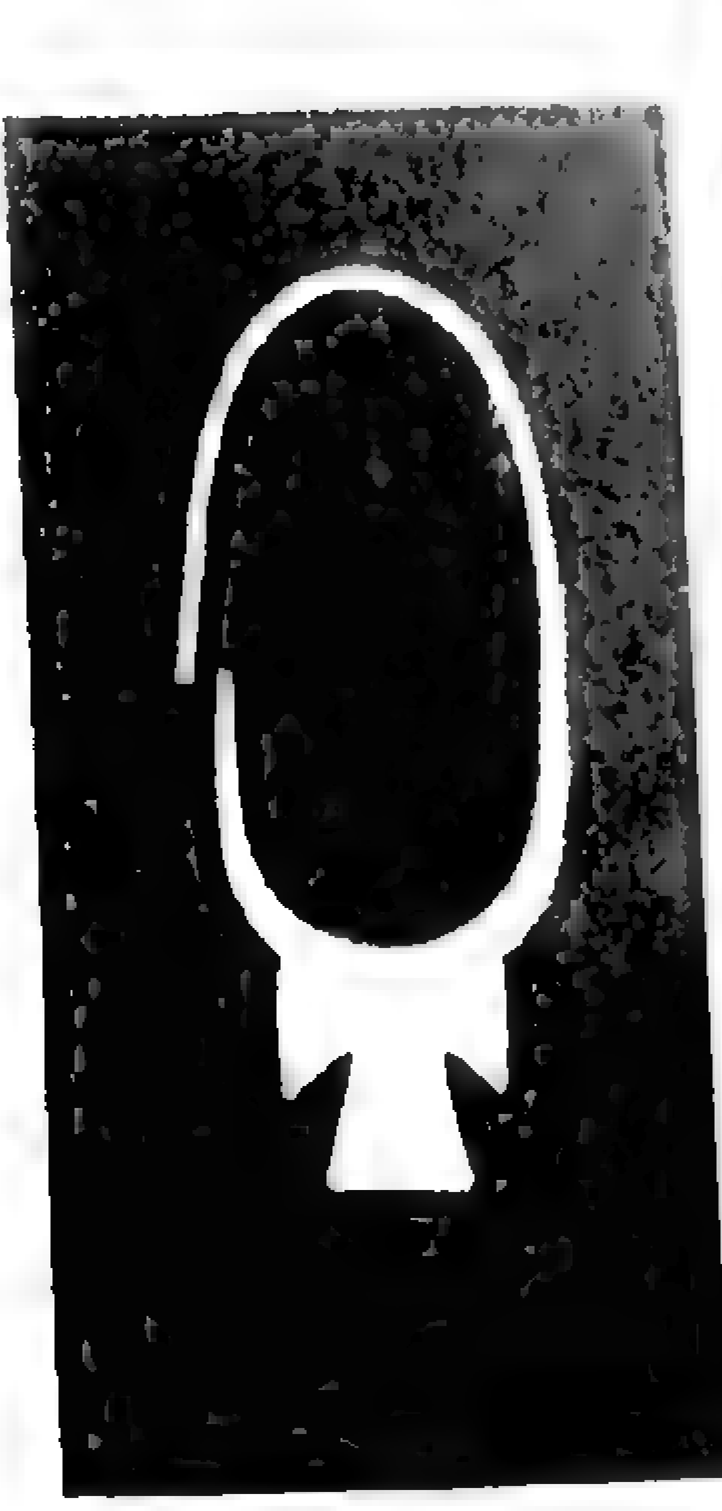
160. زينة على شكل حرف (T) «قرطاجة».

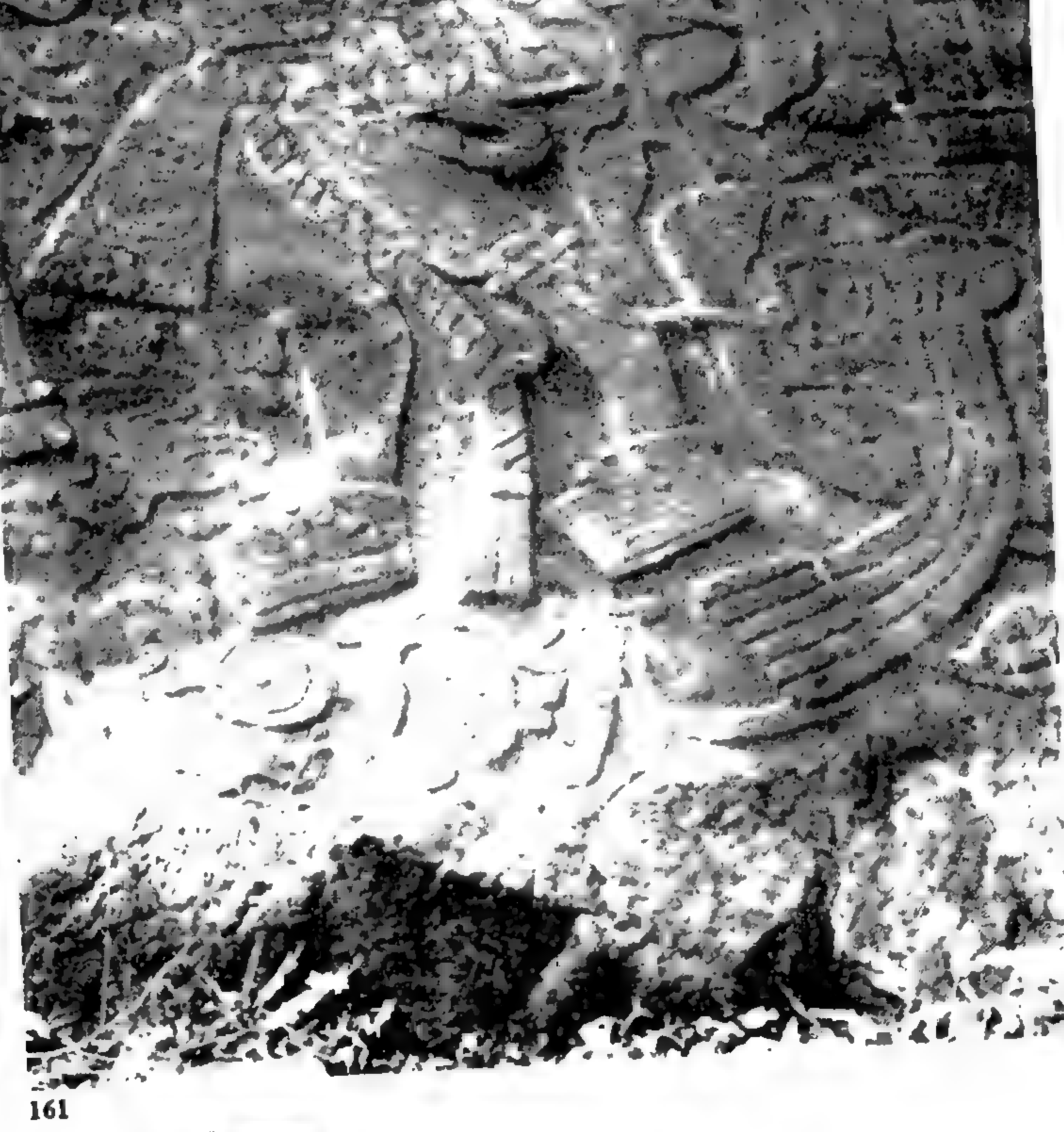
161. نقش حجري – صورة الحبل (غواتيمالا).

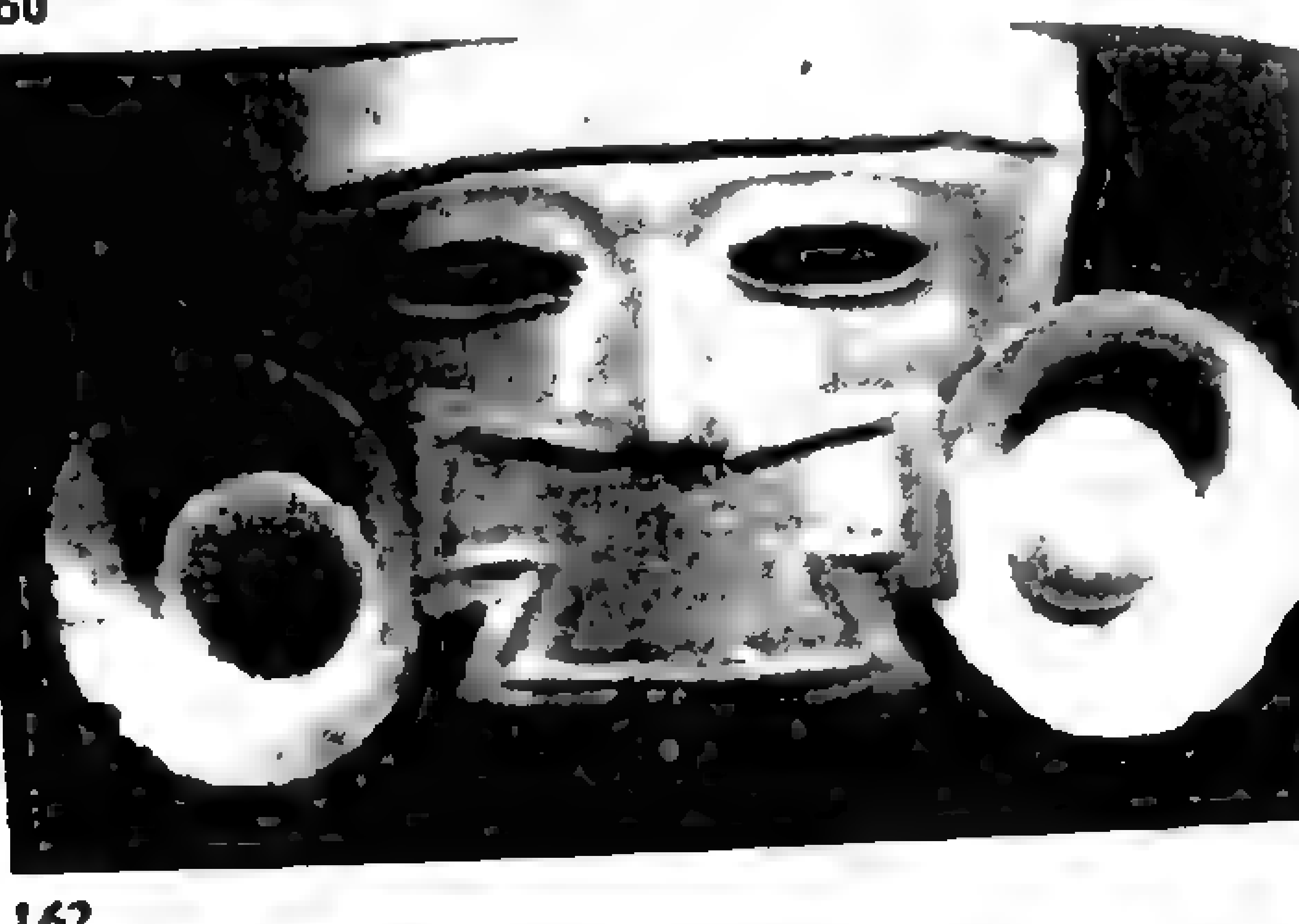
162. مصاغ الوجهاء على شكل حرف (T) «تيوتيهواكان/ المكسيك».

163. صفيحة نحاسية (قبرص).

164. صفيحة نحاسية (أوهايو/امريكة الشمالية).

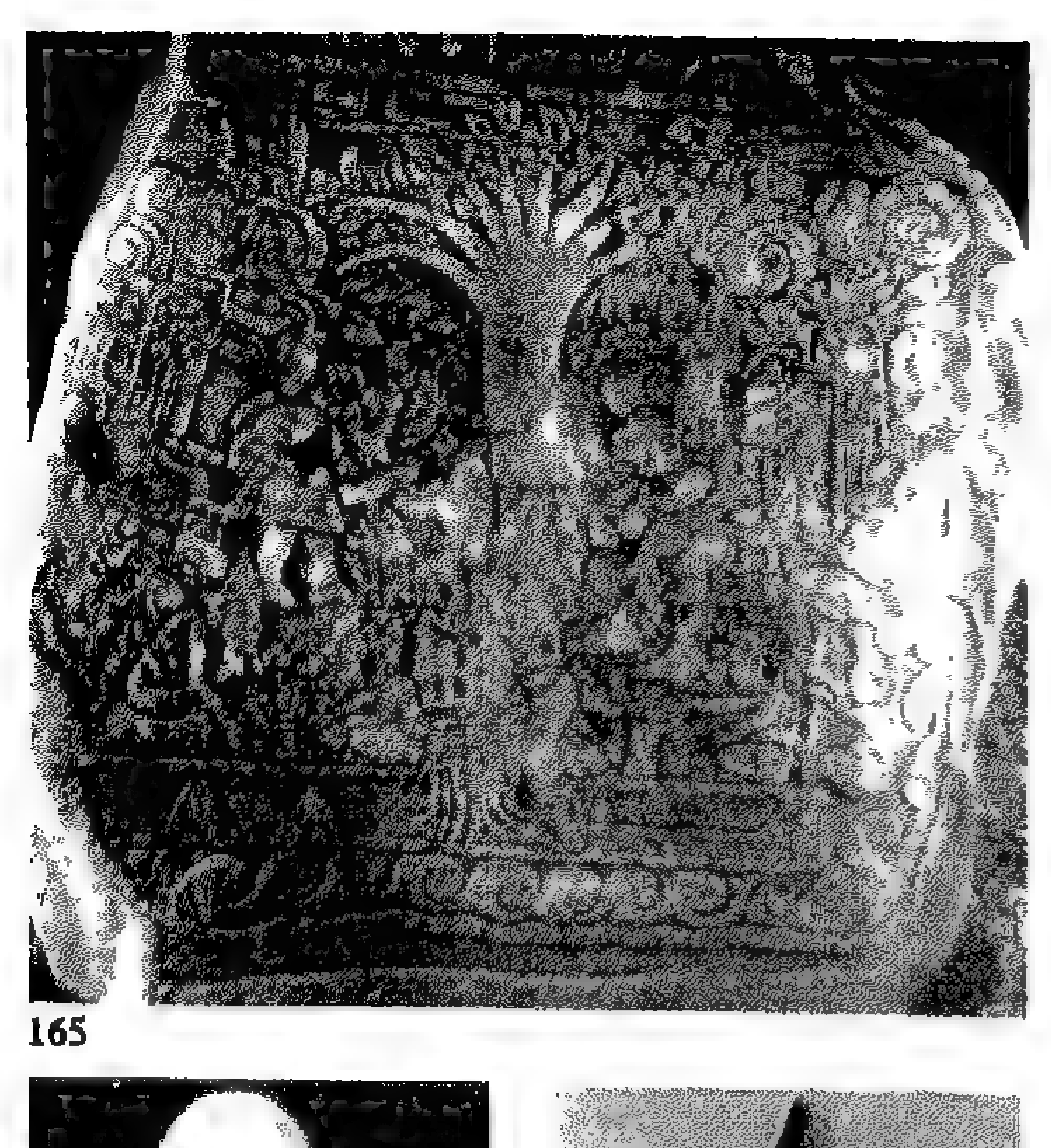

160


161


162

163

164



165



166



167



168



169

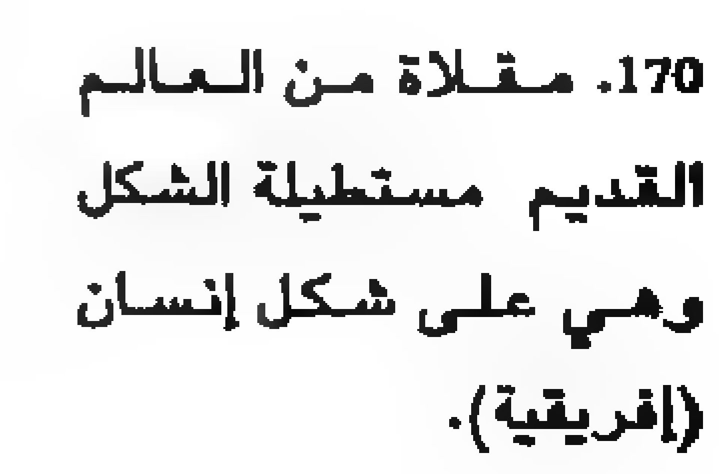
165. ثمرة الحياة وعليها كهنة لدى تقديم البخور.

166. رسم طبقاً لنموذج (165).

167. صورة الحامل والمحمول (غرب إفريقية).

168. صورة الحامل والمحمول (بنما).

169. مقلاة أمريكية قديمة على شكل مستطيل وقبضتها شكل إنسان (تشيلي).



170. مقلاة من العالم القديم مستطيلة الشكل وهي على شكل إنسان (إفريقية).



171. مقبض سراج على شكل إنسان (قبرص).

172. مقبض سراج على شكل إنسان (فيراكروز).



171

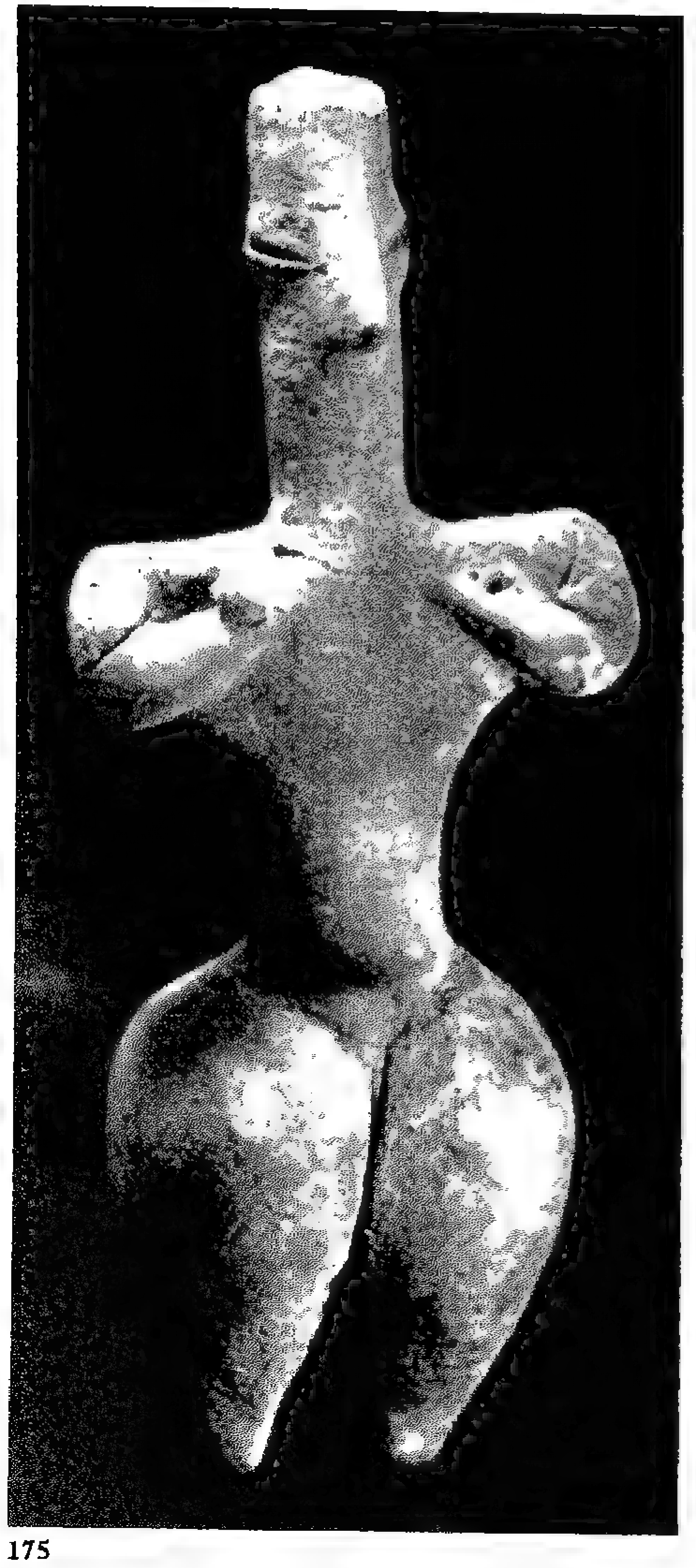
172



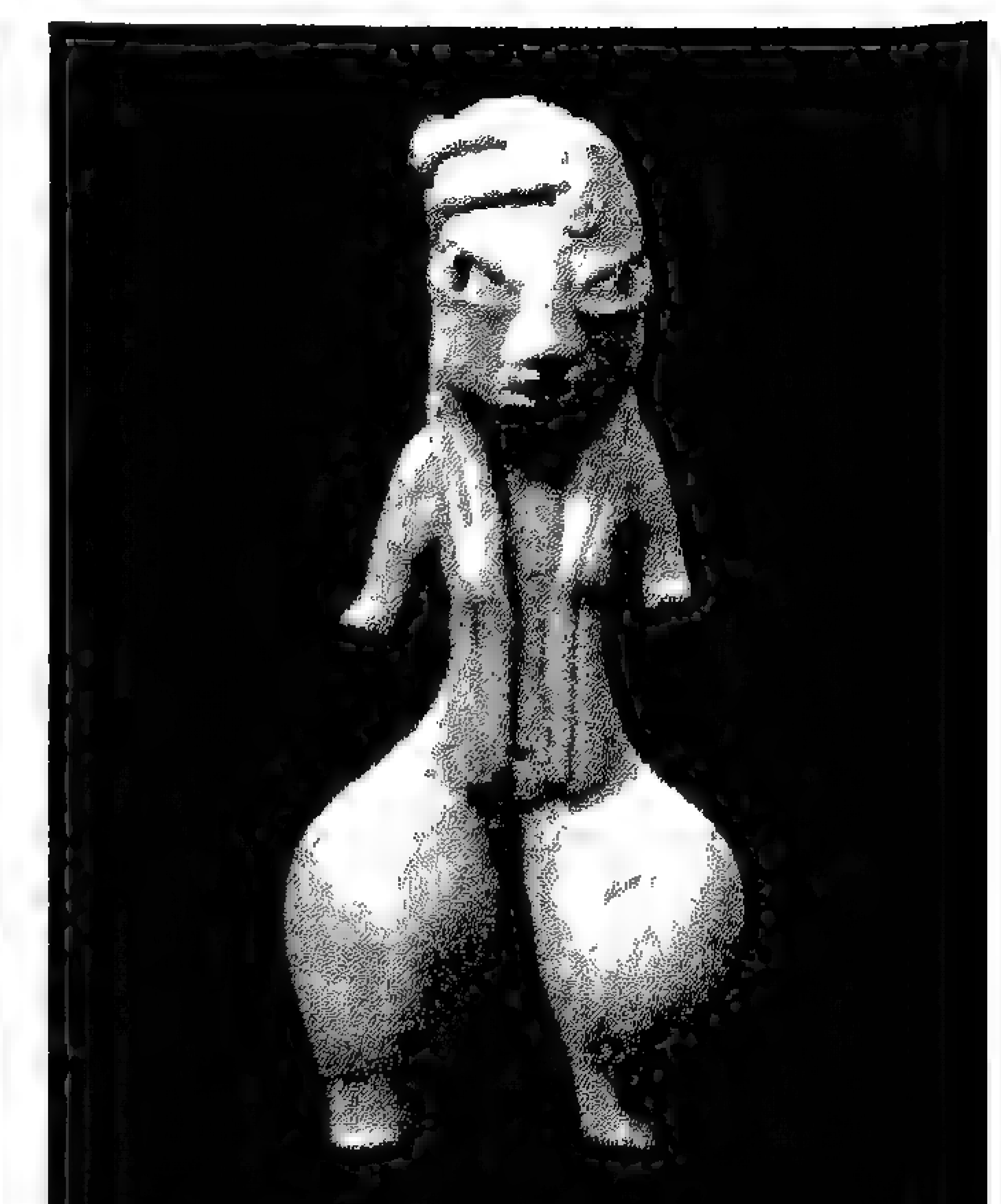
173



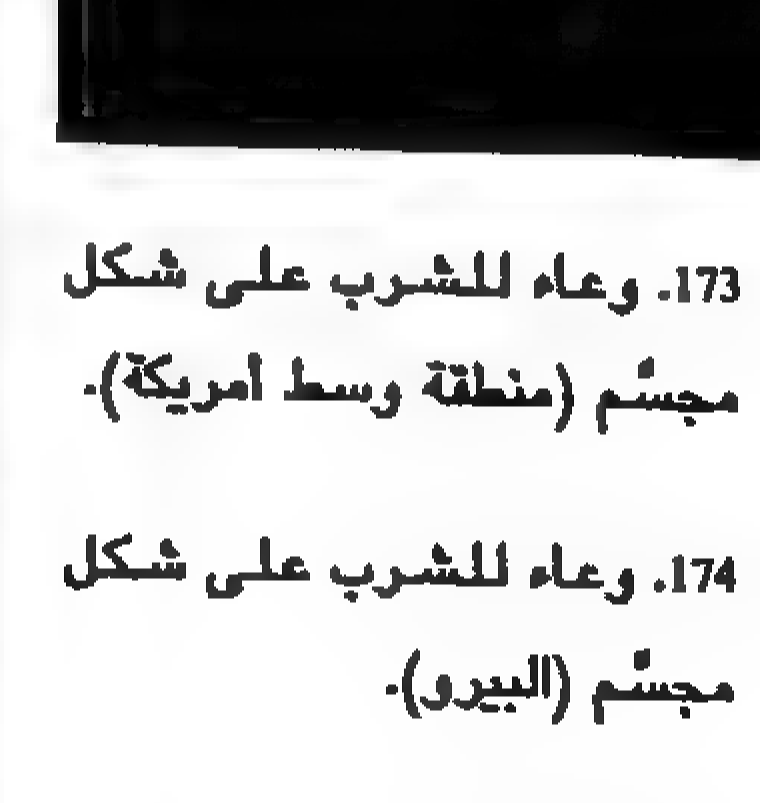
174



175



17



173. وعاء للشرب على شكل مجسّم (منطقة وسط أمريكة).

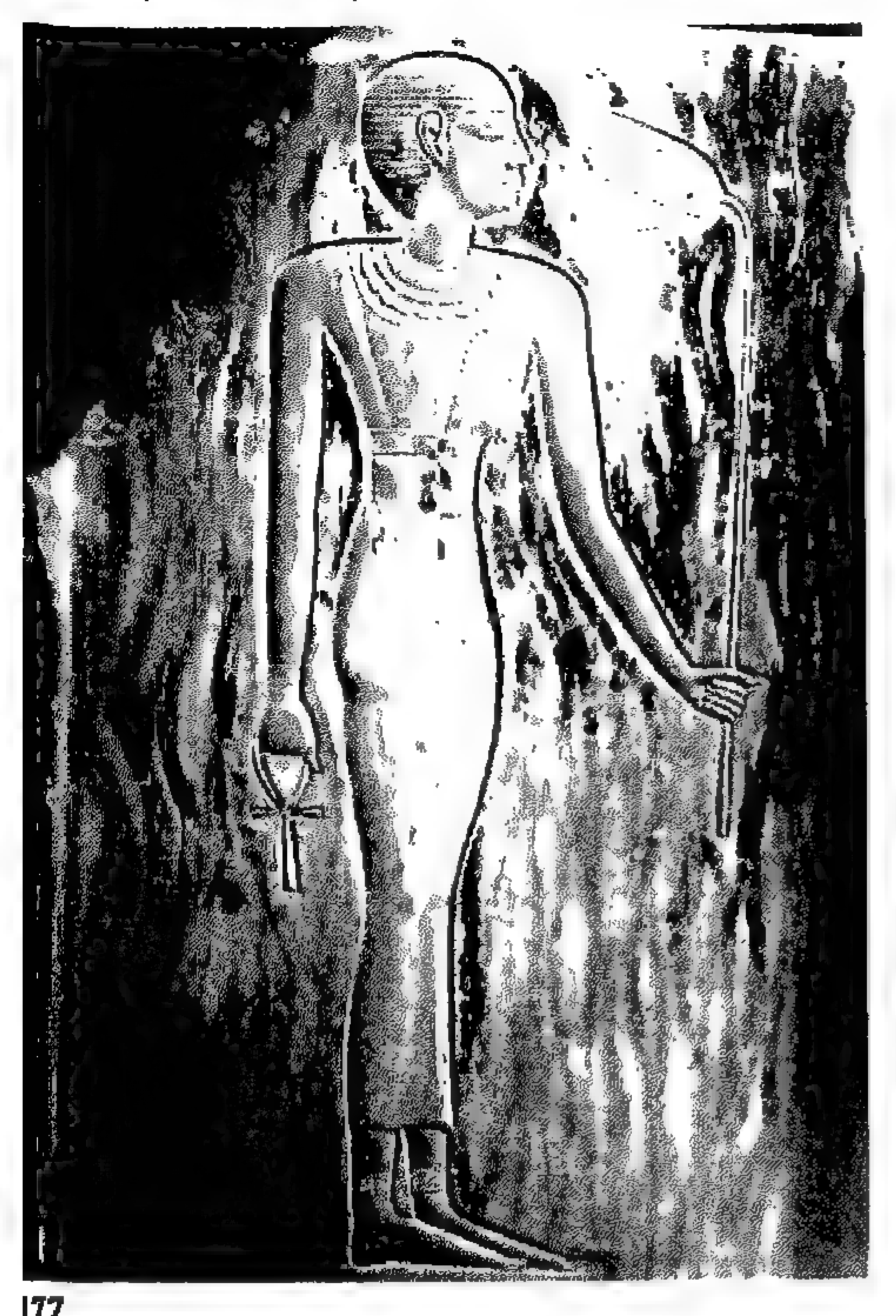
174. وعاء للشرب على شكل مجسّم (البيرو).

175. وثن من العالم القديم (منطقة البحر المتوسط).

176. وثن امريكي قديم (تلاتيكلو/المكسيك).

177. صورة جانبية وامامية (مصر).

178. مقاطع صورة متعاكسة جانبية وامامية (امريكة الجنوبية).



177

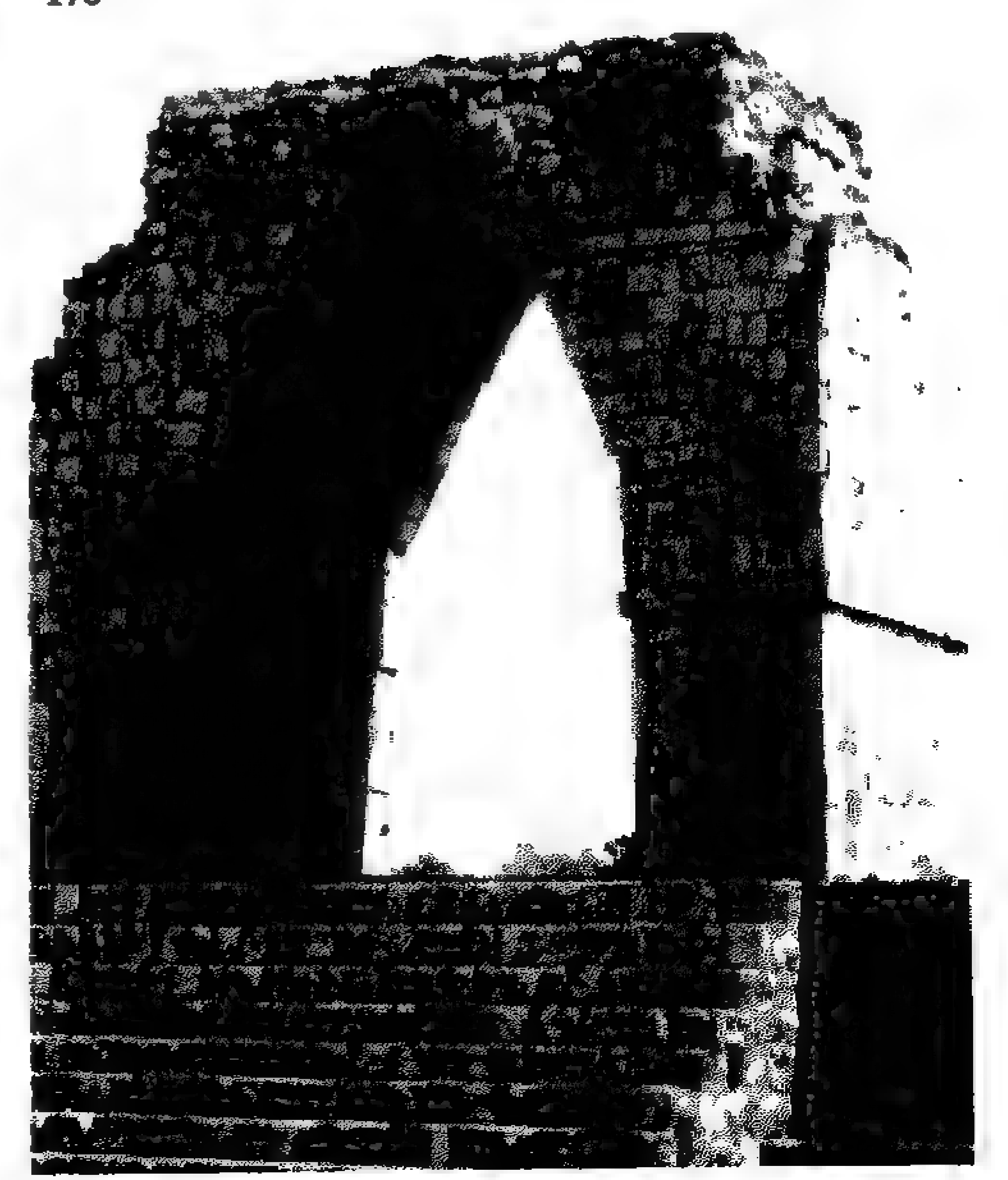


178

179

179. القوس الحلقي (القوس المقلد).

180. القوس الحلقي (القوس المقلد).



180





182



183



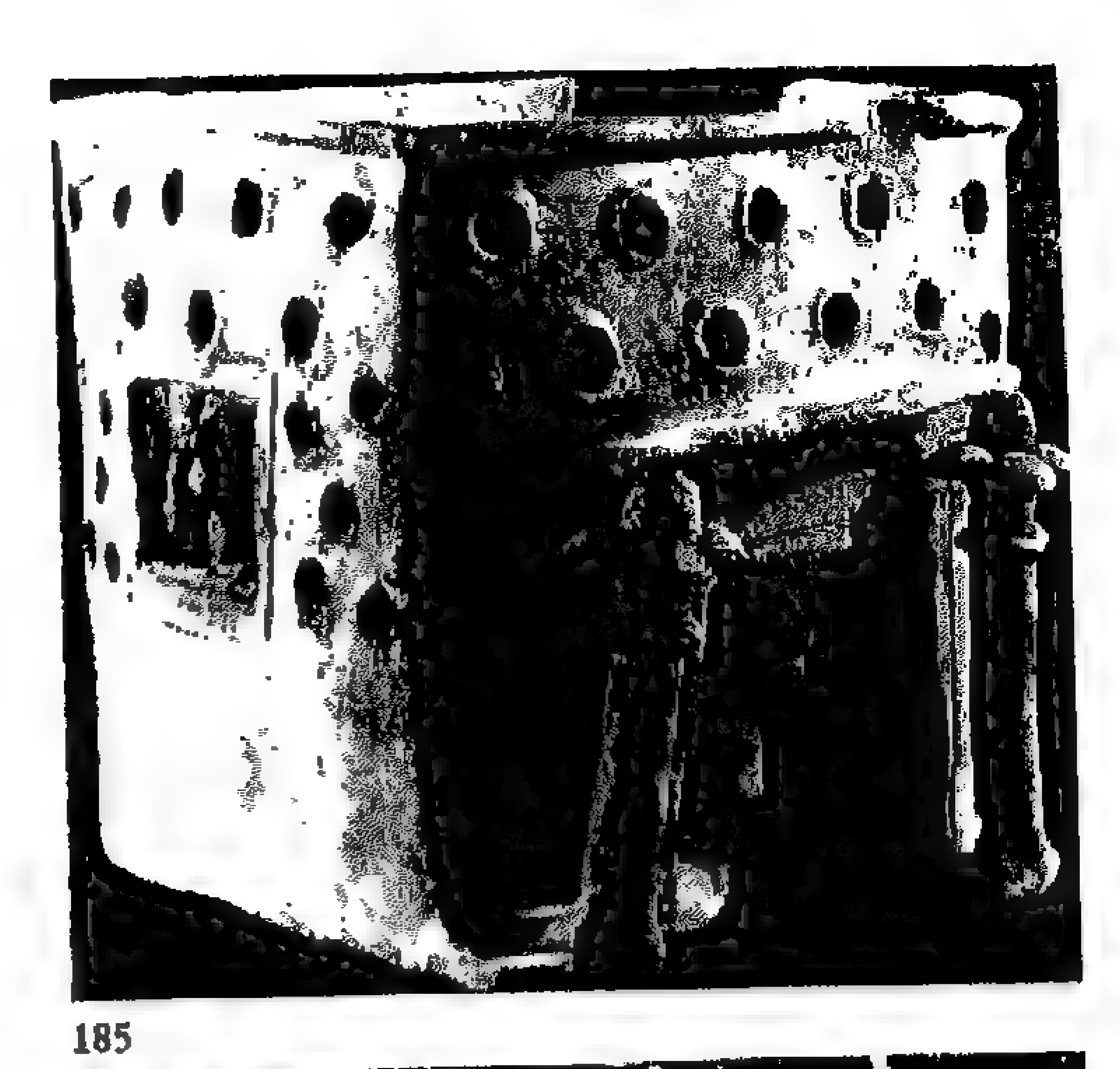
184

181. شـاهـدة لـلـذكـرى (قرطاجة).

182. شـاهـدة لـلـذكـرى (لافينتا/المكسيك).

183. أعـمـدة عـلـى شـكـل إنسان (كرياتيد/اليونان).

184. أعـمـدة عـلـى شـكـل إنسان (اتلانتا/لافانتا/المكسيك).



185



186

185. شكل طقوسي تحت سقف معبد (فينيقية).

186. شكل طقوسي تحت سقف معبد (لاقانتا/ المكسيك).

187. الهيكل العظمي الراقص والعازف (البيرو).

188. الهيكل العظمي الراقص والعازف (هانس هولباين).





188



189



190

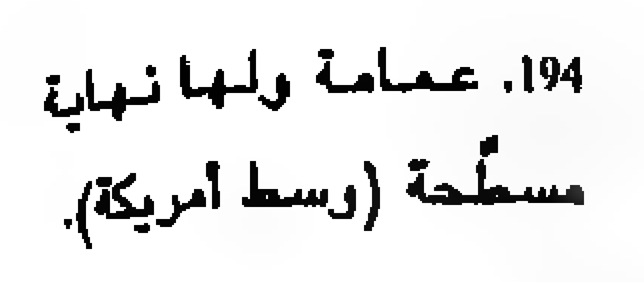
189. شكل طقوسي ذو لحية وعليه قبعة مدبّبة (قبرص).

190. شكل طقوسي وعليه قبعة مدبّبة (وسط أمريكا).

191. مــلامــح أوروبــيــد بعمامة (وسط أمريكا).

192. قبعة إيطالية (وسط أمريكا).

193. عـمـامـة ولـهـا نـهـايـة مسطَّحة (منطقة البحر المتوسط).



194. عـمـامـة ولـهـا نـهـايـة مسطَّحة (وسط أمريكا).



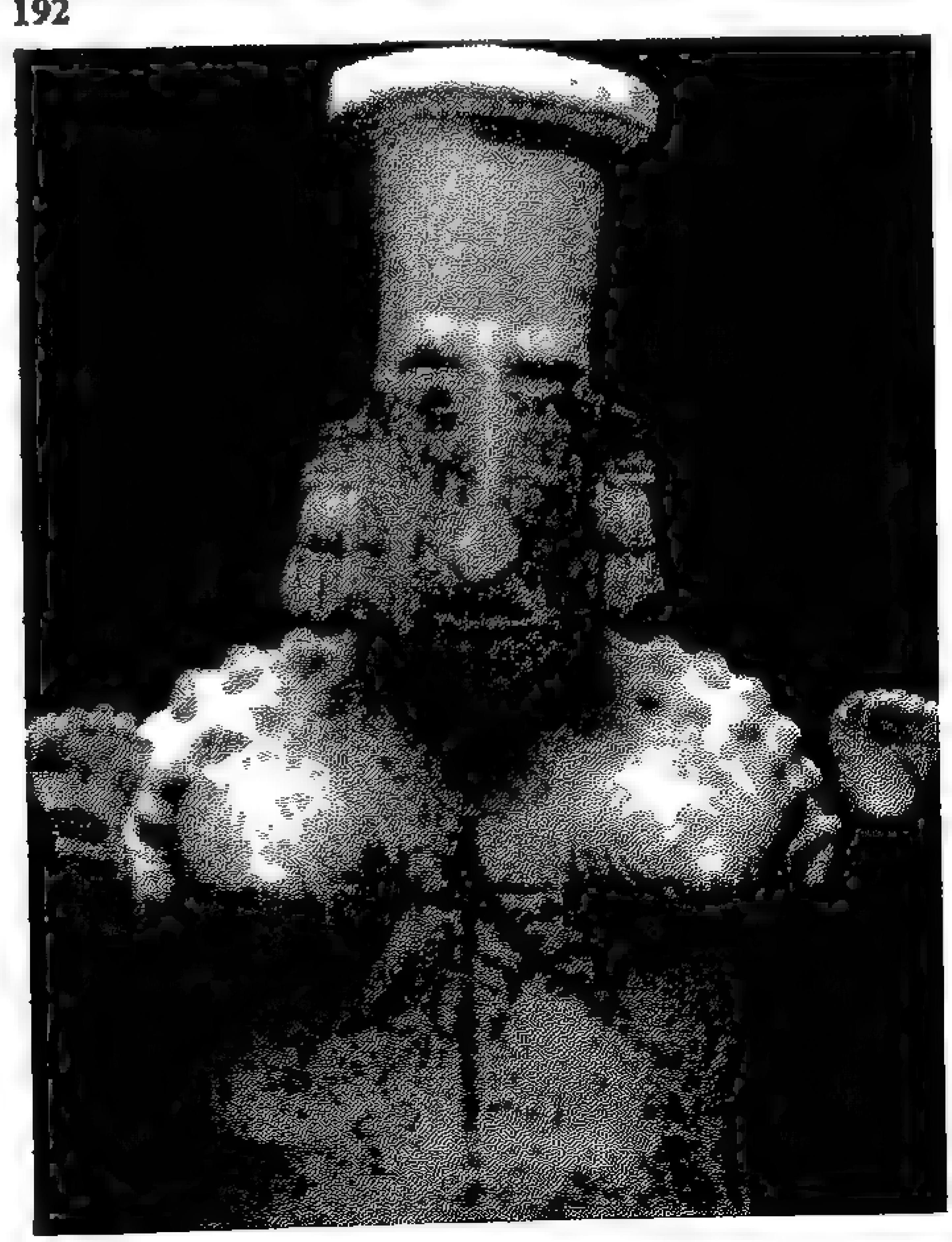
191



192



193



194



195

195. قبعة صغيرة (غواتيمالا).

196. قبعة صغيرة (الشرق الأدنى).

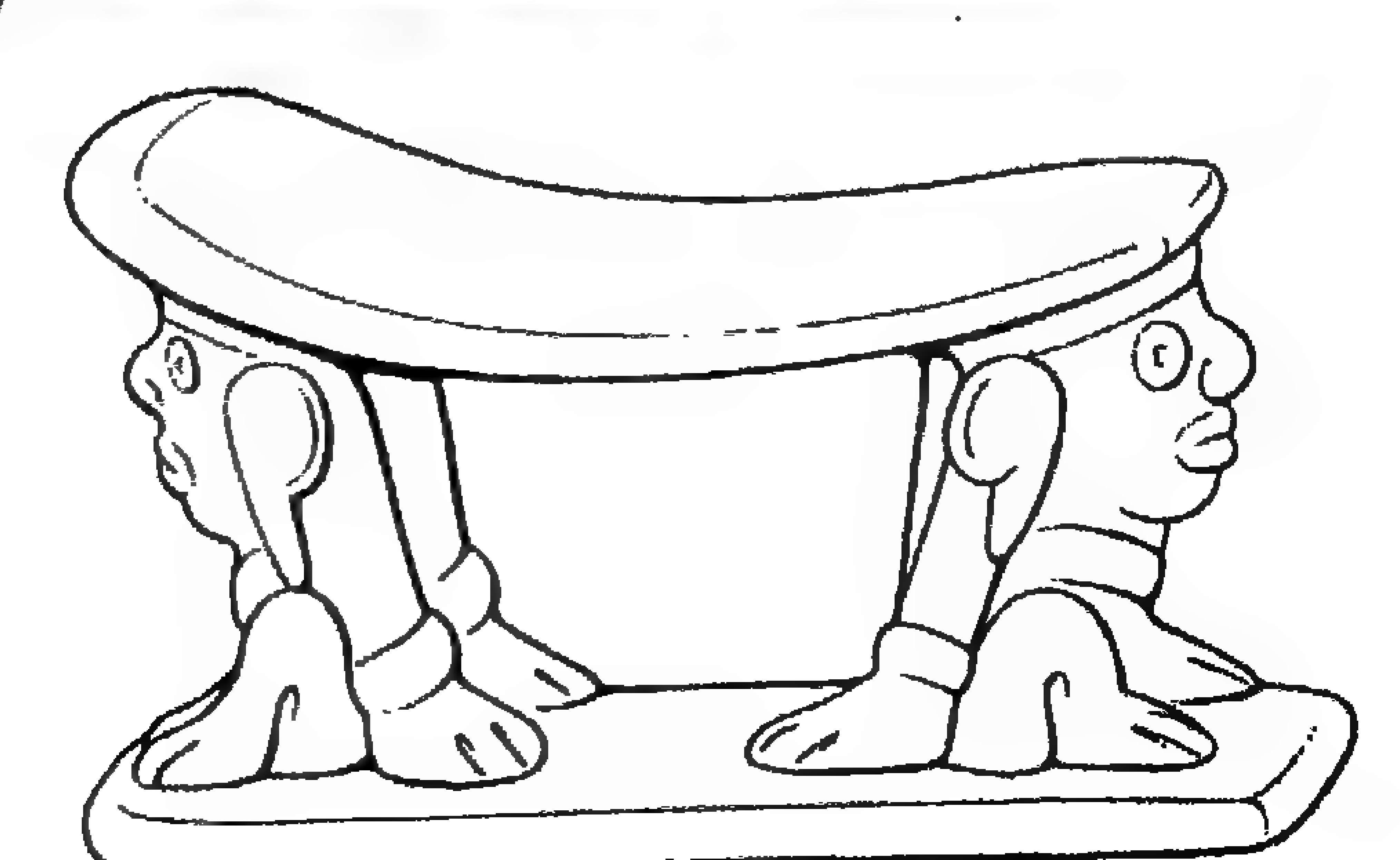


196

197. مصاغ مجسّم (غرب إفريقية).

198. سنادة راس على شكل مجسّم (امريكا الجنوبية).

197



198

199. طاحونة الحبوب

(مصر).

200. طاحونة الحبوب

(وسط امريكة).



199



200

201. شكل حيو
على عجلات (و
امريكة).

202. شكل حيو
على عجلات (و
امريكة).

203. شكل حيوا
على عجلات (منه
البحر المتوسط).


201


202


203

مرتكزات المناهضين لنظرية عبور الأطلسي قبل كولومبوس. لقد برهن الباحثون أن القطن من هواكا ـ بريتا فيه 26 كروموزوناً تتألف من 13 كروموزوناً صغير و13 كروموزوناً كبيراً. والقطن من العالم القديم يملك 13 كروموزوناً كبيراً والقطن الأمريكي البري فيه 13 كروموزوناً صغيراً[345]. وهكذا يكون القطن من هواكا ـ بريتا تهجين بيولوجي ناتج عن النبتة من العالم القديم مع قرينتها من القطن الأمريكي البري. ونظراً لأهمية هذا الإثبات برزت أصوات من معسكر «المناهضين» تعزو التهجين البيولوجي هذا إلى تطور خاص مستمر. لكن مثل هذه الحجج لا تصمد علمياً[346].

إن القطن الخليط من هواكا ـ بريتا يمثل بحد ذاته ظاهرة فردية هامة جداً. ويزداد العجب أكثر إذا نظرنا إليه في صلته مع الحضارات الأمريكية الجنوبية المبكرة. إحدى هذه الظواهر الخاصة بالقطن هي طريقة تصنيعه. من هنا نصادف لغزاً لن نقدر على حل أسراره دون البحث عنه في الطرف الآخر من المحيط. نقصد في ذلك الدقة في فن النسيج لدى الحضارات الأمريكية المبكرة. ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلاّ من خلال موجِّه روحي غريب جاء إلى أمريكة في المرحلة التأسيسية.

ثمة بدايات مشابهة لهذا الحدث الحضاري الطارىء في أكثر من مكان في مناطق عدة من العالم الجديد. فحضارة الألميك في وسط أمريكة تفاجئنا ـ كما أظهرنا سابقاً ـ من جراء بداياتها

غير المتدرجة والمكتملة. كما تشترك الحضارات المبكرة في نضجها بظاهرة لافتةً للنظر، وهي سعيها منذ بداياتها في جنوب ووسط أمريكة إلى تحقيق أهداف طموحة وفذّة مثل بناء الأهرام وتشييد الأبنية متعددة الطوابق، والمسارب الهوائية، وأنظمة الصرف الصحي وما شابه ذلك.

ولا يمكن التأكيد فيما إذا كان الألميك قد تمرسوا بفن النسيج المتطور، لأنه لم يُعثر على منسوجات تثبت هذا، لكن يتوقع أن يكون السبب وراء ذلك هو الطقس الرطب في مناطق خليج «المكسيك» الذي أدى إلى اندثار المنسوجات في منطقة أعالي البيرو أسرع من مناطق أخرى. لأن في حضارة المايا ثمة بقايا من أقمشة، حفظتها مياه البئر المقدسة في شيشن إتسا (يوكاتان) على مدى قرونٍ من الزمن. بالإضافة إلى ذلك فإننا نعرف شيئاً ما عن المنسوجات القديمة من خلال الصور الكثيرة التي تظهر عليها نماذج أقمشة رائعة: وهي بديعة للغاية ـ لكنها ليست مصممة طبقاً لنموذج العالم القديم ـ ويتوفر لدينا قدر من المعطيات عن تقنية النسيج. في البيرو عثر على آلاف من بقايا منسوجات من فترة ما قبل كولومبوس، تجعل الحكم على التقنيات المبكرة المستخدمة هناك أكثر سهولة ودقة. وكما تؤكد نتائج الأبحاث أن الأعمال الأولى كانت تنجز بطريقة تقنية العروة في إنتاج أقمشة الغرز والنسيج المضفّر[347].

تعد هذه التقنيات النسيجية من أبسط الأنواع في كل مكان

من العالم، لذا لا يدهشنا التطابق هنا كثيراً. إنما الذي يبعث على الدهشة هي الدقة المتناهية للمنسوجات من «باراكاسا» (9 ـ 2 ق.م) التي تلاشت في الأزمنة اللاحقة.

كما يدهش أيضاً التطابق في التفاصيل التقنية لآلات النسيج في الشرق والغرب. فثمة تطابق في معدات النسيج* البروانية وآلة نسيج مصرية، وجد لها شكل مشابه في أحد القبور من طيبة. كانت بعض آلات النسيج تتألف في كل من المنطقتين من أحد عشر عنصراً، تنظم على نفس المبدأ ـ تتشابه المغازل من اللُقى الفينيقية ـ بتلك من العالم الجديد على درجة كبيرة، بحيث يصعب حتى على المختصين التفريق بينهما[348].

من هنا يتضح أن التقنيات كانت عالمية، بينما كانت أعمال الحرف اليدوية أمريكية الطابع جداً. وكما يبدو أخذ الهنود الحمر «المعرفة الفنية» عن الغرباء لكنهم استخدموها في إبداعهم الخاص الأمريكي الطابع.

ومما يؤكد مقولة إن الهنود الحمر تعاملوا مع آلة النسيج من العالم القديم بشيء من الرهبة، هو حقيقة، وأن فن النسيج في أمريكة القديمة كان يعتبر مقدساً. كانت نساء المايا يصلين أمام آلة النسيج لإلهة النسيج أكشيل[349]، التي كانت بنفس الوقت إلهة القمر، قبل البدء بأعمالهن[350]. ومما يؤكد أهمية فن

(*) يطلق على آلة النسيج هذه في بعض الدول العربية تسمية (نول وجمعها أنوال) المترجم.

النسيج قيام إلهة القمر شخصياً بإيلاء النساء العاملات على آلة النسيج اهتمامها الخاص بهن.

وتتوضح متشابهات، لها دلالات كثيرة، بين الشرق والغرب في مجال تقنيات تصنيع المعادن. ولا يمكن تحديد الفترة الزمنية التي عرف فيها الذهب في العالم القديم. كما لا يعرف بالتحديد من أين جاء الفينيقيون بالذهب الذي كانوا يقدمونه للملك سليمان حوالى (1ق .م) فالتوراة تتحدث عن بلاد تدعى «أوفير» كان يستخرج منها الذهب[351] بينما تذكر نصوص قديمة اسماً غيره هو «بونت». وعلى أي حال لا تتوفر معطيات جغرافية موثوقة عن المصدر الذي كان يأتي منه الذهب كما لم يُبادر إلى التأكيد بدقة لمعرفة الموقع الجغرافي لبلاد الذهب التي تحيط بها الحكايات. أخبار العالم القديم تحدثت عن رحلات بحرية طويلة لا تنقطع باتجاه الجنوب. غير أن هذا لا يغني مسعانا كثيراً. غير أنه لم يكن من اللازم أن تكون المعطيات عن بلاد الذهب دقيقة للغاية: لأن جزءاً من الاستراتيجية الفينيقية كان الحفاظ على سرية خطوط مواصلاتهم تجاه منافسيهم قدر الإمكان.

وهل يجوز البحث عن أرض الذهب في أمريكة؟ البعض سيجيب بنعم لأن النصوص القديمة، ومن ضمنها التوراة، تشير في موضوع الحصول على الذهب إلى المدينة القديمة طرطيسوس (ترشيش) التي كانت تقع على شاطىء الأطلسي

الإيبيري، تماماً كمدينة قادش التي أسسها الفينيقيون. وكانت تعد طرطيسوس مركز صناعة المعادن وكانت تقيم مع الفينيقيين علاقات تجارية عميقة. إذاً، فالصلة بين طرطيسوس والقارة الأمريكية، أي إلى بلاد الذهب، يبقى ممكن الحدوث، ضمن مجمل الحقائق هذه.

وبالنسبة لسؤالنا يظل التطابق في تصنيع المعادن أكثر أهمية من تحديد بلاد الذهب الأسطورية. ففي أوقات امتداد الرحلات التجارية الفينيقية إلى ما وراء البحار عرف البروانيون ومارسوا تصنيع الذهب، والفضة والنحاس(353). وكانت إبداعاتهم الفنية في الأعمال المعدنية تتسم بخصوصية فريدة. ولا نشير إلى أنها تأثرت من ناحية الأسلوب بنماذج من العالم القديم. ولكن طرائق الصنع تتطابق في كثير من النقاط مع تقنيات تصنيع المعادن في العالم القديم. كانت تستخد الطرائق ذاتها وفي نفس الفترة الزمنية في تذويب، وتفضيض، وتلحيم، وحدادة المعادن. كما أن التقنيات المعقدة مثل التنميق والزخرفة وتصنيع المخرمات والرسم على الميناء كلّ هذه كانت أعمالاً فنية متقنةً على الطرف الآخر من الأطلسي. وكما كانت طريقة إذابة الشمع معروفة في كلتا المنطقتين. وسنتطرق إلى هذه الطريقة بشيء من التفصيل لما تبديه مجريات العملية هنا من تطابق. كانت طريقة تذويب الشمع، أو ما يسمى «الشكل الضائع» المعروفة في فن النحت إبان

عصر النهضة الأوروبية كونها مدرسةً راقيةً في تقنية الصب، يُعمل بها في العالم الجديد أيضاً. في البداية يُغطى شكل من الفخار بطبقة من هباب الفحم وبعدها من الشمع: ثم يصار إلى وضعه في طبقة من الفخار، تلف طبقة الشمع بالكامل ولا يبقى مكشوفاً إلاّ ثقب السداد الصغير، وتربط دعائم اللُّب غطاء الفخار الخارجي مع نواة الفخار. بعدها يُعرّض الشكل للنار، لتذوب طبقة الشمع في الداخل وتتسرب عبر ثقب السداد. وبين شكلي الفخار اللذين يظلان منفصلين عن بعضهما من خلال دعائم النواة، تتكون مساحة فارغة تعبأ بالمعدن المنصهر.

هل يمكن حقاً اعتبار تطابق الطريقة المعقدة هذه المكتشفة والمستخدمة في مكانين يفصل بينهما المحيط، أمراً مفروغاً منه، ويوجد تطابق آخر في طريقة غير عادية تستخدم في صقل المعدن، يتم فيه صب أو طرق خليط من الذهب والنحاس وتكوين شكل منه. وبعد ذلك تُدهن الطبقة العليا بحمضٍ يعملُ على انحلال النحاس كيماوياً، لينشأ عليها بريقٌ ذهبي. وهذه الطريقة الذكية مثبوتة على جانبي الأطلسي[354].

ولا بد من التنويه إلى الأخبار الغزيرة حول العملات المعدنية التي عُثر عليها لدى الحديث عن صناعة المعادن. لقد وجدت العملات المعدنية من دول البحر المتوسط في أجزاء مختلفة من أمريكة القديمة. لكن لم تكن أماكن العثور عليها

مؤكدة ولا أخبار التنقيب عنها موثوقة جداً[355] الأمر الذي يدعونا إلى الاستغناء عن العملات المعدنية في البحث عن أدلة دامغة لأوجه التشابه. لكن ثمة متشابهات عديدة أخرى في مجال قائمٍ بين الطب والتقنية والعبادة الدينية ونعني بها ثقب غطاء الجمجمة. فمن الناحية الطبية يبقى موضوع ثقب الجمجمة ضرورياً، إذا أريد إجراء الجراحة في الأوعية الدموية أو في المخ تحت قشرة الجمجمة. ومما يبعث على الدهشة أن هذه المداخلة الجراحية كانت تجري كثيراً في الشرق الأدنى منذ حوالى عام 1500 (ق.م). وفي نفس الفترة مارس الهنود الحمر فن ثقب الجمجمة وبشغف وتكرار، قد يتجاوز الحالة الطبية. وهذا مدعاةٌ للملاحظة لأن العملية بحد ذاتها لم تكن بهذه السهولة بالتأكيد. كانت تنشر الجمجمة بمنشار المحار أو بسكين حجرية، ولم تكن تنتهي العملية دائماً بموت الشخص. تثبت جماجم الموتى التي عُثر عليها، أن المريض، أو القربان البشري، توفرت لديه فرصة الحياة حتى بعد ثقب جمجمته[356].

بالإضافة إلى ثقب الجمجمة وتشويه الجمجمة ورد ذكر الطهور. كلُ هذه الممارسات غير الاعتيادية يمكن أن تنبىء عن التبادل الثقافي بين تلك الشعوب. ثم إن كل هذه الممارسات لا توجد بشكل إفرادي، بل جماعي. ففي المكان الذي يمارس فيه العرف هذا، تجد الآخر معمولاً به أيضاً. وبذلك

ترتفع قوة البرهان لهذه الممارسات الخاصة ـ كونها مجالاً إضافياً للدلائل المتوفرة.

سيُذكر تشابه آخر مدهش في مجال الطب: المقعدون، والذين قطع أحد أطرافهم، والأقزام، والمشوهون منذ الولادة، أو من جراء الأمراض، كالمجذومين والمجدورين، فكل هؤلاء الناس بدوا وكأنهم مارسوا نوعاً من الافتتان على إخوانهم من الناس الأصحاء، في الشرق أو في الغرب. كان بلاط الملوك في العالم القديم يستخدم هؤلاء المشوهين ليبددوا الهموم من خلال منظرهم المختلف؛ كما كان الأقزام يقومون بدور المهرجين.

ولا يعرف المرء في أمريكة القديمة سوى صورة المخلوقات التعيسة هذه، دون إدراك لخلفية الاهتمام الظاهر بهم. ومن المحتمل أن يكون خلف ذلك رغبة الإنسان الدفينة في المشوهين و«المتوحشين» في كل مكان ذكر تقديس آلهة الأقزام في العالم القديم والعالم الحديث في هذا المجال[357].

ويصعب علينا تصنيف فكرة ما يسمى «رقصة الموتى» في مجمل الصورة التي نحن بصددها. إذ أن صورة الهيكل العظمي الراقص أو العازف، التي تدعو الأحياء في جنونهم إلى الرقص هي فكرة معقدة وأصيلة يستحق ذكرها، طالما أنها موجودة في كل من المنطقتين. 187,188

لن ننهي لمحتنا بهذه الأفكار السوداء. لذا سنعرج على موضوع فرح هو الموضة وخياطة الملابس، لأنه احتل موقعاً مهماً في اهتمامات البشر في كل مكان وزمان. ومن دون هذا الاهتمام لم يكن بالإمكان التوصل إلى التنوع في اللون والمادة والتصميم كما توثق كل المراحل التاريخية للبشرية. هنا نشير إلى بعض الأمثلة من موضة «القبعات» المثيرة، التي يشترك أسلوبها على طرفي الأطلسي بطريقة خاصة لا تخطئها العين.

من المؤكد أنّ غطاء الرأس، مثل أي شيء في حياة أسلافنا، كان له صلة وثيقة بالطقوس والعبادات والتقاليد. وطبقاً لذلك تكون صورة هذه الأساسيات في صورة ظهور الإنسان في الشرق والغرب صحيحة وثابتة. وكانت قد جرت المقارنة فيما مضى بين غطاء الرأس لشكل إلهي مصنوع من الحجر من منطقة كويريرو (في المكسيك) مع العمامة من الشرق الأدنى[358]. كما جرى اكتشاف القبعة الصغيرة المدببة لأحد الكهنة الساميين وقد اعتمرها الشخصان اللذان يحمل أحدهما الآخر على ظهره في بنما، وفي عديد من صور أمريكية قديمة أخرى، ونذكّر بالعمامة الشرقية لإحدى الفتيات من كويريرو لما لها من خاصية مميزة. فالأشرطة الملتفة، والشكل الدقيق لغطاء الرأس، والزينة في منتصفه، وكذلك أنواع القماش المختلفة التي صنع منها غطاء الرأس المعقد، كل ذلك يجعل من هذا الشكل قطعة ملابس لا يمكن إخطاؤها

190,189

تدل على أنها نسخة عن زي ليبي[359]. وعلى أي حال فإن الزي نفسه تلبسه العروس في إحدى مناطق المغرب.

ولعل الطاقية غير المألوفة إطلاقاً بالنسبة للأمريكيين القدماء التي لها حافة ويعتمرها أحد المايا وله ملامح وجه أوروبيدية وذقن مدببة، إنما توحي بأن صاحبها غريب بين الهنود الحمر. ولو أراد المرء تصنيف القبعة بين أحد أشكال الموضة، لكانت موضة من العصر الوسيط في أوروبا، ولا يخطر على البال التفكير بزي الهنود الحمر أبداً. وتظهر عمامة مدورة على رأس أمريكي قديم ــ وله ملامح أوروبيدية، أي وجه دقيق ــ تشابهاً واضحاً مع غطاء رأس شرقي. 191,192

يضع أمريكي كبير في السن، له ملامح سامية، على رأسه طاقية طويلة، مستقيمة لها شكل غريب، وتؤلف حافتها إطاراً على شكل صحن مدوّر، وعلى نفس المنوال ثمة طاقية على 194 رأس شخص من العالم القديم يجلس القرفصاء أمامه وعاء مراهم. وهنا يجدر التنويه ليس إلى شكل الطاقية العملاقة 193 فحسب، بل إلى حقيقة أنّ هذه الطاقية كانت موضةً في كلا الطرفين من الأطلسي وفي تزامن واحد. سنذكر ختاماً طاقيةً صغيرةً تدل على نفسها بطريقة لا تخطىء نظراً لصغر حجمها. فالإطار وجزء من الطاقية الأمامي يعطيان انطباعاً بأنهما ضيقتان، كما تشير الصور 159 و196، لا تناسبان شكل 195,196 الرأس.

لم تكن موضة القبعات في تلك الفترات الزمنية أمراً ثانوياً، كما هي عليه اليوم، من حيث تبديل وتغيير الموضة. غطاء الرأس كان شيئاً باقياً، لفترة طويلة، يعطي دليلاً وإشارة على المجموعات العرقية أو الشعوب، أو نوع المهنة أو لتجمع ديني ـ يشار هنا إلى قبعات الكرادلة، وطواقي الطباخين أو المهرجين.

وعلى أي حال كان غطاء الرأس جزءاً من حامله بشكل عام. لذا يعتقد، بأن غطاء الرأس صاحَبَ حامله في رحلاته البعيدة في البحر. وهكذا غدت الطواقي جزءاً من صور العالم الأمريكي القديم. وشاهداً على عبور الأطلسي لمالكيها.

وفي خاتمة هذه المقارنة الثقافية التاريخية نقدم علامةً مضيئةً في البحث عن الآثار وهي مشهد ساعات الفرح والسعادة من منظورها التاريخي الثقافي. هنا تتكشف مجدداً متشابهات جمة جديرة بالملاحظة. فمثلاً، كان الأُرْغُون آلة عزف مرغوبة عند سكان منطقة البحر المتوسط وعند الأمريكيين القدماء على حد سواء. ومن المعروف أن هذه الآلة الموسيقية تتكون من قصبات طويلة مزدوجة، مثل آلة الأورغ. فهل يعقل أن يكون محبو هذه الآلة قد اهتدوا إليها في مكانين مختلفين من العالم واستخدموها بتزامن! ربما جرى الأمر على هذا المنوال. إنما الذي يبدو مقنعاً أكثر، هو أن هذا التطابق لم يكن سوى نتيجةٍ حتميةٍ للتبادل الحضاري ولو لم تتحدث الأسطورة اليونانية

صراحةً على أن إله الرعاة بان* «بمقامه» هو أول من اكتشف هذه الآلة وأعطاها اسمه، فلا بدّ إذاً إلاّ أن يكون الهنود الحمر هم من اخترعها. واتجاه العلاقة هنا من الغرب إلى الشرق، وهذه ليست حالةً فريدة في التشابه وإنما جزءٌ من مجموعة متشابهات ثقافية أخرى.

يذكر إرفين، أن لعبة اللوح الخشبي «باتولي» كان يلعبها الهنود الحمر قبل كولومبوس. نفس هذه اللعبة موجودة عند الهنود وتدعى «بارجيسي» ولها نفس القواعد[361].

وحين يتعب الأمريكيون القدماء من اللعب الكثير والمرح كانوا يلقون رؤوسهم لبرهة وجيزة فوق سنّادة رأس مصنوعة من الخشب والحجر وبقدر من الدقة والسخاء[362]. وهكذا كانت السنّادة نصف الدائرية يمسكها أحياناً مجسّم جاثٍ أو شكل تزييني. كانت فكرة إسناد الرأس على هذا النحو خطرت للأفارقة في الصحراء الغربية والمصريين أيضاً، الذين كانوا يضعون تحت رؤوس موتاهم مثل دعامة الرأس هذه. لماذا لا يكون هؤلاء أخذوا معهم لوازمهم المستخدمة على ظهر السفينة لكي لا يستغنوا عن راحتهم المعتادين عليها وهم في غربتهم. كل هذه الضروريات لوقت الفراغ والراحة لا تكشف صلةً مع النساء اللاتي يُعرضن وقد عكفْنَ على طواحين القمح ليقمن

197,198

(*) بان، اسم إله الرعاة في الأسطورة اليونانية. وذلك يطلق على الأرغون «مزمار بان» (المترجم).

بإعداد الذرة لليوم التالي. كانت تتألف طاحونة القمح من حجر الطحن وفيه «منخفض حجري» تتدحرج على حبّات الذرة زحافة حجرية طولانية الشكل جيئةً وذهاباً. إن مقارنة بين صور النساء العاملات توضح مدى التشابه في معدات العمل التي كانت النساء في الماضي يعملن فيها في الشرق والغرب. 200,199

وفي المراحل اللاحقة توصل القدماء إلى مختلف المعدات والتقنيات، مثل الطواحين الآلية بهدف تسهيل العمل. هل اخترع الأمريكيون القدماء أمثال هذه الطواحين، لكي يطحنوا الحبوب بطريقة أكثر فاعلية من أن تطحن بآلة تدار باليد؟ كلاًّ، لأنه كانت تنقصهم العجلة. والعجلة لم تكن تستخدم من قِبَلِ الأمريكيين القدماء. أُلِّفَت العديد من المجلَّدات عن هذه الحقيقة التي لا يمكن استيعابها، وغالباً لكي يثبت من خلالها أنه لم تكن تقوم اتصالات بين العالم القديم والعالم الجديد، وإلاَّ لكانت أمريكة أخذت العربة بالتأكيد. لكن، هل كان الهنود الحمر حقاً ـ بهذه البساطة، بحيث إنهم لم يكونوا قادرين على اختراع العربة بأنفسهم، وهذا ما لا يريد أحدٌ أن يغمطهم إياه. على الأقل دعاة نظرية التشابه أو المستقلون، الذين ينطلقون بدعواهم من أن الحضارة الراقية في أمريكة نشأت بذاتها وشقَّت طريقها بنفسها دون أية مؤثرات خارجية. هم تحديداً، لا يسمح لهم نشر دعاية عن الرأي القائل بأن الهنود الحمر لم يكونوا قادرين عبر هذه القرون قبل عام 1492، من التوصل إلى اختراع العجلة.

الأمر ذاته يبقى صعب التفسير حتى بالنسبة لمؤيدي فكرة الاتصال عبر ضفتي الأطلسي، لماذا لم يكن يوجد عجلة في أمريكة القديمة. ومما ينبغي التأكيد عليه حقيقة كون الأمريكيين القدماء حققوا حضارة متطوّرة دون عجلة، إذاً لم تكن تنقصهم العبقرية. ورغم هذا نقول، لماذا أعرضوا عن العجلة؟ ربما لم يحتاجوا لوسائط نقل بعجلات، لأن الأنهر والأخشاب التي ينقلها تيّار النهر قدّمت تعويضاً كاملاً عنها، هل كان يتم نقل الناس بالمحفّات والهوادج بدلاً من العربات؟

ولربما ارتبط الاستغناء عن العجلة بأسباب طقوسية؟ أو لم يكن يتوفر عندهم حيوانات جرّ مناسبة؟ أو أنه من المحتمل أن تظهر في أعمال التنقيب القادمة معدات نقل كاملة لم تكن قد عثر عليها إلاّ صدفة حتى الآن؟ أو أن العجلات الخشبية تآكلت في طقس أمريكة الوسطى الرطب[363].

لا يزال المرء في حيرة ظاهرة، لكن المؤكد هو أنه من المحتمل أن لا يكون الأمريكيون القدماء استخدموا عربة أو واسطة نقل. لكن فكرة هذه الأخيرة لم تكن مجهولة لديهم. وجد البرهان على هذا التأكد في الأرض المكسيكية في مجسّم لأشكال حيوانات على عجلات وهو في حجم لعبة أطفال[364]. 201,20

يربط كلٌ من الأرجل الأمامية والخلفية لهذه الحيوانات محور عجلة مركب عليه عجلتان بحيث يستطيع الحيوان

الفخاري الحركة. هل هذه وسيلة النقل الوحيدة في أمريكة القديمة؟ وفي شكل لعبة أطفال؟ هنا تطرق الآذان كلمات الشاعر هومير الذي كان على معرفة كبيرة بكل تفاصيل أعمال الفينيقيين حيث يقول: «اشتهر الفينيقيون بأسفارهم البحرية وبصناعة المعادن، كما كانوا يأخذون معهم في سفنهم ألعاباً لا تحصى»[365].

وعلى عجلات لعبة الفخار هذه ننهي رحلتنا الاستكشافية بحثاً عن آثار زوار أمريكة القدماء.

معذرة يا كولومبوس، العجلة أيضاً لا تنقذ سمعتك كمكتشف لأمريكة. منذ أن اكتشف علماء الآثار العربة الفخارية العائدة لأزمنة أمريكة القديمة لم يترك مناصرو نظرية عبور الأطلسي قبلك للذين يحترمونك ويقدِّرونك مجالاً لكي ينسجوا على منوالك. لقد انبثقت آثار من سبقك من بين ضباب تاريخ أمريكة القديم. ويمكن لهذه الآثار أن تنطق بوضوح ودون ثغرات ـ الفضل لهذه العربة الفينيقية الصغيرة . .

وأن تكون لعبة الأطفال تحديداً قد جعلت قلعة المناوئين لنظرية عبور الأطلسي قبلك تتهاوى فهذا أمر لا يخلو من التهكم. وكم هو محزن أن يسحب من أيديهم آخر سلاح في نضالهم ضد مؤيدي النظرية على هذه الشاكلة.

إلاّ أنك نفسك لم تغادر مسرح أحداث التاريخ خالي

الوفاض، على العكس من ذلك: ستحتفظ بك ذاكرة الأجيال رجلاً امتلأت يداه بالذهب والفضة. كانت كنوز العالم الجديد كافية لكي تجعل مملكة بكاملها تتعافى وتتحوَّل لتغدو قوة عالمية. واستغل أولئك الذين كلَّفوك ذهب الهنود الحمر في حروبهم الباهظة الثمن باسم الصليب. وهكذا تحوَّلت أمريكة إلى كنز لا ينضب للملوك الإسبان. وكلما كانت بركة المعدن الثمين أغنى كلما ازداد الجشع عليه. وعندما كان الهنود الحمر يقصرون أحياناً كموردين في يوم ما، كنتم تتدخَّلون بمنتهى القسوة، لأنه كان يناسبكم أن لا يستحق الهنود الحمر أية شفقة، ألم يكونوا وثنيين. والأدهى من ذلك أنهم رغبوا في البقاء على وثنيتهم. لكنكم عرفتم كيف تعملون من أجل الكنيسة الكاثوليكية في مسائل العقيدة! وبسرعة كبيرة استجاب الهنود الحمر لعملكم المقنع ـ أو لسيفكم ـ ولم ينقصكم الحزم والشدة في مسائل الفن والثقافة. فبعض الناس كانوا يلزمون إلزاماً بقدرهم، وهكذا أجبرتم الهنود الحمر على الاعتراف بحضارتكم والأخذ بها كحضارة وحيدة صالحة.

نعم لقد تعلَّم الهنود الحمر بسرعة كبيرة منكم وفتحتم لهم أبواب رحمات العالم المسيحي، وأظهرتم لهم خلال اعتناقهم الدين المسيحي كفاءتكم وحبّكم ووعيكم بالرسالة. شيء واحد لم تبيِّنوه لهم: التسامح وكم هي قليلة الاستثناءات من هذه القاعدة.

ويا للفارق العظيم بين مكتشفي أمريكة الحقيقيين، وكم هم مغايرون أولئك الذين جاؤوا للتجارة قبل آلاف السنين من ميلاد المسيح. لقد وطئت أقدامهم الأرض الأمريكية زواراً ومعلِّمين وناصحين. وغدت أفكارهم الشرارة والإلهام والحافز لتطور الحضارات الأمريكية القديمة التي تدفعنا لاحترامها لأننا بدأنا الإحاطة بها وفهمها تدريجياً. وعلى النقيض من ذلك لم يظهر الهنود الحمر تجاه الغرباء سوى التسامح الذي قدر على تحويل اللقاء بين عالمين إلى عيش مشترك بينهما. وارتبط الهنود الحمر والأغراب برباط استمر عبر قرون طويلة ما تزال أصداؤه ترن في آذاننا، وما زالت صورته ماثلة أمام أعيننا.

لقد اعتبر الأمريكيون القدماء وصول الغرباء حدثاً لم يغب لحظةً عن ذاكرتهم. كما احتفظوا بصورة «الإله الأبيض» في مقام رفيع ليصبح محور أساطيرهم ومعياراً لتفكيرهم وعملهم. وما زالوا ينتظرون رجوعه عندما جئت. يا لسخرية الأقدار! لأن ذكرى الإله الأبيض كانت ما تزال حية وتحظى بمكانة رفيعة لديهم، تمكَّنت أنت ومَنْ جاء بعدك من استغلال عالم الهنود الحمر استغلالاً بشعاً وبسرعة كبيرة ودون مخاطر.

خطأ قاتل ارتكبه مونتيزوما وشعبه من الأستيك لأنهم رحبوا بالغازي الأبيض كورتيس معتقدين أنه الإله الأبيض، الذي وعد الهنود الحمر في السابق في أن يعود من الشرق «وها هو الآن قدم إليهم» فرحبوا به ترحيباً حاراً.

معذرة يا كولومبوس، لأنهِ عندما فتح الهنود الحمر أذرعتهم لاستقبالكم، كان عليكم أن تدركوا، أنكم لستم الأوائل، وأنك، أيها المحترم كولومبوس لست مكتشف أمريكة الذي من أجل ذلك يحتفى بك منذ خمسمائة عام.

ملاحظـات

الهوامش

1. موريس دافيد، من كان كولومبوس، نيويورك 1933.
2. روتسبير بلتران، كريستوبال كولون جينوفس، مدريد 1925.
3. رامون بيدامنينديس، لالينغوا دي كريستوبال كولون، بوينس آيريس 1942.
4. من ضمن الكتب التي درسها كولومبوس بدقة كانت السبعة والثلاثين مجلداً «ناتوراس هستوريا دي بلينيوس» وكذلك «هستوريا ريورم أوبك جستاروم» التي ألّفها العلاّمة آينيس سلفيوس دي بيكولوني، البابا بيوس الثاني.
5. مثلاً على ذلك: ترجم كولومبوس كلمة «هاي» بالإسبانية بكلمة «هابيت» باللاتينية. سيزار لوليس «من اكتشف أمريكة» باريس 1898.
6. «فرتس بير» اليهود في إسبانية المسيحية، برلين 1936.
7. اختار كولومبوس لدى دخوله طبقة النبلاء. اسم «دي تيرا رويا»، وهو ما يوازي في اللغة الكاتالونية «مونروي» أي «الأرض الحمراء» راجع مادا رياجا، كريستوفر كولومبوس، لندن 1949، ص 60 وبعدها.
8. راجع مادا رياجا، ص 62 وما بعدها.
9. بارتولوم دي لاكازاس «هستوريا دي لا إندياس» من مجموعة وثائق الهنود الحمر، في تاريخ إسبانية، مدريد 1875.
10. من أهم الأشخاص الذين اعتنقوا المسيحية في إسبانية والبرتغال كان: أسقف مدينة بورجو، ومعلم الأمير يوحنا الثاني في قشتاليا ومستشار الملك فراي ألونسو دي اسبينا، وعراب الملك ورئيس جامعة سالامنكا، وديغو أرياس دافيلا، أمين سر الملك، موسن بيدرو دي كاباليريا، ممول وسيط الزواج بين إيزابيلا القشتلانية وفرديناند آل آراجون في عام 1469. هرناندو دي تالافيرا، عرّاب الملكة وجابرييل سانشيز، المسؤول عن خزينة بيت الملك، وخوان باشيكو، أمين سر الملك، وخوان كابريرو رئيس مجلس الملك، ولويس دي سانتا نجيل، أمين

خزانة فرديناند آل آراجون، الذي توسَّط في بلاط الملك بشأن كولومبوس. انظر: م. كايزلنج، «كريستوفر كولومبوس ومشاركة اليهود في الاكتشافات الأسبانية والبرتغالية» نيويورك 1984 ص 30 ـ 59.

11. كان الاهتمام بالرحلات البحرية واكتشاف الجزر والمناطق الجديدة كبيراً في القرن الخامس عشر وكان يحبِّذها أعلى المراتب بقصد المشاركة بالربح. كما أطلق على ولي عهد البرتغال صفة «هانيريش البحار» نظراً لالتزامه بالرحلات البحرية.

12. أصبحت مايوركا ومدينة ساجريس البرتغالية مركزاً «للبحوث العلمية عن البر والبحر» منذ القرن الثالث عشر. وشملت علوم الكون «كوسموغرافيا» الجغرافيا والفلك والملاحة حتى القرن السابع عشر. كما طورت في زمن كولومبوس أجهزة القياس التي كانت تؤدي القياس المطلوب من على ظهر السفينة.

13. كان يهودا كريسكويز من أهم القائمين على أكاديمية علوم الكون في ساجريس في القرن الخامس عشر، وهو من الذين بدَّلوا اسمهم بعد ملاحقة اليهود في خايم ريبس عام 1391. وحل بعده في رئاسة الأكاديمية سترو جوزيف فيسينو، وكان يهودياً وطبيباً خاصاً للملك البرتغالي. كان يعمل في علوم الكون آنذاك عدد من اليهود. راجع مادا رياجا ص 73 وص 83.

14. آبوكريفن 4، أسرا الفصل الرابع 42 و47.

15. وصل البرتغالي جل اينس حتى مدار السرطان، الذي كان يعتبر الوصول إليه مخاطرة عظيمة. وبدعم وتشجيع من الملك وولِيِّ عهده «ابنه» هاينريش البحَّار جرى القيام برحلات استكشافية بشكل منتظم. فكان يصار إلى إطلاق وعود كثيرة للبحارة المشاركين في الرحلات الاستكشافية لتقديم تنازلات لهم ومشاركتهم في الأرباح المتوقعة منها. انظر مادا رياجا ص 80.

16. م. ن. نافاريتي «كوليكسيون دي لوس فياجس ديسوبر منتوكي هيكريون بورمرلو إسبانيول» مدريد 1825.

17. باولوديل كوتسو توسكانيللي، عالم رياضيات وطبيب من فلورنسا، كان أعدَّ خارطة بحرية لملك البرتغال عن البحر ما بين «البرتغال والهند». ووصلت هذه الخارطة ليد كولومبوس قبل أن يباشر رحلته الاستكشافية.

18. لم يظهر البابا ألكساندر رودريغو بورجيا (1492ـ 1503) اهتماماً بأناس العالم الجديد. غير أن خلفه البابا يوليوس الثاني (1503ـ 1513) أصدر أمراً كنسياً بابوياً ينص على

أن «الهنود الحمر من سلالة آدم وحواء وعليه فهم كائنات حيّة». وبما أنهم ينحدرون من: الفصيل المذنب، البابليين، لذا فهم منبوذون من العالم القديم. انظر ب. فل، أمريكة قبل المسيح، نيويورك 1976، ص 16.

19. س. شندلر، «مسألة» البرهان على اكتشاف أمريكة قبل كولومبوس، فرايبورغ 1983 ص 2.

20. نزل كولومبوس على جزر الأنتيل المواجهة لأمريكة الوسطى.

21. تبدأ السنة اليهودية حساب الزمن بالعام 3761 ق.م، ولم تتفق حضارة المايا على سنة محدَّدة: وكل الباحثين الذين انشغلوا بهذه المسألة الرياضية ـ الفلكية يتفقون على أنها السنة «صفر» بين السنوات 3113 و3600 ق.م. ويعتبر هربلرت شبندن أكثر الباحثين دقة في معالجة هذه المسألة. ونتج عن أبحاثه أنه ما بين 850 و613 (ق.م.) بدأت حضارة المايا حسابها التقويمي. انظر هـ. شبندن: «ذي ريدكشن أوف مايا ديتس» في منشورات المتحف الأمريكي للآثار والإتنوغرافيا.

بينما حدَّد كونستانس إرفن بداية حساب الزمن لدى المايا قبل هذا التاريخ دون أن يحدِّد سنة معينة لهذا الحساب. انظر كونستانس إرفين «فير جودس آند ستون فيس» نيويورك 1963، فصل العبادة والوسمولوجيا.

22. يحدِّث هيرودوت في القرن الخامس الميلادي عن الالتفاف حول إفريقية، الذي قام به الفينيقيون بتكليف من الفرعون المصري نيشو (610، 595 ق.م.) انظر إلى جورج راولسون «هستوري أوف هيرودوت» لندن 1875 الفصل الرابع ص 42، وكذلك ديودروس سيكولوس «بيليوتيكا هستوريكا» الكتاب (5) ص 19، 20 في لوب كلاسيكال لايبراري. كامبردج 1339 المجلد (3) ص 145، 151.

23. كورت شيلدمان: «إعادة تألق الإنسان الغاية القصوى في نظام الكون في الشرق الأدنى» بون 1985 ص 2.

24. شيلدمان: المرجع نفسه ص 5.

25. مارتن كتاب «بنتا جيراما فتريس» دراسات تاريخية. فلكية حول فهم الرموز الفلكية واستخدامها. بازل، 1934.

26. هانيرش كويرنج، «الأعداد السبعة المقدسة واكتشاف المشتري في أكاديمية العلوم الألمانية» مجلَّد 4 العدد 4 برلين 1985 ص 208 – 214.

27. سنتطرَّق في فصل «العبادة والكوسكولوجيا» إلى الحديث عن دلالة الكف المبسوطة، كقوة دافعة للأذى، في الشرق الأدنى.

28. قبل حوالى عشرة آلاف عام انتهى

آخر عصر جليدي ويدعى في أوروبة العصر الجليدي الفورم - وفي أمريكة فيسكونسين. ومن ذلك الحين يذوب الجليد مما أدّى إلى ارتفاع مستوى مياه البحار إلى حوالى عشرين متراً، الأمر الذي كان من نتيجته أن غمرت المياه أراضي وجزراً. نفس الشيء ينطبق على ممر البيرنغ الذي لم يعد صالحاً للعبور عليه منذ حوالى عشرة آلاف عام.

29. كتب بيدرو مارتير مربي أبناء الملك الإسباني، في القرن السادس عشر إلى الإدارة المركزية البابوية في روما تقريراً عن «الأثيوبيين» الذين كانوا عبيداً في أمريكة. كما ذكر الراهب الدومينيكاني جيورجيو جارثيا في كتابه «أوريجن دي لوس إنديوس إن التيوفو موندو» (مدريد 1607) عن «السود في أمريكة» قبل كولومبوس. الفصل 4.

30. جي - في غوته، فاوست الجزء الأول.

31. لودفيغ بارنغ: «اكتشاف الشعوب» باريويت 1969، ص 80.

32. سترابون (3).

33. تذكر الميثولوجيا اليونانية «الفياكيين» كبحّارة عظام.

34. هوميروس، الأوديسا 15 ـ 415.

35. إرفين ص 220.

36. ستتطرّق إلى «أرض الذهب» أوفير أو «بلونت» بتفصيل أكبر في الفصلين الخامس والثامن.

37. يعتبر الفينيقيون مكتشفي اللون القرمزي من مادة الحلزون - وكان اللون الأحمر والأزرق من الألوان المرغوبة والغالية في العصر القديم.

38. حزقيل 27، 1 ـ 25.

39. أطلقت تسمية «التوفيقيين» على الفينيقيين لأنهم يقتبسون من حضارات الشعوب الأخرى بدلاً من إطلاق العنان لإبداعهم الخاص. لكن لا بد من مراعاة ناحية هامة وهي أن الفينيقيين كانوا تجاراً ومن هنا توجب عليهم التعامل بطريقة حسنة مع شركائهم التجاريين قدر المستطاع. لذا وفّر لهم ذلك الانسجام مع الحضارات الأجنبية بسهولة أكبر. أما عبقريتهم فتجلّت بأساليبهم التجارية المبتكرة.

40. 1. كون 9، 10 ـ 14.

41. غالباً ما ترد التعابير «أوفير» و«بونت» و«أرض الذهب» في أدبيات العالم القديم، من دون أن يتحدد موقعها الجغرافي وانطلاقاً من الكنوز التي كان يأتي بها منها يمكن أن تكون هذه الصومال أو جنوب إفريقية أو أحياناً أمريكة. تذكر التوراة «أوفير» في كتاب «أيوب» في سفر الملوك في المزامير.

42. هيرودوت في (الكتاب 3 ـ 116) يكتب عن «بحر الشمال البعيد» في «أوروبة»... أن العقيق والزنك

كانا يجلبان من أقصى البلاد دون شك.

43. جيورجي كونتناو، «لاسيفيليزا فينيسيان» باريس 1949، ص 240.

44. دونالد هاردن. «ذي فينسيان» لندن 1962 ص 57.

45. إرفين ص 224.

46. فرنر كيللر. «عندما دُهش هيرودوت» زيوريخ 1972. ص 284.

47. زيجفريد شندلر، ص 70 وما بعدها.

48. كيللر، ص 274.

49. هيرودوت، 4، 42.

50. بلينيوس «هستوريانا تورالس» (2)، 169.

51. كونتيناو، ص 232.

52. سترابون (1) (3) (2).

53. أرسطو «دي ميرابيلس» فصل 26 «تيرا انكوجنتياي».

54. يكتب تومبسون أيضاً عن جزر كبيرة للغاية تقع في الغرب. قارن إرفين ص 220/ 222.

55. ديودوروس سيكولوس: «بيبليوتيكا هستوريكا» الكتاب (5) 19 ــ 20 كلاسيكال لايبراري مجلّد (3) ص 145، 151.

56. سترابون (3) 2: 13 ــ 14.

57. هوميروس الأشعار (15) و(16) قارن هاردن، ص 160.

58. هاردن ص 160.

59. إرفين ص 224.

60. إرفين ص 219.

61. غالباً ما يجري مطابقة «جزر سورلنجا» مع «جزر الزنك».

62. باول هرمان: «أروني توراة آدم» هامبورغ 1957 ص 53.

63. يشكل بحر ساراجوسا جزءاً من شمال المحيط الأطلسي إلى الجنوب من جزر برومودا.

64. أرماندو كوريتساو، «ذي ناوتيكال شارت أوف 1424» ص 35 و95.

65. لودفيغ بارينغ: «اكتشاف الشعوب» بايرويت ص 113.

66. كان هرقل، حسبما ذكره المؤرِّخون ملكاً صغيراً في القرن الرابع عشر ق.م، وكانت أعماله البطولية الاثنا عشر لها صلة بسيرته، إلاَّ أنها قوّمت بشكل رمزي.

67. جلجامش، بطل بابل، يسافر إلى البلاد غرباً حيث الأشجار من الأحجار اللازوردية والفواكه من العقيق الأحمر.

68. أرسطو: «تيرا انكوجنياتي» مقتبس من قبل إرفين ص 224.

69. جيس، 60 (9).

70. جيس 66، 19 ــ 20.

71. سلفادور دي مادارياجا ص 73 وما بعدها.

72. سيتطرق إلى العالم باولو ديل بوسو توسكانيللي، الذي أعدَّ خارطة بحرية حول الطريق البحري إلى الهند، في الفصل الثاني بتفصيل أكثر.

73. هـ. نويل: «الكليتون، بفافنهوفن» 1985 ص 9.

74. قارن الفصل عن «الكتابة واللغة».

75. يورغن هانسن «بناء السفن في العصر القديم» هرفورد، 1979.

76. بوليبوس (1) (2) 9 ـ 10.

77. بلينيوس «تاتورالس هستوريا» 16/ 29.

78. «آلة السدس» اخترعها نيوتن عام 1699، وتستخدم في الملاحة لقياس مسافة الزاوية بين نجمين أو بالأحرى لقياس ارتفاع النجوم.

79. جنومون (باليونانية خيط التوجيه) تعد جهازاً قديماً مستخدماً في الفلك، ويتألف من قائم يتم به حساب زاوية الظل، أي موقع الشمس وبالتالي تحديد الاتجاه.

80. ذي جيوجرافي أوف سترابو، (3): 5: (2) في كلاسيكال لايبراري، لندن 1923 مجلّد (2) ص 157.

81. إي ـ جي ـ آر تايلور: «ذي هافن فايندنغ آرت» لندن 1956، ص 135.

82. ألسينا فرانش، «خوزيه، لوس أوريجن دي أمريكة» مدريد 1985، ص 207.

83. بلينيوس إي يتحدث عن رحلة استكشافية إلى جزر الكناري عام 1334 من قبل الإفرنسيين. وعُثر على آثار الفينيقيين أو القرطاجيين في جزر الكناري على ساحل إفريقية الغربي. قارن، آر بوسورث «كارتاج أي لي كارتاجيان» لندن 1977 الفصل الأول.

84. تهب الرياح «العابرة» من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1977 الفصل الأول الغربية من ناحية الجنوب الغربي. ويصف ديودرووس سيكولوس (القرن الأول الميلادي) وقبله تيميوس (القرن الثالث ق.م.) بأن ماديرا اكتُشفت لأن سفينة انحرفت عن مسارها. قان هاردن ص 178.

85. سيلفانوس جرسولد مورلاي، «ذي اينشانت مايا» ستانفورد ينيفر سيتي برس 1947 ص 100.

86. انجشتادت ص 31 وص 87 ـ 90.

87. سايروس جوردون، «ريدلس إن هستوري» (ألغاز في التاريخ) 1974 ص 96 99. كان جوردون أستاذاً للغات القديمة في جامعة برانديس (الولايات المتحدة)، يعتبر خارطة فينلاند صحيحة من وجهة نظر تاريخ وتطور اللغة.

88. أبراهام أورتيليوس ولد عام 1527 في انتفرين ومات فيها. وكان عيَّنه فيليب الثاني «الجغرافي الملكي». تألّف عمله الرئيسي من 70 خارطة نشرت في عام 1570.

89. سينيكا، ميديا الفصل (2) المقطع الذي سجله كولومبوس في مذكراته. قارن ماداريايا ص 80.

90. كتب كولومبوس رسالة إلى ابنه يقول فيها: «أبحرت عام 1477 إلى تولي وهي تقع على 73» وليس 63 شمال الاعتدال الربيعي. وتعمل الأوقات على تغيير مستوى سطح البحر. قارن ماداريايا ص 81.

91. جرهارد براوزه، «لم يهزأ أحدٌ من كولومبوس» ميونيخ 1988، ص 63، 66.

92. ماداriاجا ص 77.

93. كارناك ص 22 وما بعدها.

94. إرفين ص 15.

95. فرناند كولومبوس «هستوري أوف ذي ديسكو فوري أوف أمريكا باي كريستوفر كولومبوس» (تاريخ اكتشاف أمريكة من قبل كريستوف كولومبوس) في «جنرال هستوري أند كولكشن أو فواياجز أند ترافل» (التاريخ العام ومجموعة الرحلات والسفر) من: روبرت كير، أدنبره 18، مجلد (3) ص 30.

96. الأسقف دييجو دي لاندا أقرّ بحرق كتب وأوراق المايا المقدّسة. وبعد ذلك بمدة بدأ بإعادة كتابة تاريخ المايا حسب الروايات الشفهية، ولم يبق إلاّ القليل من المخطوطات عن المايا، الموجودة الآن في باريس ومديد ودرسدن.

97. باول هرمان، «أروني توراة آدم» هامبورغ 1957، ص 76.

98. باول ريفت، «لي أوريجنز دي أوم أمريكان» (بدايات الإنسان الأمريكي) باريس 1957 ص 25 وما بعدها.

99. يمكن للمرء أن يفرّق ما بين ثلاثة أعراق رئيسية: مونغوليد ومن هذا العرق، عدا عن الهنود الحمر، الآسيويون، والعرقان الآخران هما الأوروبيد والنغريد. أما الأقزام و«الأستراليون» فلا ينتمون إلى أيٍّ من هذه الأعراق.

100. جي أريك تومبسون «ذي رايز أند فول أوف مايا سيفيلاتزيشن» (نهوض وسقوط حضارة المايا) لندن 1986، ص 29.

101. ريفت ص 25 وما بعدها.

102. النماذج الموروثة هي (BB, BO, AA, AO, OO) و(BA) وبما أن (A) و(B) ليستا مسيطرتين فلا يؤدي مثلاً الموروث (AA) وإنما (AO) إلى تشكيل الجين الناشىء (A). والمنتمون للزمرة الدموية (O) لديهم علاقة (O) موروثة من طرفي الوالدين.

103. تاريخ الكربون المشع (طريقة س 14) تعتمد على النظرية القائلة بأنه خلال 5730 سنة يتلاشى كلٌّ من نصف المادة الفحمية. يمكن إجراء هذا القياس على كل الكائنات الحية التي تحدد أعمارها.

104. عُرض في باريس جراند باليه (قصر باريس الكبير) معرض كبير عن الفن المكسيكي. ولم تكن أيٌّ من المعروضات أقدم من 1200 ق.م. ويتبين أن الفترة الزمنية التي يشار إليها غالباً ممتدة على طيف واسع من السنين 1200 ـ 600 (ق.م.).

105. هوميروس، الأوديسة (15) 415 ـ 416.

106. توجد قصة «تمرّد الأشياء على

الإنسان» في (بوبول فوه) من أمريكة الوسطى وكذلك أساطير وصور الهنود الحمر ـ الموشي في أمريكة الجنوبية. قارن جفري كويلتر «ذي موشي ريفولت أوف ذي أوبجيكتس» في لاتين أمريكان أنتيكويتي (1) 1990 ـ ص 42 ـ 65.

107. شيروود واشبورن «سوشال لايف أوف إيرلي مان» (الحياة الاجتماعية للرجل المبكر) شيكاغو، 1961 ص 23.

108. هانس بريم/يو. دايكر هوف «المكسيك القديمة» ميونيخ 1981، ص 12.

109. يفهم من تعبير العرض المستمر سلسلة من المشاهد، التي تتحدث فيها الصور عن حدث باستمرار، حيث يبقى الأشخاص في كل المشاهد أنفسهم.

110. قارن إرفين ص 62.

111. كان يوجد في حضارات وسط وجنوب أمريكة عدد من الآلهة المحليين وآلهة لقطاع الحياة والثقافة، أما الإله الأبيض فكان يحظى بمكانة مميزة بين هؤلاء الآلهة.

112. آماي ـ مجلد 14 و15 «جايد تو أنتو هستوريكال سورسز» (المرشد للمصادر التاريخية اللاتينية) 5 آر واشوب.

113. فولفانغ جوكل، «تاريخ إحدى حضارات المايا» ميتز 1988.

114. كوتتيناو 116.

115. ولد ألكسندر فون فوتيناو في ألمانية عام 1900 وعاش في المكسيك، حيث عمل أستاذاً لعلوم الآثار. وكان درس القانون في مدينة كيل وحصل على درجة الدكتوراة لينتقل بعدها إلى السلك الدبلوماسي. إلا أنه ترك عمله عام 1934 احتجاجاً على هتلر.

116. ارتأت هيلين بوش في المؤتمر الأمريكي الدولي الذي انعقد في المكسيك عام 1962 أن تاريخ «الرؤوس الألميكية» الأكثر قدماً يعود لحوالي 2300 عام ق .م. وهذا ما اقتبسه جي سكوت في «بفور كورتس» نيويورك 1970. ص 16.

117. فالتر ليهمان، هو الذي اشترى رأس تيراكوتا المذكور للمتحف الحكومي في برلين ـ دالم. وقارن طريقة إدخال الشعر الحقيقي في الثقوب التي يجري القيام بها في الجمجمة، مع الطريقة المستعملة في بنين. قارن فوتيناو ص 188.

118. من خلال حرق أو جرح الأدمغة ووضع مادة ملونة مكان الجروح يصبح المكان دائم العلامة. لم يكن ينظر إلى الوشم مجرد طريقة للزينة وإنما كان رمزاً للحماية من الشر، أو للإشارة إلى المركز الاجتماعي أو لتبيان الانتماء إلى القبيلة. وكلمة وشم مشتقة من الكلمة التاهيتية «تات آ او».

119. جاء ما بين حوالي عام 500 (ق .م.) والقرن الرابع (ق .م.) مهاجرون ساميون من جنوب الجزيرة العربية إلى منطقة أثيوبيا. وينحدر بيت الحاكم الأثيوبي من الملك سليمان والملكة بلقيس، ملكة سبأ. كما أن اللغة الأثيوبية من ضمن اللغات السامية. ويعتبر الأثيوبيون عرقاً خليطاً ما بين العرق «النغريد» والعناصر السامية.

120. قارن الفصل «الفن وفن العمارة» و«الزراعة والحياة اليومية».

121. كارتير، ديكاد، في الفصل الثاني يكتب عن اكتشافات دي فاسكو نونيه دي بيلباو في بناما والقبائل الأثيوبية التي تعيش هناك. فوتيناو ص 170.

122. فوتيناو ص 170.

123. هوميروس ـ الأوديسة (16) 262. تتحدث الأوديسة عن الفينيقيين وعن إقناعهم له، لكي يأتي إلى سفينتهم بحجة أن يأخذوه إلى الوطن، لكن في الحقيقة أرادوا شراءه عبداً.

124. كتب المؤرخ ابن فضل الله العمري في القرن الرابع عشر ميلادي عن سلطان مالي واسمه موسى: «تدفعنا الرغبة في أن نبرهن على عظمة عقلنا.. أمر معلمنا الكبير وقائدنا بتجهيز حوالي مائة سفينة.. كي تفي بحاجة الطواقم.. ثم أعطى أوامره لقادة السفن أن لا يعودوا قبل أن يصلوا إلى حدود المحيط العظيم. وانطلق الجميع بسفنهم.. لكن الجميع لم يرجعوا، ما عدا واحد» مقتبسة عن بي كارناك في «التاريخ يبدأ من بيميني» باريس 1985 ص 260.

125. آه شيمل/ف. أندرس «غموض الأعداء» كولون 1985 ص 261.

126. نفذ الرحلة الاستكشافية «أتلاتيس» ألفيردو باراجان وفريقه في عام 1984. استغرقت الرحلة من جزر الكناري إلى جزر الأنتيل 52 يوماً.

127. ل. فروبينوس «تعاليم آلهة الأطلسي» ينيا، 1924، ص 56.

128. قارن الفصل «الفن وفن العمارة».

129. بيلوس (يوناني) أو بيليوس (لاتيني) تعني غطاء الرأس الذي كان يستعمله الشعب الإغريقي والروماني. وكان يعتبر إشارة إلى الذين نالوا حريتهم. أما الطاقية فكانت ذات شكل دائري ومصنوعة من اللباد.

130. أبدى كل من الأساتذة أيريبس بورينج وفولفجانغ هابرلاند، وهوفيغ كنير وخوزيه ألسين فرانش رأيهم عن «رأس كالكستل هواكا» بطريقة عملية. ثم نشرت محاضرة الأستاذ هايني ـ غلدون في «أنتسايجر دير أوستـرايشيشن أكاديمي دير فيسنشافتن» (دليل أكاديمية العلوم النمساوية). هايين غلدرن. 1961 ـ 117 ـ 119.

131. شندلد ص 120.

132. أرسطو «دي ميرابيليس» الفصل

(26) «تيرا إنكو جنيتاي».

133. على الرغم من عدم إمكانية استخدام طريقة (الكربون س 14) إلاّ على الكائنات الحية، فلقد أمكن فحص تاريخ الرؤوس «الألميكية» عن طريق المواد العضوية المجتمعة عليها.

134. فوتيناو. ص 99 وما بعدها.

135. أعداء رمسيس الثالث المعروضون في تمثال «تانيس» هم: نوبي، عربي، وأسود، وفينيقي، ويهودي، قارن بي مونتيه «لي أنجيم دي تانيس» (تمثال تانيس) باريس 1952 ص 16.

136. يحمل الشكل الألميكي من لافنتا على صورة مرآة معدنية لامعة من فلذات الحديد، الموجودة في أمريكة وشمال إفريقية وكان يحمل أمثال هذه المرايا الأعيان من الألميك.

137. وجد الباحثون في أمريكة المئات من الجماجم المشوهة، ويمكن مشاهدة درجات مختلفة من التشويه عليها، وكانت مجموعة من علماء الأنتربولوجيا والأطباء في نهاية القرن التاسع عشر ومن بينهم غروسه (1867) وبوركا (1875) وتروبينارد (1879) وفيرشوف (1892) اهتمت بموضوع تشويه الجمجمة. قارن فالكن برغر «ريشرش أنتروبولوجيك سورلا دي فورماتسيون أرتيفتسيل دي كران» (أبحاث أنتروبولوجية حول تشويه الجمجمة الاصطناعي) باريس 1938 ص 66 وما بعدها.

138. أبوقراط (460 ـ 377 ق.م.) في: «حول الهواء والماء والتربة» مقتبسة من فالكن برغر ص 50.

139. إرفين ص 103.

140. ريفيت ص 179.

141. عثر على المومياء في شبه جزيرة باراكاس في البيرو، يعود تاريخها إلى القرون الأولى بعد الميلاد.

142. تزوج فيليب الرابع الهابسبورغي ابنة أخته ذات الخمسة عشر ربيعاً وكان من المفروض أن تتزوج ولي العهد الإسباني إلاّ أنه توفي قبل عقد القران، وبوفاته تنتهي سلالة الهابسبورغ الإسبانية لتندلع بعد ذلك الحرب على خلافة العرش الإسباني (1701 ـ 1713).

143. تتحدث الأساطير الأمريكية القديمة عن إله «أحول» يعتقد أنه نفسه الإله الأبيض من الشرق، ويعتقد أن محاولات أمهات المايا لجعل عيون أبنائهن تبقى حولاء دائماً إنما مردها التعبير عن تقديس وتبجيل هذا الإله «الأحول». وغالباً ما تعرض أشكال العبادة في البيرو وهي تظهر بؤبؤ العين غير مستو الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد بأن الحَوَلَ كان له أهمية خارقة.

144. ف. بالود «مقدمات في تاريخ الإله القزمي بيس في مصر» باريس 1912 ص 5 وما بعدها.

145. جي. فيلانت «أي بيردد مستري»

(أسرار غامضة) في ناتشورال هتوري (التاريخ الطبيعي) مجلد (31) نيويورك 1931 ص 243 وكذلك شرح كلمة «بيس» في دائرة المعارف الحقيقية عن تاريخ الديانة المصرية، برلين 1952.

146. جي بوردمان، المستعمرات وتجارة الإغريق، ميونيخ 1981 ص 88.

147. فوتيناو ص 33.

148. فيللانت ص 33 وما بعدها.

149. تعتبر ملحمة جلجامش من أهم الأعمال الأدبية عند البابليين، نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد وتدور حول ملك السومريين الأسطوري جلجامش. وفي الكتاب الخامس يقاتل جلجامش ورفيقه أنكيدو «هومبابا» وثور السمامر. قارن جي. فورلاني «ميني بابيلوني»، فرنتسي، 1958.

150. (1) الملوك 9، 10 ـ 14.

151. قناع هومبابا من سيبار موجود في المتحف البريطاني في لندن، رقم 116ـ 624 ـ قارن سميث «ذي فيس أوف هومبابا» (وجه هومبابا) في دوريات الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا ما قبل التاريخ المريد (11) ليفربول 1900 ص 107 ـ 114.

152. ا. جيرليان، أوريجيو دي أونتيبو دي جورجون، مجلد 17 ـ 118 روما 1960 ص 231 ـ 237.

153. علامة الجبين معروفة تقريباً في كل حضارات العالم القديم وفي التوراة يعطي الرب الأخ القاتل قابيل علامة على جبينه (ص 124 ـ 16)، وبسبب قتله أخاه يبعد عن البلاد وكان دائماً في خوف من أن يقع في قبضة من يمكن أن يقتله، وعليه حماه الرب بهذه العلامة على جبينه.

154. جي بوردمان ص 85.

155. يوجد نماذج الأقنعة أنواع من الحيوانات، وهي تقدم أحياناً بعلامة على الجبين وأحياناً أخرى بدونها. مثال على ذلك قناع ثور وعليه علامة على الجبين (من القرن السادس قبل الميلاد).

156. يذكر كلود ـ فرانسوا بودي وبيير بيكولين بتأكيد أن لزهرة البحيرة هنا ألوهيتها دون أن يكون ثمة تطابق مع فكرة حورس في العالم القديم. وشكل التراكوتا «الإله في الزهرة» معروض في متحف التاريخ الأمريكي الطبيعي، نيويورك ومتحف دومابرتون (بليس كولكشن) واشنطن.

157. سيتم التطرق إلى موضوع «زهرة اللوتس في حضارة المايا» في فصل «الفن وفن العمارة» قارن أي مودسلي بيولوجيا سنترالي ـ أمريكانا. لندن 1889 ـ 1902 ص 37. وكذلك آر. رويس «ذي اتنوبوتاني أوف أوليانس» 1931 وشبندن «دراسة فن المايا» كامبردج 1913 ص 18.

158. شاهدة حورس (القرن الرابع

ق .م) موجودة في برلين ـ دالم رقم 4434. ويظهر سيث المناوىء لحورس في شكل تمساح ينتصر عليه حورس المشهود له بالانتصار على الحيوانات المتوحشة، ويظهر رأس بيس فوق شكل حورس باتحاد بين بعضهما في شخص واحد.

159. هيرودوت (11) 69.

160. شترابون (16) 811.

161. أنالي دي موزي دي استوار ناتوريلا ـ باريس (10) 386.

162. كان بتاح الإله الذي يحمي ممفيس وكان يقدس في مصر باعتباره إله شاباً جميلاً، إلاّ أنه أصبح يقدم في مرحلة لاحقة إله عجوزاً قبيحاً ومشوهاً ويمكن مقارنة أنموذج الإله العجوز بتاح بالإله الأمريكي القديم.

163. دبليو ـ شرنفلد «ازدهار وانحطاط المكسيك القديمة» ماينس 1986 رقم (2).

164. هـ. بليشكي، كريستوف كولومبوس واكتشاف أمريكة، لايبزغ 1923.

165. ألفرد فيغنر (1880 ـ 1930) كان عالماً بالفيزياء الجيولوجية وبعلوم الأحوال الجوية، وهو الذي أطلق في عام 1912 نظرية انزياح القارات مدعماً إياها بدلائل جيولوجية وقارية، وحسب هذه النظرية تبتعد القارة الأمريكية من جهة وإفريقية وأوروبة من جهة ثانية حوالى 2 سم عن بعضها البعض سنوياً.

166. سؤال أبو الهول هو: ما هو الشيء الذي له صباحاً أربع أرجل وعند الظهيرة رجلان وفي المساء ثلاث أرجل، لم يقدر على الإجابة إلاّ «أوديب» إنه الأنسان لأنه يحبو على أربع عندما يكون رضيعاً، ويسير منتصب القامة حين يصبح إنساناً يافعاً وبعدها يسير مستخدماً «العصا» عندما يتقدم في السن.

167. تمتلك حنا بيرنس في المكسيك أكبر وأفضل مجموعة لفن الهنود الحمر المسيحي أي بعد غزو المكسيك من قبل الإسبان.

168. ديكيو ناريو أنترلنجويستكو ديل أنديوما مايا ـ يوكا تيكو كولونيال، كرستينا الفارس، مكسيك 1984 ص 306.

169. لا يوجد فرق بين كلمتي «باعول» و«بعل» من ناحية التطور التاريخي لهما.

170. تكرر تاريخ «دي أكتال» في التقويم الأمريكي القديم مرة كل 52 سنة، وهي الوحدة الزمنية الأعلى في حساب الوقت وتشكل عملياً «القرن» بمفهومنا.

171. تسولا تقع على بعد 70 كم شمال غرب مدينة المكسيك وتأسست كما يعتقد في منتصف القرن العاشر الميلادي، وهي مرتبطة بأساطير وطقوس التوليتكيين «كويتسالكوتل إلاهـهم الأبيض». ويظن أن التوليتكيين هاجروا في نفس الفترة

الزمنية إلى منطقة المايا في يوكاتان، حيث نشأت في ذلك الوقت مرحلة حضارية جديدة.

172. سي جي يونغ، مدخل إلى جوهر الأسطورة، زيوريخ 1951.

173. جاء الحواري بولس عام 57 بعد الميلاد إلى اليونان في رحلته من فلسطين عبر صور ووجد هناك كنيسة مسيحية، قارن اكتس (21) 3 ـ 6 مقتبس عن كونتيناو ص 69.

174. هاردن ص 85.

175. قارن الملحوظة 170.

176. يعتبر بروميتيوس أنموذجاً لبطل الحضارة، وهو الذي عرف البشرية على النار، لكنه حاول خداع الإله بأن هرب بالنار، فعاقبه الإله بأن حوله إلى جلمود من صخر يحط عليه نسر كل يوم وينتزع قطعة من كبده إلى أن جاء هرقل وخلصه من حالته. وتعني كلمة بروميتيوس «الاستشراقي» الذي يبصر في المستقبل ولهذا كانت هديته للبشرية مخططاً لها جيداً وأهلته لاحتلال الموقع الأول بين «أبطال الحضارات».

177. يرى ماهيوي هذه الصلبان الظاهرة على المواد الكلتية أنها ذات صلة مع جمعية المعبد ويعتقد أنها كانت تبحر بانتظام من أوروبة إلى أمريكة الجنوبية، لكي تشتري الفضة من هناك، وكانت تمتلك كميات كبيرة منها في أوروبة. قارن جي. دي ماهيو، مملكة الفايكنغ في تياهواناكو، تيبنغن 1981، ص 143 ـ 153.

178. بدأت حضارة المايا باستخدام تقويمها الزمني في القرن السادس (ق .م.) ـ قارن فصل «العبادة والكون».

179. كيللي دافيد «قصة فك رموز حضارة المايا» أنديانا 1962، في أنتروبولوجيكال لنغويستك (علوم اللغة الأنتروبولوجية) 1962، مجلد 4 رقم 8 ص 32 وما بعدها.

180. يوهان فولفانغ غوته، فاوست، الجزء الأول.

181. نشأ الخط الفينيقي حوالى 1200 ق .م. وتتألف الأبجدية من 29 حرفاً: ولا تكتب فيها الأحرف الصوتية. وأخذ اليونانيون الأبجدية وغيروا فيها بإضافة الأحرف الصوتية عليها. وأخذ اليونانيون الأبجدية وغيروا فيها بإضافة الأحرف الصوتية عليها.

182. ديكيوناريو أنتولينجويستكو ديل مايا «كريستيتا الفارس»، المكسيك 1984 ص 306.

183. يلفظ الحرف العربي س (ش).

184. تعتبر بشكل عام سنة 814 ق .م. السنة التي تأسست فيها مدينة قرطاجة.

185. مورلاي ص 195.

186. إرفين ص 101.

187. موسى ـ 3 ـ ص 15 ـ 7.

188. تضم لغة كول أو شو لهجات شتى. يتحدث بها في منطقة

حضارة المايا مثلاً: تسيلتال، ومايان (لغة اللاكانانلونيين الذين يعيشون اليوم في شياباس).

189. أحياناً يكتب الحرف (ش) كاف.

190. آ ـ سي ـ ام ليز برغ «الفلسفة المقارنة» مقارنة بين اللغات السامية والأمريكية، الايدون 193.

191. كورت شيلدمان، رئيس جمعية اللغويين الألمان، هستوريكال غرامر أوف سومريان (تاريخ القواعد السومرية) بون 1981.

192. يولويوس فورست: قاموس اللغة الكالدية عن التوراة، لايبزغ 1876.

193. براسير دي بوربورغ، لالانغ دي مايا (لغة المايا) 1872.

194. س. جوردون: ذي أوتنتيسيتي أوف ذي فينيسيان تكست فروم باراهوبا (صحة النص الفينيقي من باراهوبا) نيويورك 1968، أورينتاليا 1975 ـ 80.

195. سايروس جوردون، أستاذ اللُّغَويّات في جامعة نيويورك ـ ولانيهاردت ديلكات جامعة بون «الفينيقيون في أمريكة» بون 1969.

196. مقتبس عن جوردون وديلكات بون 1969.

197. «بي فل» أمريكة قبل الميلاد، نيويورك 1976 ص 109.

198. هيرودوت هستوري (4) 42.

199. (1) ملوك 9، 27 ـ 28.

200. (1) ملوك 10، 22.

201. يرناس، (1) 15 وما بعدها، جوردون، ص 88.

202. قارن جوردون «ريدلس إن هستوري».

203. حكم الأخمينيون بلاد فارس من 700 ـ 330 ق .م. هيرودوت ص 89.

204. مقتبس عن كونتيناو ص 58.

205. الأحاديث السيمانية (1) (6).

206. ريشتر 14 وما بعدها.

207. قارن جوردون ص 54 وما بعدها.

208. بريتشارد «اينشنت نير إيست تكستس» (نصوص الشرق الأدنى) برنستون 1955 ص 93.

209. جوردون ص 58.

210. جوردون ص 54.

211. أدمجت (آ) مع (ب ـ ش) كمساعدة للفظ، لأن الأحرف الصوتية لا تكتب في الفينيقية.

212. القابالا (مجموعة تلاشت في هذه الأيام).

213. جوردون ص 67.

214. جوردون ص36.

215. كان جوردون عالماً باللغات القديمة وألف كتاب «قواعد اللغة الأوغاريتية» الذي يعد مرجعاً في هذا المجال.

216. أعطى عدد من العلماء تقويمهم عن نقش ـ باريبا، ومنهم ريني، وشولتمان (من جامعة هاله).

217. اكتشف بيدرو الفارس كابرال (1468 ـ 1520) شاطىء البرازيل الشرقي في عام 1500، ليصبح ملكاً للتاج البرتغالي.

218. «بات كريك» حجر عليه نقوش،

اكتشف عام 1888 في شرق تينيسي من معهد سميثونيان في واشنطن، حيث توجد اليوم مجموعات من الآثار المعروضة في المعهد.

219. جوردون ص 146.

220. قارن فل «أمريكة قبل الميلاد».

221. كان إيريك راينهاردت يتقن عشر لغات أوروبية عدا لغة «الغواراني والكويشوا» في أمريكة الجنوبية. ولأبحاثه اللغوية مكانة خاصة. قارن فل ص 98.

222. فل ص 98.

223. يعتقد أن ثمة قرابة بين الكلتيين والبربر وأنهم هاجروا إلى إسبانية في العصر الحجري الحديث.

224. يطلق المرء على الخط الكلتي تسمية «الأغمية». وتعود أقدم التماثيل الموجود عليها الخط «الأغمي» في أوروبة إلى ما بين القرن 4 ـ 7 بعد الميلاد. واكتشف جلها في إيرلنده، بينما لم يكتشف إلاّ 60 منها خارجها.

225. هـ. نويل، الكلتيون، 1985، ص 235.

226. سيزار دي بيللو جاليكو، الكتاب (م).

227. يحدّد تاريخ العصر الكلتي حوالى القرن 6 ـ 7 (ق.م.) ففي ذلك الوقت أجبر تغير جذري في الطقس مجموعات من الشعوب إلى الهجرة للبحث عن أماكن أخرى للعيش. وأثبت الكلتيون عن قوّتهم، واستقروا في معظم أوروبة.

228. كوتون ماتر (1663 ـ 1728) أهم رجال الكنيسة المتعلّمين في نيو إنجلند.

229. فل ص 11.

230. فل ص 289.

231. يعالج دي. ديرنجر موضوع حل رموز نقش «بحّارة جاديث» في أوكميجال بيليكشنز أوف ذي ابجرانيك سوسيتي، المجلّد (2) 1968.

232. يوجد في البراغواي نهران «بارانا» و«باراغواي» يصلحان للملاحة ويصبان في الأطلسي.

233. جي دي ماهيو، ص 48.

234. يكتب الحرف الساكن س (ش).

235. بي فل ص 49.

236. اكتشف جلوريا فاري نقش «جفون» في السبعينات في أوكلاهوما جبال تركي بالقرب من تولنرا وكلمة «بانايا» تشابه كلمة بياض (أبيض) في العربية. قارن فل ص 49.

237. جان فرانسوا شامبليون (1790 ـ 1832) توصّل إلى حل رموز الهيروغليفية في مصر أثناء الحملة الفرنسية عليها وكان ذلك في عام 1799.

238. فل ص 161 (آجا) لقب سامي، ومنها الكلمة اليونانية «هاهامون» (القائد) قارن فريك «قاموس تاريخ الكلمات» المجلّد (1) 1960، ص 621.

239. شاهدة التقويم «من دافنبورت» تم اكتشافها عام 1874 وهي موجودة الآن في متحف دافنبورت/ أيوفا.

240. تعد الليبية من اللغات الحامية ـ السامية. وهي منقرضة الآن. استطاع فل في عام 1973 من حل رموز الخط الليبي.

241. فل ص 264.

242. فل ص 267.

243. يقيم المصريون احتفالات بعيد رأس السنة، حيث يلتف الناس حول حزم من البوص ويرقصون احتفاء «بأوزيريس».

244. أنجز بناء المغليت حسب تحوُّل الشمس والقمر، ففي «المستري هيل» لا تظهر الشمس إلاّ مرة واحدة من خلال الشق الصيفي للباب على المذبح، الوقت الذي يحتفل فيه بانقلاب الشمس ـ الصيفي.

245. فل ص 269.

246. فل ص 91.

247. كان يعتقد أن الغرف الحجرية في ساوث ـ رويال لتون، بناها المهاجرون الأوروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى أن اكتشف مايوري شاندلر في عام 1975 النقوش القديمة عليها.

248. قارن غوته: أليست العين مضيئة «الشمس لا تقدر على النظر إليها أبداً، أليست قوة الخالق موجودة فينا، لكي تستطيع القوة الإلهية أن تأخذ بألبابنا». المجلّد (1) ميونيخ 1978.

249. فل ص 143 ـ 145.

250. هذا ما صرَّح به شيلدمان إلى المؤلفة.

251. فل ص 122.

252. حوّرت الكلمة اليونانية فوينيقو إلى فينيقي ـ وتعني رجال الأرجوان.

253. تحكّمت تاريتسوس على الساحل الإسباني الجنوبي بمناطق شاسعة في العصر القديم. وكانت واقعة تحت سيطرة صور الفينيقية حوالى 800 ـ 700 ق.م. وتميَّزت بأهميتها التجارية.

254. فل ص 99.

255. قارن أنم ـ 240.

256. عثر على اللوحة النقشية عام 1888 في «الونج آيسلاند»، وهي معروضة الآن في متحف الهنود الحمر الأمريكيين، نيويورك. فل ص 180.

257. فل ص 255 وما بعدها.

258. يقابل كلمة «ايساج» في الغالية «أمو» في الكلتية وتعني «نهر».

259. م. ستيغنسون «الهنود الحمر في تسوني» انيوال ريبورت أوف أمريكان انتولوجي، رقم 23، واشنطن 1904.

260. فل ص 184.

261. فل ص 184 (أتيمون ـ هي آ ـ يهو) الكائن الكبير وتعني الفيل. يقول شيلدمان: كانت الطبقة العليا في المجمع تعطي السطحي الظاهري معنى أسطورياً. والسماء لها معنى إيتمولوجي هو «فيل». ويمكن قراءة النص الموجود على اللوحة الحجرية: «لقد جعلت السماء الأرض تحبل من جراء

الدفقات الرعدية». ومن الواضح أن المعنى يشير إلى الديانة التي تعد فيها السماء الأب والأرض الأم.

262. يتحدث المؤرِّخ الروماني ديو دورروس سيكولوس عن 2000 عربة قتال يجر كلاً منها حصانان، وكانت تشكِّل العربات القوة الضاربة في الزمن القديم إلى أن جرى زج الفيل سلاحاً في المعركة. ديو يورروس سيكولوس (16) 67.

263. هاردن ص 128.

264. كان الفيل مهمّاً بسبب العاج الذي كان يصدِّره الفينيقيون حتى إلى الهند. وعندما انقرضت الفيلة في سورية كان يؤتى بها من قرطاجة إلى سورية. قارن هاردن، ص 156.

265. فل ص 171 ـ 173.

266. فل ص 173.

267. كانت تجمع العجلة الشمسية في ودمنغ/ الولايات المتحدة الأمريكية أحياناً من حجارة ضخمة. ويشير كارناك إلى الثماني والعشرين برمفاً في العجلة إلى أنها تمثِّل الثماني والعشرين منزلة من منازل القمر. قارن كارناك ص 127.

268. يحدِّد هربرت شبندن السنة (صفر) عند المايا بـ 3373 (ق.م.) بينما حسبها جي جودمان بالسنة 3113 (ق.م.).

269. هـ. شنيدن «ذي ريدكشن أومايان دنيس في بيبرس أوف ذي بيردي ميوزيوم أوف أمريكان اركيولوجي» جامعة هارفارد المجلَّد (6) رقم (4) 1924 ص 157.

270. مورلاي ص 55.

271. تومبسون ص 176.

272. قارن مقدمة «معذرة يا كولومبوس» ص 17.

273. جي في «انترديكشن تو أمريكان اركولوجي» مجلَّد (1) صفحة 299.

274. ك. شيلدمان يفسر على أن «العين في الكف» على أنها رسالة تاريخية قديمة عن التقويم.

275. شيلدمان، المصدر السابق.

276. أقدم تاريخ عن نجمة داوود جاء في القرن السابع قبل الميلاد.

277. قارن فصل «الفن وفن العمارة».

278. الإله كويتسالكوتل يعتبر نجمة الصبح كتشخيص للزهرة، قارن إرفين ص 39.

279. شاهدة سانتا لوسيا موجودة في متحف التقاليد الشعبية في برلين.

280. تومبسون ص 179.

281. أي ـ بوكلن «العدد (13) ومضمونه الأسطوري» كولن 1984 ص 225.

282. ف ـ بي اندرس/أي. سيمل «أسرار الأرقام» كولن 1984 ص 225.

283. ريفت ص 62 ـ تختلف الروايات الأسطورية في هذه النقطة أشد الاختلاف. فما بين مرة إلى خمس مرات دمَّر العالم طوفان نوح. قارن تومبسون ص 62.

284. تومبسون ص 277.

285. كان الأسقف نوني دي لافيجا أحد

رجالات الدين الكاثوليكي الذين قاموا بتقريم القصص التابعة للهنود الحمر، لكن بعد أن جرفت موروثاتهم الكتابية. قارن إرفين ص 97، 100.

286. يمكن ترجمة أسماء الآلهة بـ : «الحية المريشة».

287. تومبسون ص 96.

288. تومبسون ص 286.

289. شيتبتنمان هيجيا ـ كولونج اركيولوجي في التاريخ الطبيعي، مجلد (17)، رقم (3) نيويورك 1958، وهو يرى أن حجارة القطر لها صلة بعبادة الهلوسة. وهنا تختلف آراء العلماء حول تعريف «حجارة القطر» كرمز للقضيب. علماً أنه يمكن إرجاع التشابه بين شكل القطر والقضيب إلى الصدفة، قارن كارل هربرت ماير، (أحجار القطر في وسط أمريكة) في أرشيف تقاليد الشعوب، فيينا، 1975، ص 37، 73..

290. جون اليرجو «القطر المقدّس والصليب» لندن 1873.

291. إرفين ص 270.

292. فل ص 17.

293. ملوك، 17 ـ 6 قارن فيل، ص 17.

294. يجري المورمون بحوثاً عميقة في هذا المجال. وأحد الآراء التي طرحوها تقول إن فرعاً من الساميين هاجر عن طريق إفريقية إلى أمريكة.

295. دي ـ هاردن «الفينيقيون» لندن 1962، ص 193 و201.

296. هـ. بريم/بودايكر هوف المكسيك القديمة، ميونيخ 1986 ص 132.

297. سيور العبادة توضع على الذراع، كما يعتقد اليهود، وعليها علب صغيرة تحتوي على نصوص من التوراة.

298. م. لور «قرابين البخور في التوراة» لايبزغ 1927.

299 ـ إرفين ص 18.

300. قدمت هيلجه انجشتادت الدليل في عام 1969 على أن الفايكنغ وصلوا إلى شاطىء أمريكة الشمالية حوالى 1000 (بعد الميلاد). قارن «وستورد تو فينلاند» (غرباً إلى فينلاند) لندن 1969.

301. تعبر نهضة حضارة المايا عن نفسها في مجال أسلوب «بوك»، عندما بنى المعابد لـ : «تشيشن اتسا». ومما يثير الشك مشاركة التولتكيين في نهضة حضارة المايا هذه.

302. إرفين ص 40.

303. هيرودوت (2) 85 ـ 89.

304. اكتشف في شبه جزيرة باراكاس في البيرو في الأعوام 1923، 1929 منطقة فيها مئات من المومياوات يعود تاريخها ما بين 900 ـ 200 (ق.م.) قارن إرفين ص 290.

305. ديودوروس شسيكلولوس «مقتبسة من كيللر عندها اندهش هيرودوت» زيوريخ 1972 ص 322.

306. ما زال علماء الآثار والمؤرخون يكبُّون على دراسة قبر الحاكم الذي

عثر عليه في سيبان (البيرو) وذلك في متحف التاريخ المركزي القديم في ماينز.

307. قارن تومبسون ص 21 ـ 106 و253.

308 ـ تضم مجموعة هانس بيهرنز (مدينة المكسيك) كمية من الصور المسيحية رسمها الهنود الحمر حسب نماذج إسبانية أو طبقاً لإرشادات شفهية. ويبدو عنصر التغريب جلياً في هذه الصور، التي تتسم بخصوصيتها.

309. كونيناو، «لاسيفيليزا تسيون فينيسيان» الحضارة الفينيقية باريس 1949، ص 119.

310. كانت تعتبر زهرة اللوتس أيضاً رمزاً للنيل، وعلى نفس المنوال تعتبر عند الهنود الحمر دلالة على الاستمرار. وما زالت الزهرة لحد الآن في المعتقد الثيو ـ صوفي رمزاً دينياً.

311. آر ـ راندس «ذي ووتر ليلي أن مايا آرت» (زهرة المياه في فن المايا» سيميثونيان انستيتوت بوينس آيريس) ص 79. 157.

312. راندس ص 80.

313 ـ آ ـ موادسلي بيولوجيا سنترال (أمريكانا) المجلّد (4) لندن 1889. 1902 ص 33.

314. آر ـ رويس «إي انتو بوتاني أون ذي مايا» (انتوغرافيا النباتات في حضارة المايا) نيو أورليانس 1931. وكونراد «ذي ووتر ليليز» واشنطن 1805.

315. آر ـ هانيه ـ جلدن/ إيكهويم. «متوازيات هامة في الفن الرمزي في آسية وسط أمريكة» بروتوكول المؤتمر التاسع والعشرين لعلماء الأمريكيات. شيكاغو 1951.

316. أي ـ تمويسون «كتابة المايا الهيروغليفية» معهد كارينجي، واشنطن 1950. رقم 598.

317. اعتبر الحثيون، إلى جانب البابليين والمصريين أهم قوة في الألف الثانية (ق.م.). وبالتزامن مع سقوط القوة الحثية نشأت المدن الفينيقية مباشرة بجوار الحثيين. وكان الخزف الكنعاني يزين في «رقبة الوعاء» بالحبال في القرون التي سبقت الميلاد. قارن كونتيناو ص 168.

318. قارن الفصل الخامس «العبادة والكون».

319. بريم ص 150.

320. فل ص 167.

321. آرفين ص 166.

322. كان الكهنة الحثيون يضعون على رؤوسهم قبعات طويلة، مثالاً على ذلك تمثال المشرفة بالقرب من حمص. من الألف الثانية ق.م ـ اللوفر باريس.

323. جي لاودي، (لي آرت دي أفريك نوار) فنون إفريقية السوداء.

324. خوزيه أسنيا فرنش «لوس أووريجينس دي أمريكا» (أصول أمريكة) مدريد 1985، ص 224.

325. يانوس هو الإله الروماني للمدخل

المكاني والزماني، مجسَّد من خلال وجهيه، ليرى في كل الاتجاهات.

326. جي فيللي. مدخل للآثار الأمريكية المجلَّد (2) ـ جامعة هارفارد. 1971 ص (1).

327. بريم ص 65.

328. آرفين ص 283.

329. تومبسون ص 50.

330. كي ـ أي «تيو تيكوا كان» نيويورك 1973 ص 41.

331. ميسغويل موفارو بياس. أهم علماء الآثار في المكسيك. يرى أن مهد الحضارة المكسيكية لا تقع على خليج المكسيك (الأطلسي) بل على ساحل الباسيفيك. ولذا يعتقد بوجود تأثير من الخارج جاء به الآسيويون.

332. ظاهرة استمرار الإرث الثقافي في الخارج مثبوتة لدى المهاجرين، الذين يحافظون على تقاليدهم وعاداتهم في الغربة أكثر من تمسكهم في مواطنهم الأصلية. فمثلاً ما زالت كلمة «هيللر» عملة ألمانية تستخدم في تانزانيا (كانت سابقاً مستعمرة ألمانية). بينما لم يعد للكلمة وجود في ألمانية.

333. نشأت هذه الحضارة في الألف الثالثة في جزيرة كريت وانتهت عام 1150 (ق.م.).

تبلغ ارتفاعات أهرامات تيو تخواكان 65م و42 م و 20,5م.

33. تومبكينس «معهد الشمس» ـ بون وميونيخ 1977.

336. القبر الموجود في معبد النقوش في بالينك.

337. إرفين ص 269 ـ 270.

338. تومبسون ص 74.

339. فرانسوا دي أفيلا ـ «رواية الأخطاء، آلهة تقليد، وطقوس خرافية» في نارتيف أوف ذي رئيس أند لوز أوف ذي إنكاس «رواية التقاليد وقانون الانكا» لندن 1873.

340. هربرت ويليم، عالم وبيئة المايا، ميونيخ 1981، ص 200.

341. تومبسون، ص 255، لا يوجد الأرز في أمريكة، إلاَّ أنه عثر عليه في المكسيك. وفي تقويم دريسدنسر لا يشار إلى الشجرة بل إلى الخشب، الذي من المحتمل أن يكون استورد إلى المكسيك.

342. ويليم ص 116.

343. هـ. بوك ـ ڤايكنغ ـ شروق الشمس ـ نيويورك 1938.

344. جي بي ـ هتشنون ـ تطور «الكوسيبوم» وتفريق القطن المزروع. لندن 1947.

345. ڤارن هتشنون ص 75.

346. جي ـ أف ـ كارتر: دلائل زراعته عن الاتصالات المبكرة مع أمريكة في ساوثوسترن جورنال أوف أنترويولوجي. مجلَّد (6) رقم (2) سومر 1950 ص 179.

347. تومبسون ص 211.

348. إرفين ص 298.

349. تومبسون ص 211.

350. نورلاي ص 202.

351. ملوك، 9، 26، 28.
352. كارناك، ص 214.
353. إرفين ص 256.
354. تقتبس الشروحات عن المعادن من إرفين، ص 250.
355. ما يزال يؤمل معارف جديدة في بحث التفضيض الأمريكي القديم من القبر المكتشف في سيبان/ البيرو ـ قارن «قبر الأمير في سيبان، اكتشاف وترميم» ماينس 1988 ص 30.
356. هرمان ص 209.
357. قارن الشروحات عن الآلهة الأقزام في العصر القديم «بيس، وبتاح باتيكو» في الفصل الخاص عن «آلهة وأبطال».
358. قارن الصورة 191 و192.
359. قارن الفصل «فسيولوجيا وفسيوغنوميا» ص 31.
360. هيرونيموس بوش رسم قبعات مشابهة ولها حواف مقلوبة للأعلى، مدريد فصل (3) ص 34.
361. هـ ـ كلافدين «رجال من آسية» نيويورك 1945، ص 250.
362. كان مسند الرأس هاماً في مصر وهو جزء من تجهيز وإعداد القبر وكان ثمة مسند لرأس توت عانخ آمون في لفافة مومياءه.
363. كان لدى الكلتيين عربات نقل خشبية كبيرة، لم يتبق منها الآن إلا إطارات العجلات بينما تآكل خشبها.
364. عربة فوتين في شكل حيوان موجودة في شتى بلدان المتوسط مثلاً، لدى الأتروسكيين، الذين كانوا يعدُّون أوعيتهم على هيئة حيوانات. قارن بيانشي رانديللي/ آجيوليانو «الاتروسكيون والأنياليكر قبل الحكم الروماني» ص 32.
365. هوميروس، الأوديسا، (16) الشعر 415 ـ 416.

بيبليوغرافيا

فهرس المراجع

آكو رجال ـ إي: الحثيون، ميونخ 1961.

البرايت دبليو. ف: آثار فلسطين، هارمورنس ورث 1949.

ألسينا فرانش خوزي: العلاقات بين جزر الكناري وأمريكة في العصر ما قبل الكولوبي 1971.

ألسينا فرانش خوزي: فن أمريكة القديم (أحقاب الفن العالمي) فرايبورغ 1978.

ألسينا فرانش خوزي: لوس ويجنيس دي أمريكا، مدريد.

أليجرو جون ق.: الفطر المقدَّس والصليب، لندن 1973.

ألفارس كريستينا: إديوما مايا، يوكاتيكو كولونيال المكسيك 1984.

أفيلا فرانسيسكودي: رواية الأخطاء «آلهة مقلدون» لندن 1873.

بير فرنس: اليهود في إسبانية المسيحية، برلين 1936.

باللود، ف: مقدمة عن تاريخ الإله القزم بيس في مصر، باريس 1912.

بارينغ لودفيغ: اكتشاف الشعوب، بايرويت 1969.

باوديس كلود فرانسوا: المايا، ميونيخ 1985.

بلتران ـ آر ـ إي روسبيد: كريستوبال كولون: كريستوفيرو كولومبو مدريد 1924.

بيندكت روث: نماذج من الحضارة، بوسطن 1934.

بيراود في: لي فينيسيان، ت لي بويم هومير «الفينيقيون في شعر هوميروس» لارو 1902.

برتيلو. آ: الصحراء الإفريقية والسودانية كما عرفها الأقدمون، باريس 1927.

برتيلوت. س: الفكر الآسيوي والفلك، باريس 1938.

بيانكي راندنيللي: الأترسكيون والأتياليكيون قبل الحكم الروماني.

بلوم فرانس: غزو يوكاتان، بوسطن 1936.

بووردمان جون: مستعمرات الإغريق، ميونيخ 1981.

بوكلين أرنست: الرقم المشؤوم (13) ومعناه الأسطوري، لايزغ 1913.

بولاند سي. أم: كلهم اكتشفوا أمريكة، نيويورك 1961.

بول فرانس: علوم النجوم في العصر القديم، لايزغ 1950.

بوش جيمبيرا: قضايا تاريخ الاستيطان الفينيقي في إسبانية 1928.

بوسرت هـ. ت: سورية القديمة، توبنغن 1951.

بوسورث آر: قرطاجة والقرطاجيون، لندن 1977.

بويد، دبليو، سي: الزُمر الدموية في تابول، مجلد (18) نيويورك 1939.

بوك بيتر: فايكنغ ـ شروق الشمس ـ نيويورك 1983.

بون بوري ـ أي ـ هـ: تاريخ الجغرافيا القديمة بين الإغريق والرومان، لندن 1879.

برغر كلاوس: كريستوف كولومبوس، لايبزغ 1981.

كابيلو، ميغويل دي بالباو: ميسيلينيا آنت آركتيكا، الجزء (3) الفصل (17) ص 510 ـ 516.

كارناك بيير: التاريخ يبدأ في بيميني، باريس 1973.

كارتر جورج. اف: براهين النبات عن الاتصالات المبكرة مع أمريكة 1950.

كاساس بارتوليم: هستوريا دالا أندياس، مدريد 1875.

كازينوف جومُ: لاميتولوجي آترافيرلي موند «ميثولوجيا عبادة القمر»، باريس 1966.

كاسو ألفونسو: ديانة الأستيك، المكسيك 1937.

شانتر ـ جي: ملاحظات أنتروبولوجية، ليون 1894.

سنتاس بي: كيراميك بونيك (الخزف البوني)، باريس 1950.

كولندر بير: تاريخ الملاحة البحرية، نيويورك 1955.

كولومبوس فرديناند: تاريخ اكتشاف أمريكة من قبل كولومبوس أدنبره 1811.

كنراد هنري: زنابق الماء عند المايا، واشنطن 1905.

كوَنتينا وجورج: الحضارة الفينيقية، باريس 149ز.

كورتسا وآماندو: الخريطة الملاحية لعام 1424، كويمبرا البرتغال 1954ز.

كوفاروبيباس ميتويل: الفن الهندي الأحمر في المكسيك ووسط أمريكة، نيويورك 1957ز.

كولاي، اي: الحثيون، لندن 1926.

كوردي. آ: بقايا الهياكل العظمية البشرية في أعالي البيرو 1923.

دافيد موريس: من كان كولومبوس، نيويورك 1933.

ديليكات لاينهاردت: الفينيقيون في أمريكة، بون 1696.

ديو دوروس سيكولوس: بيبليوتيكا هستوريكا، كامبردج 1939ز.

ديسلهوف هانس ديتريش: تاريخ الحضارات الأمريكية القديمة، ميونيخ 1953.

ديكسون رولاند: تاريخ العرق البشري، نيويورك 1923.

دوساود. آر: الأضحية عند الفينيقيين، لبرو 1914.

دوساود. آر: نشوء الأبجدية، سورية 1948.

أيسبي سكوت: قبل كولومبوس، نيويورك 1970.

ايجبريشت آرن: ازدهار وغروب

المكسيك القديمة، مانيس 1986.
آيس فيلد: الفوضى في الفلك التوراتي والفينيقي، لايبزغ 1930.
ايكهوام، جوردون: الألعاب ذات العجلات في المكسيك، 1946.
إندرس فرانس/ أنه ماري شميل: غموض الأرقام، كولونيا 1985.
أرمان آدولف: تاريخ المصريين القدماء، لندن 1927.
استرادا، ايميليو: أركيولوجيا دي مانابي سنترال، جيواويل 1962.
غالب رودولف: بلاد الأنكا، فيسبادن 1989.
فالكن برغر، فريدريك: ريشير أنتربولوجيك سور لي دي فورماتسيون أرتيفيشل دي كران (أبحاث أنتروبولوجية عن التشويه الاصطناعي للجمجمة). باريس 1938.
فيل باري: أمريكة قبل الميلاد، نيويورك 1976.
فروبينيوس ليو: صوت إفريقية، لندن 1913.
فروبينيوس ليو: الديانة الأطلسية، يينا 1924.
فورمان إرنست: مملكة الإنكا، هاجن 1922.
جيتس ويليام: تعليق عن تقويم المايا تستتال بيرتسي. كامبردج 1910.
جيرارد رافائيل: المايا الخالدون، زيوريخ 1969.
جوليانو أنطونيو: لي أوريجينو دي آون تيبو دي غروغون، روما 1960.
جوكل فولفانغ: تاريخ مملكة من المايا، مانيس 1988.
جوته ألكسندر: رقص الموتى، ستراسبورغ 1898.
جوردون سايروس: صحة النص الفينيقي من باراهيا، 1968.
جوردون سايروس: قبل كولومبوس، نيويورك 1971.
جوردون سايروس: ألغاز في التاريخ، نيويورك 1974.
هافن فيكتور: مجال الإنكا، نيويورك 1957.
هابغود شارل: خرائط بحر الملوك القدماء، فيلادلفيا 1966.
هانتس بورغن: بناء السفن في القديم، هرفورد 1979.
خاردن دونالد: فينيقيو الشاطىء الغربي لإفريقية، في انتيكويتي 1948.
هرلستون هوغ: تحليل رياضي عن تيو تيخواكان، المكسيك 1974.
هاينه غلدرن: التأثيرات الثقافية ما وراء الأطلسي في أمريكة القديمة، مجلة الأتنولوجيا، 93.
هينه غلدرن: متوازيات هامة في الفنون الرمزية في جنوب آسية ووسط أمريكة، شيكاغو 1951.
هينش ريتشارد: كولومبوس وإنجازه «دراسة نقدية عن تاريخ الرحلات الأولى» لعام 1492، بريمن 1940.
هينش ريتشارد: تيري انكو جينتياي، مجلد (4)، لايدن 1944.
هيرودت: تاريخ هيرودوت، لندن 1889.
هيرمان باول: أروني توراة آدم، هامبورغ 1957.
هايردال ثور: الهنود الأمريكيون في المحيط الهادي 1952.

هـايـردال ثـور: كـون ـ تـيـكـي، عـبـر الهادىء، شيكاغو 1958.
هونوري بيير: عثرت على الإله الأبيض، فرانكفورت 1961.
هوك اس. هـ: أصول العادات السامية المبكرة، لندن 1938.
هوتون إرنست: الابتعاد عن المقلد، نيويورك 1946.
هومل كونراد: ما زالنا نعيش، فرايبورغ 1986.
هوتشنون، جي بي: تطور الفوسيبوم واختلاف الأقطان المزروعة. لندن 1947.
انفشتات هيلجه: غرباً صوب فنلاند، لندن 1969.
إرفين كونستانز: الآلهة العادلون ووجه الحجر، نيويورك 1963.
إيفانوف سبير: مايا، شواهد حضارية عظيمة، ميلاند 1971.
يـونـغ جـي سـي: مـدخـل إلـى جـوهـر الأسطورة، زيوريخ 1951.
كاوفمان دويع: مانيوال أكيولوجيا دي بروانا، ليما 1969.
كاوفمان سي. م: أمريكة والمسيحية الأولى، ميونيخ 1924.
كيللر فرتر: عندما اندهش هيرودوت زيوريخ 1972.
كيللي هومتسون: كشف رموز الخط في حضارة المايا، لايبزيغ 1977.
كتاب مارتن: دراسات تاريخية ـ فلكية لفهم الرموز القديمة واستخدامها، بازل 1934.
كوستر: الرحلات البحرية والتجارة في شرق المتوسط في الألف الثالثة والثانية (ق. م) لايبزغ 1924.
كوبلر جي: الفن والعمارة في أمريكة القديمة، لندن 1962.
لاو دي جان: فن إفريقية السوداء، باريس 1966.
ليسبرغ أرنولد: علوم اللغة المقارن. دراسة مقارنة بين اللغات السامية والأمريكية، لايدن 1903.
ليتل جي آ: الملاح، دبلن 1947.
لور، م: أضاحي البخور في التوراة، لايبزغ 1927.
لوليس سيزار: الرجل المبكر في العالم الجديد، نيويورك 1950.
ماكوان كينيث: الرجل المبكر في العالم الجديد، نيويورك 1950.
مـادا ريـاجـا سـلـفـادور: كـريـسـتـوفـر كولومبوس، لندن 1948!.
مـاهـيـو جـاك: مـمـلـكـة الـفـايـكـنـغ فـي نياهواناكو، توبنغن 1981.
مارني صموئيل: مانوس سيمبولكاس، مكسيكو 1971.
ماسون جي: الحضارات القديمة للبيرو، هارموندس ورث 1957.
ماودسلي الفرد: بيولوجيا سنترال ـ أمريكانا، لندن 1889 ـ 1901.
ماوني آر: لا نافيجاتسيون سرو لي كوت دي ساهارا بندانلدت لا أنتيكا.
مينيز فيليب: حضارة للأنديز القديمة، نيويورك 1931.
منديثيز رامون: لنجوا دي كريستورال كولون، بونس ايرس 1942.
ماير كارل: تيو تيخواكان، نيويورك 1973.

متللر ماكس. : المكسيك، زيوريخ 1979.

مونتي بيير: لي نجيم دي تانيس، باريس 1952.

مولاري كريسولد: حضارة المايا القديمة، ستانفور 1946.

موريسون صموئيل: اكتشاف الأوروبي لأمريكة، كامبردج 1971.

نافاريت مترتين: كولكسيون دي لوي فياجاس. . . مدريد 1825.

نيج سي: دراسة عن زمر الدم بين البلونيز، واشنطن 1830.

نويل هرمان: الكلتيون، 1885.

نون جورج: الخطط الجغرافية عند كولومبوس، نيويورك 1924.

بيكارد جي: لي موند دي كارتاجو، باريس 1956.

بلينيوس: هستوريا ناتوراليس، لايبزغ 1923.

بريم هانز: تاريخ أمريكا القديم، ميونيخ 1986.

بريتشارد جيمس: نصوص الشرق الأدنى القديم، برنستون 1955.

بروسكور ياكوف: دراسة كلاسيكية عن تماثيل المايا، واشنطن 1950.

كوسليتر جفري: ثورة الموش عن الأشياء، أنتكويتي 1990.

كويرينغ هاينريش: الرقم (7) المقدس واكتشاف المشتري، برلين 1958.

راندز روبرت: زنبق الماء لدى المايا ـ مجلة الأتنولوجيا 1955.

راولسون جورج: قصة الفينيقيين.

ريستوس أدريان: كتاب المايا القديم، نورمان 1950.

ريفت باول: سيتي مايا، باريس 1954.

ريفت باول: لي أوريجنز دي لا أوم أمريكان، باريس 1957.

رويس رالف: كتاب شيلام بالام، واشنطن، 1965.

رويس رالف: اتنو ـ البنات عند المايا، نيو أورليانز 1931.

سابلوف جيرمي: الحفريات الجديدة وحضارة المايا القديمة، نيويورك، 1990.

ساجاهانو برناردينو: هستوريا جنرال دي لاس كوزاس دي نوفا إسبانا، المكسيك 1829.

شيلدمان كورت: القواعد التاريخية لسومر، برن 1981.

شيلدمان كورت: قضية اكتشاف أمريكة قبل كرلومبوس، نريبرغ 1983.

شونفلد فندي: ازدهار وزوال المكسيك القديمة، ماينس 1986.

شفيدتسكي اليزه: أسس منهجية الأعراق، مانهايم 1974.

سيرس ل: لي كاسيتيريدي أمبيري كولونيا دي فينيسيان 1910.

سوستيل ماك: الألميك، باريس 1979.

سبنسر ليفس: آلهة المكسيك، نيويورك 1923.

شبندن هربرت: دراسة عن الفن لدى المايا، كامبردج 1913.

شبندن هربرت: تصغير الأيام في المايا، كامبردج 1924.

ستيفنسون فالهالمور: «أولتيما ترلو» لندن 1924.

ستيفانس جي: حوادث الرحلة إلى يوكاتان، نيويورك 1843.

ستيرلغ ماتيو: وجوه الحجر الكبير في الغابة المكسيكية: المجلة الجغرافية أيلول/ سبتمبر 78 ـ 1940.

ستيوارت جوليان: نظرية الحضارة، شيكاغو 1941.

شترابو: جغرافيا سترابو، نيويورك 1923.

تيرمر فرانس: عبر القارات البكر ومستنقعات أواسط أمريكة، التقرير الخامس من هرنان كورتيس إلى العقيد كارل الخامس.

تومبسون جون: كتابة المايا الهيروغليفية، واشنطن 1950.

تومبسون جون: ارتقاء وسقوط حضارة المايا، أوكلاهوما 1954.

تومبكنز بيتر: مهد الشمس، برن / وميونيخ 1977.

توركيمويميدا جوان: سيكوندا بارت دي لوس فينت. . . مدريد 1723.

توري ش: مدينة الأموات في صيدا، نيو هافن 1920.

توستر أي. ام: لانداس ريلاتسيون. . . كامبردج 1941.

توستر أي. ام: قواعد المايا، نيويورك 1977.

أوللاو لويس: كريستوفر كولومبوس كاتالاني؟ باريس 1927.

أونجناد. ي: أصل وانتقال أسماء النجوم، برسلاو 1923.

فاليانت جورج: «الغموض الملتحي» ناتشورال هستوري 1931 مجلد 31.

فاندنرغ فيليب: رمسيس العظيم، ميونيخ.

فيراي موريس: الفن الحثي، لندن 1955.

فاجز هرمان: إعادة نشر خريطة توسانيللي، كوتنجن 1894.

فاشبورن شيبروود: حياة الإنسان القديم الاجتماعي، شيكاغو 1962.

ووترز فرانك: كتاب الهوبي، نيويورك 1963.

وستهايم باول: الفن القديم في المكسيك، المكسيك 1950.

وستهايم باول: ثقافة المكسيك القديمة، المكسيك 1956.

فيللي جوردون: مدخل إلى الآثار الأمريكية، كامبردج 1971.

ويتاكر جي: موتايا، مستعمرة فينيقية في سيسلي، لندن 1921.

ورمنغ تون: الإنسان القديم في شمال أمريكة.

يانتوك م: سر بحر ساراغوسا، ساوباولو 1953.

فيلهملي هربرت: عالم وبيئة المايا، ميونيخ 1981.

فوتيناو ألكسندر: فن النحت الفخاري في أمريكة القديمة، بادن ـ بادن 1965.

فوتيناو ألكسندر: وجوه غير متوقعة في الحضارة الأمريكية، نيويرك 1974.

فهرس
الأشكال والصور

28. شكل حجري (نيغريد ــ الملامح) «بنما».
29. شكل حجري ألميكي (ملامح نيغريد).
30. رأس تيراكوتا وعليه عمامة (ماوري) فيراكروز.
31. رأس تيراكوتا وعليه عمامة (مغربية) كويريرو (المكسيك).
32. عروس من المغرب وعلى رأسها عمامة، أويجين ديك كرويس.
33. ملتح بغطاء رأس شرقي (وسط أمريكا).
34. رأس صغير لملتح أوروبيد (تالاباكويا/ مكسيكو).
35. ملتح أوروبيد (بعمامة شرقية) تلاتيكلو/ مكسيك.
36. رأس تيراكوتا (ملتحٍ أوروبيد) فيراكروز.
37. رأس صغير لأوروبيد ذي لحية (هواستيكا/ المكسيك).
38. ملتح (أوروبيد) الرأس جزءٌ من وعاء بخور (غواتيمالا).
39. رأس تيراكوتا (أوروبيد) بلحية (كويريرو المكسيك).
40. وعاء فخاري على شكل مجسم له ملامح أوروبيد (أو اكساكا المكسيك).
41. رأس تيراكوتا صغير بأنف كبير (وسط أمريكا).
42. شكلان فخاريان لهما أنفان كبيران ويتحدثان (جاليسكو ــ المكسيك).
43. رأس تيراكوتا صغير بأنف كبير (شياباس ــ المكسيك).
44. رأس حجري صغير بأنف كبير (كاريكاتور) كويرور ــ المكسيك.
45. رأس صغير لملتح له أنف كبير (كاريكاتور) (تلاتيلكو/ المكسيك).
46. رأس حجري صغير له سمات غير مونغوليد (تايجين ــ المكسيك).
47. رأس به أنف كبير (أوروبيد) وعاء بخور (كوليما/ المكسيك).
48. أوروبيد ــ ملتح له طاقية مدببة: وعاء بخور (شياباس/ المكسيك).
49. وعاء بخور ــ رأس متعدد (أنموذج أوروبيد) «غواتيمالا».
50. شكل فخاري بأنف كبير (كاريكاتور) ــ (فيراكروز).
51. شكل فخاري بحجم كبير (كاريكاتور) ــ (فيراكروز).
52. رأس تيراكوتا له شكل عضو (فيراكروز).
53. رأس تيراكوتا بشكل عضو (الشرق الأدنى).
54. رأس (نيغريد) من صمغ كوبال، له شفتان ذهبيتان (كاريكاتور) بناما.
55. أنموذج أوروبيد.
56. رأس تيراكوتا لملتحٍ (أوروبيد) ــ (فيراكروز).
57. رأس تيراكوتا (أنموذج ــ أوروبيد) ــ (فيراكروز).
58. شكل فخاري لملتحٍ (ناياريتي ــ المكسيك).
59. قطعة حجرية وعليها ملتحي أوروبيد (فيراكروز).

الجبين (تلاباكويا / المكسيك).

94. قناع بتجاعيد كثيرة (شياباس / المكسيك).

95. قناع بتجاعيد كثيرة (كولومبية).

96. رأس بتجاعيد كثيرة وعلامة على الجبين (أوكساكا / المكسيك).

97. حورس في زهرة اللوتس (جانيا / المكسيك).

98. حورس في زهرة اللوتس (نمرود).

99. شاهدة حورس مع الإله القزم بس والتماسيح.

100. الإله من العالم القديم بتاج ـ باتيكو مع الزواحف.

101. إله أمريكي قديم مع الزواحف (فيراكروز).

102. إله مع الزواحف (المكسيك).

103. إله مشوه بتاج ـ باتيكو (قرطاجة).

104. إله مشوه للألميك منطقة (الألميك/ المكسيك).

105. يد ممدودة مع سوار وحلية في وسطها (آشور).

106. يد ممدودة مع سوار (قرطاجة).

107. يد ممدودة مع سوار كالكا تستينجو/ المكسيك).

108. شكل مجنح ورأس أسد (قبرص).

109. شكل نسائي بأجنحة وجسد حيوان (الإكوادور).

110. إله النسر (حورس) بجناحين مزدوجين (الشرق الأدنى).

111. الإنسان الطير بجناحين مزدوجين (فيلاهيرموزا/ المكسيك).

112. تمثال وعليه غطاء رأس عال ومتناسق (كاديش).

113. غطاء رأس عال ومتناسق (الشرق الأدنى).

114. غطاء رأس عال ومتناسق (كويريرو/ المكسيك).

115. مارتين والشحاذ (صورة من القرن السادس عشر/ المكسيك).

116. رأس حجري (الباعول/ غواتيمالا).

117. شكل له لحية وعلى جبينه علامة (وسط أمريكة).

118. الإله الأبيض الملتحي (الأفعى المجنّحة ـ فيراكروز).

119. إله وعلى طاقيته رمز.

120. إله قديم مع رمز صليب على الطاقية (فيراكروز).

121. إله أوروبيد مع رمز صليب على الجبين (فيراكروز).

122. رأس حجري (إله قديم) (كوبان/ غواتيمالا).

123. إله قديم ملتحٍ (وسط أمريكة).

124. إله قديم ملتحٍ (بالنيك/ المكسيك).

125. شاهدة من الألميك/ إله الأمواج.

126. سبّاح وعليه رموز الرفعة من اليَشْب الألميكي.

127. سبّاح وله لحية على نقش حجري (أوكسككا/ المكسيك).

128. سبّاح على نقش حجري (ألبان/ المكسيك).

129. نقوش لغوية قديمة (تينيسي/ الولايات المتحدة).

130. نقوش ديبرية ـ بونية (باراغواي).

131. نقش ثنائي اللغة (كلتي ـ بوني)

169. مقلاة أمريكية قديمة على شكل مستطيل وقبضتها شكل إنسان (تشيلي).
170. مقلاة من العالم القديم مستطيلة الشكل وهي على شكل إنسان (إفريقية).
171. مقبض سراج على شكل إنسان (قبرص).
172. مقبض سراج على شكل إنسان (فيراكروز).
173. وعاء للشرب على شكل مجسّم (منطقة وسط أمريكة).
174. وعاء للشرب على شكل مجسّم (البيرو).
175. وثن من العالم القديم (منطقة البحر المتوسط).
176. وثن أمريكي قديم (تلاتيكلو/ المكسيك).
177. صورة جانبية وأمامية (مصر).
178. مقاطع صورة متعاكسة جانبية وأمامية (أمريكة الجنوبية).
179. القوس الحلقي (القوس المقلد).
180. القوس الحلقي (القوس المقلد).
181. شاهدة للذكرى (قرطاجة).
182. شاهدة للذكرى (لافينتا/ المكسيك).
183. أعمدة على شكل إنسان (كرياتيد/ اليونان).
184. أعمدة على شكل إنسان (أتلانتا/ لافانتا/ المكسيك).
185. شكل طقوسي تحت سقف معبد (فينيقية).
186. شكل طقوسي تحت سقف معبد (لافانتا/ المكسيك).
187. الهيكل العظمي الراقص والعازف (البيرو).
188. الهيكل العظمي الراقص والعازف (هانس هولباين).
189. شكل طقوسي ذو لحية وعليه قبعة مدبّبة (قبرص).
190. شكل طقوسي وعليه قبعة مدبّبة (وسط أمريكة).
191. ملامح أوروبيد بعمامة (وسط أمريكة).
192. قبعة إيطالية (وسط أمريكة).
193. عمامة ولها نهاية مسطّحة (منطقة البحر المتوسط).
194. عمامة ولها نهاية مسطّحة (وسط أمريكة).
195. قبعة صغيرة (غواتيمالا).
196. قبعة صغيرة (الشرق الأدنى).
197. مصاغ مجسّم (غرب إفريقية).
198. سنّادة رأس على شكل مجسّم (أمريكة الجنوبية).
199. طاحونة الحبوب (مصر).
200. طاحونة الحبوب (وسط أمريكة).
201. شكل حيواني على عجلات (وسط أمريكة).
202. شكل حيواني على عجلات (وسط أمريكة).
203. شكل حيواني على عجلات (منطقة البحر المتوسط).

فهرس الأعلام

أمريكة الشمالية

أوروبة

كاديس

جبيل

قرطاجة

الفنيقيون

صيدا

صور

العقبة

جزر الكناري

إفريقيه

البرازيل

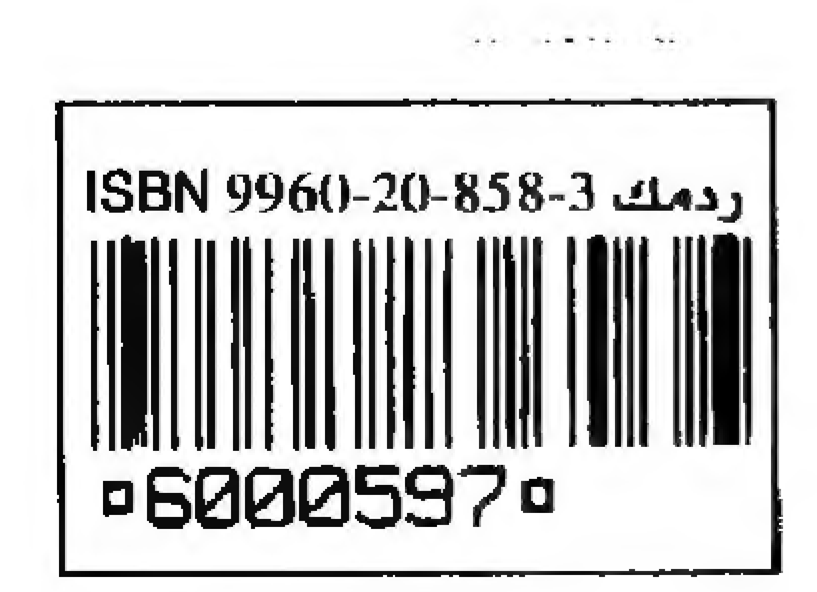
أمريكة الجنوبية

منذ خمسمائة سنة والعالم يكيل المديح لكولومبوس «كمكتشف أمريكة»، إلا أن هذا المجد ينبغي أن يكون من نصيب الفينيقيين. فقبل ثلاثة آلاف سنة أبحر هؤلاء من شواطىء البحر المتوسط إلى بريطانية. وداروا حول القارة الإفريقية بسفنهم، وأسسوا على ساحل إسبانية الأطلسي مستعمرتهم مدينة كاديس - واكتشفوا أمريكة.

تؤيد هذه المقولة مجموعة من المتوازيات بين حضارات طرفي الأطلسي منها:

- تشويه الجمجمة الاصطناعي.
- ثقب الجمجمة.
- الختان.
- الأهرامات وفيها القبور.
- عبادة زهرة اللوتس.
- أقنعة الجان وعلامة الجبين.
- حلية في أفواه الموتى.
- الإنسان الطائر ذو الجناحين المزدوجين.
- الإله الفينيقي الوثني بعل.
- الآلهة الوثنية القزمة بجلد حيوان ولحى كاملة.

وضمن هذه المعطيات يبقى من المستحيل غض الطر
الغرباء على فن وديانة وعلوم الفلك ولغة الأمريكيين
الكتاب يثبت من خلال مجموعة من القرائن الثقافية و
مكتشف أمريكة الحقيقي.



موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbooks.com